جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
قسم البلاغة والنقد

محمد علي أبو زيد

الاستعارة بالكناية
تطورها ودراستها ومعالجة مشكلاتها

رسالة مقدمة إلى كلية اللغة العربية
للحصول على درجة الماجستير في البلاغة والنقد

إشراف
الأستاذ الدكتور
محمد جلال الذهبي

إعداد
محمد علي أبو زيد

١٤٠٣ هـ
١٩٨٣ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي هدانا لهذا و ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، و الصلاة و السلام على سيدنا محمد و على آله و صحبه و التابعين باحسان الى يوم الدين .

و بعد

فان من لطائف البلاغة ، و أسرار البيان ، و بديع الاستعارات ذلك الضرب الذي لا ترى فيه المستعار ماثلا للعيان : و أنما يلقاك بريز يتهك عنه و يرشدك اليه .

و لهذا الفن من التصوير سحرة و جماله و الثره في النفوس ما دام قد أتى به على شرط المقام و سلك معه الطريق الميسور و عدل به عن الإفراط و الاغراب .

و مدار الفضيلة معه ما ترى فيه من بث للحياة و الحركة و اضفاء الصفات الانسانية على الجمادات و على ما لا يعقل من الكائنات حتى لترى به الأخرس ناطقا و الأصم سميعا و الأعجمي يبين . و لما كانت هذه النزعة مركوزة في طبيعة النفس رأينا هذه الصور في كل شعر و على كل لسان و في كل جيل و ان اختلفت الأمم و شعراء كل عصر في المدى و الخصائص و السمات .

و في أفصح الكلام و فصيحه : القرآن الكريم و الحديث الشريف و كذا كلام الصحابة . و الإعراب . منظومة و منثوره . صور عديدة من هذا الضرب تتمثل في خلع الحياة و الحركة على الجمادات و الظواهر الطبيعية و الانفعالات الوجدانية حياة و حركة قد ترقى فتصبح حياة إنسانية حيث توهب هذه الأشياء عواطف آدمية و خلجات انسانية تشارك بها بني البشر ، و هذا الضرب ما عرف في البلاغة العربية بالاستعارة المكنية أو بالكناية أو المكنى عنها .

و قد عنى الدارسون منذ قديم على اختلاف طوائفهم بهذا الضرب من الاستعارات لاتصالها في بعض الجوانب بأمور عقدية هذا من ناحية و من ناحية أخرى لكونه أحد فنون البديع المهمة التي أقام عليها النقاد و البلاغيون كثيرا من بحوثهم و أجروا عليه كثيرا من الأصول و المقاييس النقدية و البلاغية الى أن جاء عبد القاهر فتناوله على طريقته الفذة تحليلا و كشفا و تمييزا ثم جاء العلماء من بعده و قد ذهبوا في فهم كلامه و تأويل مراده مذاهب شتى و من هنا اختلفت الآراء و تباينت وجهات النظر و تعددت المذاهب ثم جاء العصر الحديث فنادى أكثر النقاد بإخراج هذا

اللون من التعبير عن نطاق الاستعارة ، ظنا منهم أن فى ذلك خلاصا من المشكلات التى صاحبت الكتابة على حين أنه يعد اغفالا للأسس والأصول التى قام عليها الدرس البلاغى .

ومن هنا يمكن القول إن دراسات الكتابة قد مرت بمراحل وأطوار مختلفة وقد امتازت كل مرحلة بملامح وسمات خاصة كما أن هناك عديدا من المشكلات التى صاحبت دراسة هذا الفن أوجدت عليه فى بعض المراحل .

ولا ريب ان تاريخ الفن البلاغى وتناول نشأته وتصبح مراحل نموه وازدهاره منذ ان كان اشارة ورمزا الى ان أضحى فنا بلاغيا له أصوله وحدوده يمثل عملا جليلا قد يساعد على تبين كثير من قضايا هذا العلم ومن هنا فقد اخترت موضوع الاستعارة بالكناية . تطور دراستها ومعالجة مشكلاتها للحصول على درجة التخصص وذلك لدوافع وغايات أهمها :

أولا : محاولة التأصيل لهذا الفن وتتبع المراحل المختلفة التى مربها حيث إنه لا يوجد فيما أعلم بحث مستقل يتناول هذا الموضوع على هذا النحو . وإن كنت أعلم ان هناك بحوثا ودراسات مهمة قد تناولت هذا الضرب ضمن أحاديث الاستعارة وقد انتفعت بها وأفدت منها .

ثانيا : تحليل مذاهب البلاغيين وما دار حولها من مناقشات ، وإيضاح ما شاب تلك المذاهب من غموض أدى إلى التجاهل حينا أو التحامل أحيانا .

ثالثا : محاولة تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة التى صاحبت دراسة هذا الضرب .

رابعا : محاولة فض الالتباس القائم بين صور الكناية وكثير من صور البيان الأخرى عن طريق بعض الاصول التى يمكن أن يركن اليها فى التفريق والتمييز بين الضروب المختلفة .

خامسا : تناول بعض القضايا النقدية والبلاغية المتصلة بهذا الضرب .

سادسا : القيمة الذاتية لهذا اللون من التصوير حيث إنه يمد ضربا من ضروب البيان له من السمات والخصائص ما يجعله من أسمى صور التعبير وأجملها ويظهر ذلك من تحليل النصوص والكشف عما بها من أسرار ولطائف .

سابعا : ان هذا الموضوع يتيح الجمع بين الناحية النظرية وبين الناحية التطبيقية وهذا فيما أقدر أفضل المناهج فى الدراسات البلاغية .

ومن الطبيعى أن تتعدد مناهج البحث وتختلف ولا يسلم منهج من اشتراك وملاحظة ، والمرجح دائما إيثار منهج بعينه وافراده أو المزاوجة بين منهج وآخر مردّه الى طبيعة البحث واحواله ومقتضياته ، ولأن غرض تلك الدراسة يتجاوز التأريخ لفكرة الكتابة ويتسع لكثير من القضايا والمسائل المتصلة بهذا الضرب من حيث هو فن أدبى وبلاغى ونقدى ، لذلك جاء البحث فى صورته العامة تاريخيا لكن لم أقصد من الدراسة أن تكون فهارس لما أثير فى كتب البلاغيين وليست مهمة هذه الدراسة أن تكون عبارات منقولة من الدلائل أو الكشاف أو نهاية الايجاز أو غيرها من المصادر لذلك كان ما أنقله منها لعرض أفكار أصحابها غير غافل عن التتابع التاريخى لاستطلاع الوقوف على ملامح الموضوع منذ نشأته الأولى حتى عصر المتأخرين بحيث تتضح الملامح والسمات الخاصة بهذا الفن وما يتصل بها من دراسات فتلك الدراسة إذن ترتكز بالإضافة الى الجانب التاريخى على محاولة إدراك المدى الذى وصلت اليه الدراسات القرآنية والنقدية والبلاغية والأدبية فى فهم الاستعارة الكتابية وطبيعة إبداعها الفنى وادراك الصلة القائمة بين كل مرحلة وما سبقتها بما يكشف جهود الباحثين على مر العصور فى هذا الميدان .

وصعوبة هذا البحث لا تقف عند حدود الجمع بين طوائف عديدة ذات مناهج مختلفة وغايات متفاوتة ، بل تمتد هذه الصعوبة إلى الفترة الزمنية الممتدة وما يستتبع ذلك من ضرورة الرجوع الى مصادر عديدة ليس فى مجال البلاغة والنقد والأدب فحسب وانما يتطلب الأمر مطالعة مصادر النحو واللغة ودواوين الشعراء حيث كانت المؤلفات العربية وخاصة فى عهودها الأولى مستوعبة . فالمصنّف الواحد لا يعالج علما محددا وانما هو موسوعة كاملة تشمل ألوان الثقافة العربية كلها من أدب ولغة وبلاغة وتفسير ونحو وتصريف فتعطى صورة كاملة لفن القول ودقة التعبير لأن الفصل بين العلوم لم يكن المقصد الذى يهدف اليه العلماء فى هذه الفترة المضيئة .

منهـــــج البحث

يشتمل هذا البحث على مقدمة • وثلاثة أبواب وتعقيب

الباب الأول : المكتبة قبل عهد القاهـــــر

يشتمل هذا الباب على فصلين :ـ

الفصل الأول : فى الدراسات القرآنية واللغوية

وفيـــــه مبحثـــان :

الأول : فى الدراسات القرآنية والنبوية

الثانى : فى الدراسات اللغـــــوية

الفصل الثانـــــى : فى المصادر النقدية والبلاغيـــــة •

يشتمل هذا الفصل على أربعـــــة مباحث :ـ

البحث الأول فى البديع لابن المعتز ـ وأخبار ابى تمام للصولى

البحث الثانى فى موازنة الآمـــــدى

البحث الثالث فى وساطة القاضى الجرجانى •

البحث الرابع عند أبى هلال وابن رشيق وابن سنان

الباب الثانى : المكتبة من عبد القاهر الى السكاكى

ويشتمل هذا الباب على ثلاثة فصـــــول :

الفصل الأول : تطور دراسات المكتبة على يد عبد القاهر

الفصل الثانى : المكتبة على طريق التطبيق والتحديد الأصطلاحى

يشتمل هذا الفصل على مبحثين :ـ

البحث الأول : فى الكشاف للزمخشرى •

البحث الثانى : مع الفخر الرازى

الفصـــل الثالث : الوجوع بصور المكتبة الى روح الدرس الأدبى

أولا : عند ابن الأثير •

ثانيـــا : عند ابى الأصبع •

ثالثـــا : عند العلـــوى •

الباب الثالث : مذاهب المكتبة وصورها

الفصل الاول : مـــع السكاكى فى المكتبة والتخيلية •

الفصل الثانى : مذاهب المكتبة بعد السكاكـــى •

يشتمل هذا الفصل على ثلاثة مباحث :—

الأول : مذهب الخطيب القزويني .

الثاني : المذهب المنسوب للجمهور .

الثالث: المذهب المنسوب الى صاحب الكشف ومذهب العصام .

الفصل الثالث : صور المكنية .

وبعد :

فان أكن قد وفقت في تلك المحاولة . فذلك من فضل ربي وإن تكن الأخرى فحسبي أجر المجتهد .

هذا و لا يفوتني هنا أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير لأستاذي الجليل . فضيلة الاستاذ الدكتور : محمد جلال الذهبي لما كان لفضيلته من فضل في تقويم هذا البحث فله مني جزيل الشكر والعرفان . وبن الله حسن الجزاء .

وعلى الله قصد السبيل ....

* * * *

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى البحث

لم أقصد من هذا التمهيد الحديث المفصل عن التحديدات والقواعد والأصول والمذاهب فذلك موضعه أصل البحث بأبوابه وفصوله ومباحثه وفقا لمراحله وإنما قصدت التعريف بهذا الضرب وبيان بلاغته ومكانته بين صور البيان والمجاز الأخرى .

وينبغى الاشارة أولا إلى أن هناك اختلافا جوهريا فى طريقة التصوير والخيال والأداء بين ضربين من ضروب الاستعارة ، فقوله تعالى "وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ"(١) . نجد أن المراد ليس هو الصراط الذى تراه العين طريقا واضحا مستقيما ، وإنما المراد حقائق الدين ومنهج القرآن وتجاوبه مع الفطرة الصحيحة ، واستقامته فى نفوس أهل الحق واليقين ، كأنه طريق واضح ، والمعنى أنه ليس بمعنا إلا الصراط المعبر به عن حقائق الدين ، وكذلك قوله تعالى فى وصف أهل النفاق : "فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ"(٢) . ليس المراد بالمرض فى الآية الكريمة العاهة الجسمانية إذ الكلام مسوق لذم المنافقين على فعل صدر منهم بإرادتهم وهو إبطان الكفر وإظهار الاسلام ، والمرض الحقيقى ليس من فعلهم حتى يذموا عليه ، إذن فلفظ المرض مستعار للنفاق للمشابهة الحاصلة بينهما فى أن كلا منهما يفسد مايتصل به ، فإذا كان المرض يفسد الأجسام فان النفاق يفسد النفوس .

ويقول صلى الله عليه وسلم : " اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِن وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ الْمَنْقَلَبِ ، وَالْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ ، وَسُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ "(٣)

نراه صلى الله عليه وسلم جعل طول السفر وتكاليفه ومشقته بمنزلة الوعثاء (فعلاء من الوعث ضد الجدد أى الطريق السالك السهل المتبسط) .

نرى فى كل ذلك ونحوه أن الشيء قد أطلق مرادا به غيره ، ولهذا

(١) الشورى : ٥٣ (٢) البقرة : ١٠ .
(٣) المجازات النبوية ـ الشريف الرضى ـ تحقيق د / طه محمد الزينى ص ١٤٩ .

مثل قوله تعالى : " إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا "(١) فقد صورت جهنم فى صورة حيوان هائج يجول ويزفر من شدة غيظه ، ثم أستعير لها هذا الحيوان ، والأسلوب كما نرى على هذا النحو يثير الهول والخوف بهذه الصورة الفريدة المفزعة .

ومن هذا الضرب قوله صلى الله عليه وسلم : " أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِشَهْوَةٍ ، وَمَا مِنْ جُرْعَةٍ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ يَكْظِمُهَا عَبْدٌ "(٢) .

نرى أن فى هذه الاستعارة — جرعة غيظ — تصويرا دقيقا لحالة الكظم والأخذ بخناق الغيظ ، وحبسه فى الصدر حتى يموت ، وذلك كما عن المجازاة واحتسابا للأجر ، وهذه استعارة قريبة لأنك حين تحبس غيظك التقدة ، وتعبر عنه ، تشعر كأنك تعالج شرابًا صابًا مرًا .

وهكذا نرى طبيعة الخيال فى هذه المجازات تختلف عن طبيعة الخيال الذى مضى حيث نرى هنا أشياء أضيفت إلى أشياء ، فقد أضيف التغيظ والزفير إلى جهنم ، كما أضيف الجرعة إلى الغيظ وهو لا يجرع على الحقيقة وإنما ذلك من شأن الشراب أو الدواء . وهذا الضرب هو ما يسمى بالاستعارة المكنية ، وأما الضرب الأول فهو التصريحية ، وواضح أن كلا من الضربين يقوم على أصل به يفترق عن الآخر ، فإذا كانت التصريحية تقوم فى أساسها على جعل الشىء الشىء وليس هو على الحقيقة ، فإن المكنية تقوم فى أصلها على جعل الشىء للشىء وليس له على الحقيقة أو بعبارة أخرى : إذا ذكر اللفظ المستعار كانت التصريحية ، وأما إذا حذف ودل عليه بلوازمه من روادفه كانت المكنية (٤) .

على أن اصطلاح الاستعارة بالكناية لم يعرف فيما نعلم قبل الفخر الرازى فى كتابه نهاية الايجاز(٥) ، وقد أخذه عنه السكاكى والمتأخرون من بعده ،

---

(١) الفرقان : ١٢ .
(٢) المجازات النبوية ص ٣٦٤ .
(٣) نهاية الايجاز ص ٩٢ .
(٤) ينظر : رسالة الصبان فى علم البيان بحاشية الاهابى ص ٢٦٨ .
(٥) نهاية الايجاز للفخر الرازى ص ٩٢ .

خلافا لما قد يظن من أن الفضل فى ذلك يرجع الى السكاكى ، فالسكاكى فى الحقيقة ناقل لهذا الاصطلاح عن الفخر ، وإن أضاف إليه مصطلحا آخر أو استعمالا آخر وهو - " المكنى عنها " -(١)

وقد درج المتأخرون من بعد على أن يطلقوا على هذا الضرب الاستعارة بالكناية أو مكنية أو مكنى عنها .

والمراد بالكناية هنا هو المعنى اللغوى وهو الخفاء لا المعنى الاصطلاحى وعلى ذلك يكون معنى استعارة بالكناية أى الاستعارة الملابسة للكناية أى الخفاء .

واستعارة مكنية أى مخفية ، واستعارة مكنيا عنها أى مدلولا عليها بلازمها .

بلاغة المكنية ومكانتها بين صور المجاز

تكاد تجمع مصادر البلاغة العربية كما تذكر بعض المصادر غير العربية أيضا أن المجاز يفضل ويمتاز على الحقيقة ، فقد نقل عن أرسطو قوله : (ان أعظم شىء هو أن تمتلك زمام المجاز ، وهذه القدرة لاتمنح غانها من سواهب النابغين وعلامة عبقريتهم)(٢) .

وقد أطبق البلاغيون العرب على أن المجاز فى مقامه أبلغ من الحقيقة(٣) وأحسن موقعا فى القلوب والأسماع(٤) لما فيه من قدرة على التصوير والتخييل حتى يكاد السامع أن يرى المعنى عيانا ، وقد ذكر فى ذلك ابن الأثير أن عجب ما فى العبارة المجازية أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعى فى بعض الأحوال حتى أنها ليسمح بها البخيل ويشجع بها الجبان ، ويحكم بها الطائش المتسرع ، ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر حتى إذا انقطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مال ، أو ترك عقوبة ، أو اقدام أمر مهول ، وهذا هو نحوى السحر الحلال المستغنى عن القاء العصا والحبال)(٥) .

---

(١) المفتاح للسكاكى ص١٧٦ . (٢) الأصول الفنية للأدب د/عبدالحميد حسن ص١١٤ .
(٣) الايضاح للخطيب القزوينى ص١٨٩ .
(٤) العمدة لابن رشيق تحقيق محيى الدين عبدالحميد جـ ١ ص ٦٦ .
(٥) المثل السائر لابن الأثير ص ٣٩ جـ١ - ط بولاق .

ومن قبل أشاد بها عبدالقاهر وتكلم عنها من حيث قيمتها الجمالية وليس هذا الضرب من الاستعارة (المكنية) بدون الضرب الأول (التصريحية) فى إيجاب وصف الفصاحة للكلام لابل هو أقوى منه فى اقتضائها ، والمحاسن التى تظهر به ، والصور التى تحدث للمعانى بسببه آنق وأعجب)[1] .

ومع أن كثيرا من النقاد والباحثين المحدثين يتجهون إلى اخراج هذا الضرب من نطاق الاستعارة ويرون أنه نوع آخر لايقوم على تشبيه أصلا ويسمونه بالتشخيص[2] فإنهم لايختلفون فى قيمته ، بل إن بعضهم قد جعل المكنية قمة المجاز[3] ، وذلك لما يظهر بها من جهد الأديب وتمكنه من الخيال (فإن الخيال منها أظهر والادعاء أكثر وضوحا ، وسبها قلت فى التصريحية فإن القاعدة بين الطرفين موجودة إن لم تكن بذكرهما فبوجود القرينة الماتعة من إرادة المعنى المستعار الذى وضع له . أما المكنية فان فيها من المبالغة مالا يخفى ، فقد انتزعت صفات المشبه به الذى أضمرته فى نفسك وأثبتها للمشبه وكأنها لوازمه وصفاته الثابته ، ولايهتدى لصاحبها الأصيل إلا بعد تدبر واعمال رويـة[4] .

فبلاغة المكنية من ناحية اللفظ أن تركيبها يدل على تناسى التشبيه ، ويحملك عمدا على تخيل صورة جديدة تنسيك روعتها ماتضمنه الكلام من تشبيه خفى مستوره وأما بلاغتها من حيث الابتكار وروعة الخيال وماتحمله من أثر فى نفوس سامعيها فمجال فسيح للإبداع وميدان تسابق المجيدين فيه فرسان الكلام .

ونكتفى هنا بايراد مثال واحد بقصد التدليل : يقول الله سبحانه وتعالى " وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا)[5] ، فقد وصف سبحانه الميثاق الذى هو العهد الموثق والمؤكد بالغلظ وهو وصف للأجرام ، والوجه فى ذلك أنه شبه الميثاق بالحبل المتين من حيث أن كلا منهما يربط بين اثنين ، وحذف المشبه بـه

---

(١) دلائل الاعجاز ط المنار ص ٣٠٠ .
(٢) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى — د/شوقى ضيف ص ٢٣٦ .
البلاغة تطور وتاريخ — د/ شوقى ضيف ص ١٣٠ .
الصور البيانية بين النظرية والتطبيق — د/حفنى محمد شرف ص ٣٧٢ .
(٣) الصورة الأدبية — د/ مصطفى ناصف ص ١٨٧ .
(٤) علم البيان — د/بدوى طبانة ص ١٤٢ . (٥) الأحـزاب : ٧ .

والحق أن البلاغيين العرب لم يؤسسوا حكمهم بأبلغية المجاز على تقدير نظرى مجرد كما يتهم أحد المعاصرين [١] ، بل إنهم استمدوا ذلك من واقع الأساليب الأدبية التى عالجوها ، كما أنهم لم يهملوا دور الحقيقة وقيمتها فى مقاماتها ، إذ أن الفيصل فى إيثار طريق على آخر انما مرده الحال ومقتضياته ، فإن من غير المتصور فى حق هؤلاء أنهم كانوا على غير إدراك ببلاغة الحقيقة فى مواضعها ، وإلا كان ذلك يعنى منهم اتهاما للقرآن الكريم لأنه كما اشتمل على المجاز فقد استخدم الحقائق أيضا ، وهذا أمر غير وارد .

وما دام المجاز فى مقامه أبلغ من الحقيقة تكون الاستعارة أبلغ من التشبيه لكونها فرع مجاز ، ولأنها أعمق منه تصويرا وأحصر تعبيرا حيث أنها تقوم على تناسى تشبيه وحذف أحد طرفيه حتى يخيل للسامع صورة جديدة تنسى روعتها ماتضمنه الكلام من تشبيه خفى مستور .

والاستعارة أبلغ كذلك من المجاز المرسل لما فيها من دعوى الاتحاد وكذا الكناية كما نقل عن السبكى ورجحه الصبان معللا بأن الاستعارة كالجامعة بين كناية واستعارة . [٢] أى لأن فيها الانتقال من الملزوم إلى اللازم شأن الكناية وفيها استعمال اللفظ فى غير موضوعه لعلاقة المشابهة الذى هو الاستعارة .

ونقل عن السيوطى أن أبلغ أنواع الاستعارات هى التمثيلية كما يؤخذ من كلام صاحب الكشاف " وجعل بعضهم الاستعارة بالكناية تالية للتمثيلية وأفضل من المصرحة بعامة لاشتمالها على المجاز العقلى من حال قرينتها على المشهور الى جانب التجوز اللغوى ، كما هى أبلغ من التصريحية والتبعية خاصة لعدم تبعيتها لاستعارة أخرى [٣]

وان كنا نلاحظ أن أبرز ما أهتم به الزمخشرى فى الاستعارة ذلك الذى نواهم يكون فيه عن اللفظ المستعار ، وهذا النوع عنده من أسرار البلاغة ولطائفها كما يقول : (يوقد أشار فى أكثر من موضع إلى حسن هذه الاستعارة وفصاحتها) [٤] .

---

(١) ينظر الصورة الأدبية د/ مصطفى ناصف ص ١٨٧ .
(٢) رسالة الصبان بما تسهيه الاجابى ١ ص ٥٠٦ .
(٣) السابق ص ٥٠٥ ، ص ٥٠٦ .
(٤) الكشاف جـ٢ ص ١٠ ـ ط الاستقامة ـ .

وذكر وصفه وقد خرلت هذه الاستعارة ميثاق الله وعهده لانهياله حبلا غليظا موثيا وملوسا زيادة فى وضوحه وتشخيصه فى وجدان أسمع ، وحاجزا كثيفا بينهم وبين كل باطل ، ومثل ذلك قوله تعالى (وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ) أى عذاب بالغ فى الشدة ، ووصفه تعالى بما يوصف به المحسوس ليفيد أن هذا العذاب لضراوته كأنه شىء يرى بالعين ويُحَسُّ باليد وهذا ضرب من ضروب البيان الكاشف الذى ترى به المعانى المعقولة ، تبرز فى صور مشاهدة محسوسة .

وإذا كان البلاغيون قد اتفقوا على أن الاستعارة هنا تسمى استعارة بالكناية أو مكنية أو مكنيا عنها ، فقد اختلفوا فى المعنى الذى يطلق عليه كلمة استعارة بالكناية ولهم فى ذلك مذاهب وآراء عديدة ومختلفة أبرزها مذهب السكاكى والمذهب المنسوب إلى الجمهور ، ومذهب الخطيب القزوينى ورأى العصام والرأى المنسوب إلى صاحب الكشف ، وكذا رأى محمد بن على بن محمد الجرجانى على ماسيأتى تفصيله فى مواضعه .

ولئن كان الخلاف فى فهم كلام الإمام عبدالقاهر وتأويل مراده أحد العوامل المهمة فى اختلاف الآراء ، فالذى لاشك فيه أن الشيخ لم يهيئ حديثه فى التفريق والتمييز من فراغ وإنما كان له أصول ممتدة فى تراث العلماء قبله ، يبدو ذلك فى الإشارات العديدة التى وقفنا على بعضها عند هؤلاء العلماء ، وهى وإن كانت فى عمومها عبارة عن إشارات موجزة لكنها تعد ذات قيمة حقيقية من الناحية التاريخية فى مجال التأصيل التاريخى للفن البلاغى ، وهذا يؤكد أن البلاغيين المتأخرين لم يبتكروا من رؤوسهم ولكن استمدوا آراءهم من أصول وجذور ممتدة ، وهكذا يمكن القول إن المكنية قد مرت بمراحل ثلاث ومن هنا جاء البحث فى ثلاثة أبواب .

* * *

الباب الاول

المكنية قبل عبد القاهر

الفصل الاول : في الدراسات القرانية واللغوية
الفصل الثاني : في المصادر النقدية والبلاغية

الفصل الاول
في الدراسات القرانية واللغـــــــــوية

المبحـــــــث الاول :

في الدراسات القرانيـــــة واللغـــوية

أولا : عنـــــد أبي عبيـــــــــة

ثانيا : في مجازات الشريـــف الرضـــي

ثالثا : فـــــي أمالـــــي المرتضـــى

المبحـــــــث الثاني :

فـــــــي الدراســـات اللغـــويـــة

أولا : في انكتاب لسيبـــــــاويـــــة

ثانيا : في قواعـــد الشعر لثعلـــــب

ثالثا : في الخصائـــــ ص لابـــي جنـــي

رابعا : عنـــــــد الثعـــالبـــي

أولا : عنـــد أبى عبيـــدة ت ٢٠٨ (١)

يعد مجاز القرآن من اللبنات الأولى فى بناء صرح البلاغة العربية والنواة الطيبة التى أثمرت دراسات مفصلة وبحوثا واسعة فى كتب اللاحقين ومع أنه لم يرد للفظ الاستعارة ذكر فى مجاز القرآن فانه قد وردت بعض الاشارات النادرة الى فكرة المكنية .

ولعل أبرزها ماعلق به أبوعبيدة على قوله تعالى : (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) حيث قال : / هذا مجاز الموات والحيوان الذى يشبه تقدير فعله بفعل الآدميين / (٢) ، وهذا يعنى أن السموات والأرض قد شبهتا بالانسان الذى تكون منه الطاعة . ولايخفى أن المكنية فى جوهرها تستند إلى هذا الأصل ، دون أن يعنى ذلك أن أبا عبيدة إنما كان يقصد من وراء كلامه المكنية أو غيرها ، فهذا أمر لم يدر فى خَلَده قطعا ، لم يكن يعنيه هو أو معاصروه وعلى كل حال فان أمثال تلك الإشارات والتلميحات نادرة كما قلت فى مجاز القرآن حيث وجدناه يعرض لكثير من شواهد المكنية موجها ومخرجا لها على الظاهر (٣) .

وإذا كان لفظ الاستعارة لم يرد ذكره فى مجاز القرآن فإن أبا عبيدة قد عبر بلفظ الاستعارة ونص عليه فى أربعة مواضع فى كتابه النقائض (٤) .

ولعل أوضح هذه المواضع الأربعة التى نص فيها أبوعبيدة على لفظ الاستعارة تعليقه على قول جرير : —

واللَّوْمُ قدْ خطمَ البَرِيتَ وأَرْزَمَتْ أم الفرزدقِ عند شرحوارِ

فقوله : (أرزمت : يعنى حنت وهو حنين الناقة فاستعارة من الناقة فصيره لأم الفرزدق وقد تفعل العرب ذلك كثيرا (٥) .

وتبدو أهمية هذا التعليق فى كونه الأصل الذى ينبهت عليه الاستعارة من الضرب الثانى على ماقال به عبدالقاهر فيما بعد حين قصد إلى التفريق بين ضربى الاستعارة

(١) تاريخ علوم البلاغة . أحمد مصطفى المراغى — ط الحلبى ١٩٥٠ ص ٦٣ .
(٢) مجاز القرآن جـ٢ ٢٦ . (٣) السابق جـ ٢ ص ٢٣٥ .
(٤) ينظر : مواضع الاستعارة فى النقائض جـ١ ص ٢٦ . (٥) النقائض جـ٢ ص ٤١ .

ثانيا : عنـد الشـــريف الرضـــى ت ٤٠٦ هـ[1]

يلاحظ الباحث فى مجازات الرضى أنه لم يكن معنيا أصلا بوضع الحدود الفاصلة بين صور البيان ، إذ لم يصرف جهده الى التدقيـق العلمى على طريقة البلاغيين الاصطلاحية وإنما كان بحثه أقرب إلى المنهج الأدبى المتلمس لأسـرار التركيب مستندا إلى طبعه وذوقه وثقافاتـــه .

ومن هنا وجدنا الشريف الرضى يستخدم كلا من المجاز والاستعـــارة بمدلول متسع يستوعب عديدا من الصور البيانية والبلاغية بصة عامـة .

ومهما يكن من شىء فقد كان للرضى جهود حقيقية فيما يتصل بموضوع الكنية ، يعدها ضمن الدراسات الممهدة لبحوث الكنية عند المتأخرين بـــل لعلها من أهم تلك الدراسات ، ففى بيان الرضى لطريق المجازات والاستعارات فى آى القرآن والحديث الشريف الذى عرض لها فى كتابيه " الخالديين " نجد له كثيرا من الإشارات إلى طريق التجوز فى الكنية أو التخيلية ، ومهما جاء فى عباراته مايؤول إليهما معا ، وإن لوحظ على كثير من بيانه التباس الكنية بغيرها من ضروب الاستعارة أو صور البيان الأخرى .

فمن إشاراته الواضحة إلى طريق الكنية والتخيلية معا قوله تعليقا على قوله تعالى : " وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ " وهذه استعارة من وجهين أحدهما : وصف اليوم بالاحاطة وليس بجسم فيصح وصفه بذلك .
والوجه الآخر : أن لفظ " محيط " ههنا كان يجب أن يكون من نعت العذاب فيكون منصوبا فجعله سبحانه وتعالى من نعت اليوم فجاء مجرورا ، فأما وصف اليـــوم بالإحاطة وإن لم يأت فيه ذلك ، فالمراد به والله أعلم أن العذاب لما كـــان يعم المستحقين له يوم القيامة حسن وصف ذلك اليوم بأنه محيط بهم أى أنـــه كالسياج المضروب بينهم وبين الخلاص من العذاب والإفلات من العقاب ، وأمـا نقل نعت العذاب إلى نعت اليوم ، فالوجه فيه أن العذاب لما كان واقعا فى ذلك اليوم كان ذلك اليوم المحيط به لأنه ظرف لحلوله ووقت نزوله[2] .

---

(١) الشريف الرضـــى ـ محمد عبدالغنى حسن ـ ص ٢٦ .
(٢) تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى تحقيق محمد عبدالغنى حسن ـ ط القاهرة سنة ١٩٥٥ ـ ص ١٦٥ .

والذى يجلينا من كلامه ببيانه لطريق الاستعارة فى الوجه الأول فقوله وصف اليوم بالإحاطة وليس بجسم إشارة واضحة منه إلى ماعرف بعدُ بالتخييلية أو الضرب الثانى من الاستعارة عند عبدالقاهر وهى التى يوصف فيها الشىء بالشىء وليس له على الحقيقة (١)

وأما قوله إن العذاب لما كان يعم المستحقين له الى آخره فيجرى على مقتضى المكنية على المذهب المنسوب إلى الجمهور ، فمقتضى كلام الرضى أن اليوم فيه قد شبه بالسياج المضروب بينهم وبين الخلاص من العذاب ، والعلاقة قائمة وهى الإحاطة والشمول ثم حذف المشبه به ودل عليه بشىء من لوازمه .

ومن إشاراته القريبة أيضاً إلى طريق المكنية والتخييلية قوله تعليقاً على قوله صلى الله عليه وسلم وقد ذكر الجرجير: نوالذى نفسُ محمد بيدهِ ما مِنْ عَبْدٍ بَاتَ فِي جُوفِهِ شىءٌ من هذه البَقْلَةِ إِلَّا بات الجُذَامُ يَرْفُفُ عليه رأسِهِ حَتَى يُصْبِح إِمَّا أن يَسْلم وإِمَّا أَنْ يَمْطَبَ ، يقول الرضى وهذا القول مجاز لأن الداء المخصوص الذى هو الجذام لايصح أن يوصف بالرفرفة على الحقيقة لأنه عرض من الأعراض ، وإنما قال عليه الصلاة والسلام يرفرف على رأسه ، عبارة عن دنو هذه العلة فيه ، فيكون بمنزلة الطائر الذى يرفرف على الشىء إذا هم بالنزول إليه والوقوع عليه (٢) .

فقول الرضى أولا لأن الداء إلى آخره يعود إلى التخييلية لأن الشىء قد وصف بما ليس له على الحقيقة أو بمعنى آخر جعل الشىء للشىء وليس له ، وأما قوله بعد ذلك بمنزلة الطائر ألخ ، بيان واضح للمكنية التى يشبه فيها الشىء بغيره لمشاركته إياه فى علاقة ما ويحذف ويدل عليه بشىء من لوازمه .

ولو أردنا أن نجرى الاستعارتين المكنية والتخييلية على مقتضى تخريج الرضى نقول أنه عليه الصلاة والسلام قد شبه الجذام بالطائر والعلاقة قائمة ،

---

(١) ينظر: دلائل الاعجاز ص ١٠٦ .
(٢) المجازات النبوية للشريف الرضى ـ د/طه الزينى ـ ط الحلبى ص ١٥٣ ، ١٥٤

فالجذام يكون على حال من قرب الوقوع على من ملأ جوفه بتلك البقلة ، كما أن للطائر حالا شبهه بذلك حين يرفرف على الشيء إذا هم بالنزول إليه والوقوع عليه وتلك الصلة سوغت ذلك التشبيه ثم حذف المشبه به ، ثم دل عليه بشيء من روادفه على سبيل التخييلية التي هي قرينة المكنية عند المتأخرين . [وقد يأتي في بيان الرضى ما يشير إلى طريق المكنية فقط على المذهب المنسوب إلى الجمهور يقول في بيان وجه الاستعارة في قوله صلى الله عليه (إني على جَنَاحِ سَفَرٍ) وهذه استعارة واقعة بوقعها ومقرطه غرضها لأنه عليه السلام شبه السفر بالطائر الذي قد هم بالمطار وخيل الآخذ أهبة المسافر كالكائن على جناح ذلك الطائر ينتظر نهوضه ويراقب تحليقه، ومما يؤكد ذلك قولهم في الانسان الذي تكثر أسفاره ، ما هو إلا طائر طيار عبارة عن التردد في السفر وكثرة الانزعاج عن الوطن (١) .

وواضح أن فهم الشريف الرضي للاستعارة في هذا الحديث الشريف على هذا النحو دقيق ذلك لأن كلمة الجناح قد تأتي مضافة إلى غيرها ، ويختلف التوجيه معها تبعا للمعنى والسياق ، فهم يقولون جناح الطريق وجناح الوادي وجناح الانسان كما قال سبحانه وتعالى (وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ) (٢) كل ذلك مستعار للجانب على طريقة الاستعارة التصريحية ، أما قولهم: جَنَاح الأمن ، أو جناح الخوف ، وكذا جناح السفر فعلى نحو ما فيه كما في قول علي كرم الله وجهه في وصف أحوال الدنيا وتشبيهها بالانسان .... ولم يمس منها في جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف) (٣) ، لأنه جعل للأمن جناحا فصوره في صورة طائر قد ألقى جناحه هادئا لا يفزعه شيء ، والطائر من أدق الحيوانات حسا بالأمن والخوف ، فهو إذا سكن وهدأ كان ذلك من شرط الأمن والدعة ، وذلك مفهم في السياق — ثم جعل للخوف قوادم ، فصوره في صورة طائر مذعور قد مد قوادمه جادا في الهرب ، ولهذا آثر القوادم هنا على الجناح ليشعر بامتداد الجناح ببسط القوادم ، وتأهبك عمن يكون على قوادم طائر مذعور .

---

(١) السابق ص ٤٣٤ .
(٢) سورة طه : آية ٢٢ .
(٣) التصوير البياني — د/ أبو موسى — ص ٢٨٦ .

وقد يأتى فى بيان الرضى مايرى أيضا الى العلاقة القائمة بين المستعار منه والمستعار له ، ومنه تعقيبه على قوله صلى الله عليه وسلم : (وَاللهِ لا أُعْطِيكُمَا وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَنْطَوِى بُطُونُهُمْ لا أَجِدُ ما أُنْفِقُ عَلَيْهِمْ) (١) . يقول الرضى : (وفى هذا القول مجاز ، وأهل الصفة هم فقراء المهاجرين - فكأنه عليه الصلاة والسلام شبه بطونهم من الحض والهضم لقلة الزاد والطعم بالأوعية الفارغة التى تنطوى لفراغها وتنضم لخلو أجوافها) .

فقول الشريف هذا قريب جدا من إجراء المتأخرين مثل هذه الاستعارات ، حيث يقولون شبهت بطون أهل الصفة بالشئ الذى ينطوى إذا أفرغ منه الهواء كالقربة وحذف ورمز إليه بشئ من لوازمه وهو تنطوى .

وفى قوله تعالى : " وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً " يعقب الرضى بأن هنا استعارتين يعنينا منهما الأولى حيث يقول : أحدهما قوله سبحانه وتعالى : " إلا اتباع الظن " لأن الظن هنا جعل بمنزلة الداعى الذى يطاع أمره والقائد الذى يتبع أثره مبالغة فى صفة الظن بشدة الاستيلاء عليهم وقوة الغلبة على قلوبهم) (٢) فكأنه شبه الظن بالداعى أو القائد المتبع على وجه الاستعارة بالكناية .

وكذلك يرى الرضى أن هناك استعارتين فى قوله صلى الله عليه وسلم (الصَّوْمُ جُنَّةٌ والصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخطيئة) ويشير إلى الاستعارة الأخرى بقوله : والاستعارة الأخرى قوله صلى الله عليه وسلم (والصدقة تطفئ الخطيئة) وذلك أنه صلى الله عليه وسلم جعل الخطيئة بمنزلة النار ، وجعل الصدقة مطفئة لها إذا كثرت فأثرت فى سقوط عقابها (٣) .

فقول الشريف الرضى جعل الخطيئة إلى آخره يجرى على مقتضى المكنية عند المتأخرين حيث يقولون إن الخطيئة قد شبهت بالنار فى ضررها ،

---

(١) المجازات النبوية ص ٣٥٥ ، ص ٣٥٦ .
(٢) ينظر : صور من تطور البيان العربى ص ١٧٦ نقلا عن تلخيص البيان للرضى .
(٣) المجازات النبوية ص ١٨٩ ، ص ١٩٠ .

ثم حذفت وبرز إليها بشيء من لوازمها وهو الانطفاء، وفي بيان الرضي لوجه الاستعارة في قوله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ قَالَ كَذَا وَكَذَا غُفِرَ له ولو كان عليه طِفَاحُ الأرضِ ذُنوباً) .

يقول الرضي : (وهذه استعارة ، والمراد : ولو كان عليه ملء الأرض ذنوبا ، فجعل الأرض كالاناء الذي طفح ماؤه وبلغ الغاية من امتلائه) (١) .

فتفسيره أولا طفاح الأرض بملء الأرض واضح في اعتبار التصريحية ، لأن اللفظ حينئذ بمعنى يمكن أن ينص عليه ، وقوله بعد ذلك فجعل الأرض كالاناء يمكن أن يحمل على المكنية ، ويقال حينئذ إنه قد شبه الأرض بالاناء بجامع كون كل منهما مكانا للشيء يوضع فيه ، وحذف وبرز إليه بشيء من لوازمه وهو الطفاح .

وربما جاءت عبارة الرضي ملتبسة فيها التخييلية بالتصريحية ، من ذلك إيضاحه للمجاز الأول عنده في قوله عليه السلام (فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ إِلاَّ رَجُلٌ فِي الْحَمَمِ مَنَعَهُ الْحَمَمِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ) يقول الرضي (وفي هذا الكلام مجازان ، أحدهما : قوله صلى الله عليه وسلم : تحت أديم السماء ، فجعل للسماء أديما ، يريد ما ظهر منها للأبصار تشبيها بأديم الحيوان ، وهي الجلود التي تلبس الأجساد وتغطي اللحوم والعظام) (٢) .

فقوله أولا : فجعل للسماء أديما يؤول إلى جعل الشيء للشيء وليس له على الحقيقة وهو ، ما عرف عند المتأخرين بالتخييلية — أو الضرب الثاني : من الاستعارات عند عبدالقاهر ، وأما قوله يريد ما ظهر إلى آخره فمرده إلى التصريحية على مفهوم المتأخرين فيها .

وهناك صور أخرى عديدة من الالتباس وعدم الفصل بين الصور بما يضيق المجال عن تفصيله، فقد يقع اللبس عند الرضي بين المكنية والتشبيه البليغ(٣) — وقد يجري بعض الصور على التصريحية مع أن الأوفق في التحليل اعتبار المكنية منها .

---

(١) السابق ص ٣٠٦ ص٣٠٧ . (٢) السابق ص ١٣ ، (٣) السابق ص ٢٦٩ .

وهكذا يمضى الشريف الرضى فى تتبع ألوان البيان القرآنى والنبوى آية آية وحديثا حديثا ، وقد وجدنا منه فى تحليله الكاشف والمستشرف آفاق النص وأسراره ماتحدده من قبيل الإشارات المبهمة جدا والمبهدة لمذاهب المتأخرين فى الكنية أو التخييلية ، وربما اليهما معا ، وقد يذكر العلاقة المسوغة للتشبيه والاستعارة ، ولايعنينا بعد ذلك الصطلح البلاغى فسواء أسماه استعارة أم كناية أم مجازا أم غير ذلك فالأهم الفكرة التى يبنى عليها تصورة وكشف بها عن طريق التجوز على ضوء مقاييس عصره .

وقد استطاع الرضى أيضاح فكرته بأسلوب أدبى كاشف وكثيرا ماتدفعه الرغبة فى مزيد الكشف والبيان بستعينا بذوقه وأدبه فيستطرد فى ذكر الاحتمالات التى يمكن أن يؤخذ عليها النص ، فيوقعه ذلك فيما يمكن أن يعد من قبيل الخلط والمزج بين الصور .

ولعل أهم الملاحظات التى نود أن نسجلها هنا أن تصور الرضى لأسلوب الكنية على ضوء تحليله يقترب جدا مع تصور صاحب الكشاف وسيزداد هذا الأمر وضوحا عند الحديث عن الكنية عند الزمخشرى .

* * *

ثالثا : في أمالي المرتضى ت : ٤٣٦(؟)

مما هو جدير بالحديث ولو في إيجاز إشارات المرتضى الى عدد لغوى ونقدى مهم ، والذى نرى فيه أن المرتضى مع كونه فقيها أصوليا متكلما إلا أنه قد استجاب فيه إلى دواعى الذوق على نحو فاق به كثيرا من كبار النقاد ، فقد خالف الأمدى في بعض نظراته النقدية ورأى فيها بعدا عن الصواب واتهمه وعنف في الرد عليه ، ومن ذلك إشارته (بأن الشاعر لايجب أن يؤخذ عليه في كلامه التحقيق والتحديد فإن ذلك متى اعتبر في الشعر بطل جميعه ، وكلام القوم مبنى على التجوز والتوسع والإشارات الخفية والايماء على المعانى تارة من بعد وأخرى من قرب لأنهم لم يخاطبوا بشعرهم الفلاسفة وأصحاب المنطق وإنما خاطبوا من يعرف أوضاعهم ويفهم أغراضهم (٢)

ولاشك أن هذا الكلام منه يلقى الضوء على اتجاهه العام في فهم النصوص الأدبية ثم يقول بعد ذلك (ومن شأن العرب أن تجرى على الشئ الوصف الذى قد كان يستحقه وقرب منه القرب الشديد ، فيقولون : قد قتل فلانا هوى فلانة ، وداله عقله وأذال تميزه وأخرج نفسه ، وكل ذلك لم يقع ، وإنما أرادة المبالغة والإفادة المقاربة والمشاركة ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى (٣).

وعلى الرغم من أن المرتضى قد ألف أماليه في القرن الخامس فإننا مازلنا نشهد عنده امتزاجا بين ألوان الاستعارات ، وهذا يتضح في تأويله لقوله صلى الله عليه وسلم (تقئ الأرض أفلاذ كبدها ...) اذ صرح بأن معنى (تقئ) أى تخرج مافيها من الذهب والفضة ، وذلك من علامات قرب الساعة ، قوله (تقئ) تشبيه واستعارة من حيث كان إخراجا وإظهارا وكذلك تسميته مافى الأرض من الكنوز كبدا تشبيها لها بالكبد التى في بطن البعير وغيره (٤)

---

(١) مقدمة أمالي المرتضى تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم ص ٠١١
(٢) السابق جـ٢ ص ٠٩٥
(٣) السابق جـ٢ ص ٠٩٦
(٤) السابق جـ٢ ص ٠٩٥

وظاهر تأويل المرتضى ان الاستعارة فى (تقى*) كبدها ، تجرى على طريق التصريحية وهو وإن صرح بلفظ الاستعارة لكن يلاحظ أنه قرنها بلفظ التشبيه وإذا كان هذا التوجيه واضحا ومقبولا إلا أننا نشعر بشىء من الخلط بين مفهوم الاستعارة التصريحية والمكنية ـ عنده ـ فبعد أن قرن الاستعارة فى الحديث قال : (وللعرب فى هذا مذهب معروف) ثم أورد بعض الشواهد منها : استعارة الغضب للقدر فى قول مرة بن محكان :

لَهَا أَزِيزٌ يُزِيلُ اللَّحْمَ أَزْمَلُهُ ... مِنَ الْعِظَامِ إِذَا مَا اسْتَحْمَشَتْ غَضَبَا
تَرْمِي الصَّلَاةَ بِنَهْلٍ غَيْرِ طَائِفَةٍ ... رِفْقًا إِذَا أَنَسَتْ مِنْ نَحْتِهَا لَهَبَا (١)

وأيضا استعار الأكل والشرب للدهر فى قول النابغة الجعدى : ـ

سَأَلَتْنِي عَنْ أُنَاسٍ هُلِكُوا ... شَرِبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِمْ وَأَكَلْ

ويتضح من تعليقه على هاتين الاستعارتين اختلافهما عما فى الحديث بناء على توجيهه السابق ، إذ أنه أعقب الشاهد الأول بقوله (فوصفها بالغضب تشبيها واستعارة) (٢) .

وعلى قول النابغة علق بقوله (فوصف الدهر بالأكل والشرب تشبيها واستعارة) (٣) .

وهنا تبدو المقارنة بين استعارتى الحديث وما فى الشاهدين غير متكافئة ، فرق بين استعارة القىء لخروج ما فى باطن الأرض والأكباد ولما فى باطنها من ناحية ، واستعارة الغضب للقدر ، والأكل والشرب للدهر من ناحية أخرى ، فمآل توجيه الاستعارتين الأوليين إلى التصريحية وما فى البيتين إلى المكنية مع أن الكل عنده تشبيه واستعارة .

---

(١) تلفى الصلاة : جمع وصال ـ غير طائشة : غير مخطئة ، رفقا : أى ربما رفقا ، شبه ما تلقى به النار من نفيانها بالنهل أى كلما اشتدت النار تحت القدر اشتد غليانها بقدر اشتداد النار تحتها ، ينظر : هامش الأمالى .

(٢) الأمالى جـ١ ص ٩٥ . (٣) السابق ص ١٩٦

وقد يكون من أقرب اشارات المرتضى إلى المفهوم الذى قامت عليه المكنية ما أورده تعليقا على بيت الراعى فى الأتان :-

أَنِنَّ وَهُنَّ أَعْقَالٌ عَلَيْهَا فَقَدْ تَرَكَ الصَّلَاةَ بِهِنَّ نِسَارَا

حيث قال : (شبه الأتان فى بنوق أنين اعقالا) [1] ، إذ أن لفظ النوق المشبه به ليس مذكورا وإنما المذكور الإناخة التى هى من صفاته ولو سلمنا الاجراء على المكنية على مذهب المتأخرين لقلنا شبه الأتان فى بنوق ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه ، وإسناد الاناخة إلى ضمير الأتان تخييل ، ويمكن أن يعد من إشاراته أيضا تعليقه على قول الكميت بن يزيد : -

وَلَنْ تُحَيِّيَكَ أَظْآرٌ مُعَطَّفَةٌ بِالْقَاعِ ، ولا عك فيها ولا شمل
ليست بِحُونٍ ، ولم تعطف على رُبَعٍ ، ولا يُهَيِّجُ بها نَوْءُ النَّيِّرِ الأَبَلُ

حيث قال (فشبه عطفها على الرماد بنوق أظآر قد عطفن على فصيل [2] وإجراء الاستعارة هنا لايختلف عما فى المثال السابق .

وقد تحدث عن الحذف والاختصار وبلاغته مستشهدا ببعض الأمثلة المقدر الحذف فيها على ضوء المقاييس النحوية فى مثل قوله تعالى (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ....) الآية ، وكون الآية قد حذف فيها جواب لو لامنازعة فيه لكنه أجرى هذا التأويل على بعض الأمثلة التى تعد من قبيل المجازات مع وجود التفاوت النوعى ، وتحديد اللون المجازى المحمولة عليه ، فقد عقب على قوله تعالى : (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .. الآية) بقوله وتقديره : إن السموات والأرض والجبال لو كن مما يأتى ويستفتى ، وعرضنا عليهن الأمانة لأبين وأشفقن) وكذا فى قول الشاعر : «امتلأ الحوض» وقال قطنى ، والمعنى امتلأ حتى لو كان مما يقول لقال ذلك وهذا أولى فى نفسى من تقديرهم فى هذا البيت بأنه ظهرت منه أمارات القول والنطق .

---

(١) الأمالى جـ٢ ص ٣١.
(٢) السابق ص ٣٢.

وهذا الذى أشرنا اليه هو معنى كل ماجرى مجرى هذا البيت من مثل قول الشاعر :

وأَجْهَشْتَ للتَّوْبَاذِ حين رأيتهُ ... وكبّر للرَّحمن حين رآنى
فقلت له: أين الذين عهدتُهُمْ ... بجنبيك فى خفض وطيب زمان
فقال: مَضَوا واستودعونى بلادهم ... وَمَنْ ذا الذى يبقى على الحَدَثان (١)

ومن المعلوم أن تلك الشواهد ونظائرها قصد عدها بعض العلماء من باب الاستعارات (٢) بما يتفق والمكنية بل إن كثيرا من المحدثين يحتم هذا التوجيه ويشجع عليه على ماسنعرض له مفصلا (٣)

والشىء الداعى إلى الاستغراب والدهشة أيضا ما صرح به المرتضى بعد قوله (وأنت إذا تأملت وجدت المجازات التى يتصرف فيها أهل اللسان فى منظومهم ومنثورهم وجدتها كلها مبنية على الحذف والاختصار) (٤) .

وفى هذا القول كما لايخفى تعميم فى الحكم يؤدى الأخذ به وتطبيقه فى أكثر الأحوال إلى شىء من التكلف والتعسف يصعب تلافيه ، إذ أن كثيرا من الصور المجازية ، وخاصة شواهد المكنية لاوجه إلى اعتبار الحذف فيها إلا بتعسل لايقول به الذوق السليم الذى أوقفنا المرتضى على بعض جوانبه كما أسلفنا .

* * *
* *
*

---

(١) السابق جـ٢ ص ٣٠٩ ، ص ٣١٠ .
(٢) ينظر: نقد النثر المنسوب إلى قدامه بن جعفر ص ١١٠ ، ١١٥ .
(٣) الامالى جـ ٢ ص ٣١١ .

المبحث الثانى

تمهيد :

وأما اللغويون فقد كان لهم أثر واضح فى مضمار البلاغة ، فلم يكن البحث اللغوى فى عهده الأول مقصورا على مايتصل بالسلامة أو الصحة اللغوية وإنما كان من الاتساع فى مفهومه بحيث يمتد إلى فقه العربية والكشف عن أسرار التعبير وخصائص التراكيب .

ومن هنا وجدنا عند بعض هؤلاء العلماء لمحات أو إشارات مهمة إلى طريقة الاستعارة المكنية أو التخييلية ، ويبدو هذا فى الكتاب لسيبويه وقواعد الشعر لثعلب ، والخصائص لابن جنى ، يضاف إلى ذلك بعض الإشارات التى وردت على ألسنة الرواة ، فقد ذكر ابن رشيق فى تعليقه على قول ذى الرمة : ـ

أقامَتْ بِهِ حَتَّى ذَوَى العُودُ والثَّوَى وَسَاقَ الثُّرَيَّا فى مَلاَمَتِهِ الفَجْرُ

وكان أبو عمرو بن العلاء ت ١٥٤[1] لايرى أن لأحد مثل هذه العبارة ، ويقول : (ألاترى كيف صير له ملامة ، ولاملامة له ، وإنما استعار له هذه اللفظة)[2] ، كما ذكر الحبوى نقلا عن كفاية الطالب لابن الأثير أن أباعمرو يرى أن استعارة الشئ لما يقرب منه ويلبق به أولى من استعارته لما ليس منه فى شئ ، كقول أرطأة بن شهية : ـ

فقلتُ لها يا أمَّ بيضاء ابنتى هُرِيقَ شبابى واستمرّ أديمى

قال هريق شبابى ، لما فى الشباب من الرونق والنضارة التى هى كالماء[3] .

أولا : فى الكتاب لسيبويه ت : ١٨٠[4]

ويمكن القول إن سيبويه قد ضمن كتابه عرضا لعديد من صور البلاغة وضرب لها أمثلة مختلفة وفسرها تفسيرا بلاغيا أحيانا ، وإن لم يسذكر لهـا

(١) فوات الوفيات جـ ١ ص ٢٠٩ .
(٢) العمدة لابن رشيق جـ ١ ص ٢٦٨ .
(٣) درر العبارات وغرر الاشارات فى تحقيق معانى الاستعارات لاحمد بن محمد مكى الحسينى الحبوى ـ تحقيق عبدالحليم محمد شادى ص ١٧٦ .
(٤) مراتب النحويين ص ٦٥ .

أسماء اصطلاحية ومن ثم فلاغرابة أن يكون قد وقع فى الكتاب بعض التعليقات والإشارات التى تنفق والفكرة التى بنيت عليها المكنية أو التخييلية .

يقول سيبويه تعليقا على بيت الخنساء : -

وداهية من دواهى المنو ن يرهبها الناس لافالها

فجعل للداهية فما حدثنا بذلك من نثق فيه(١)

وسواء أقصد بمن أخذ عنه الخليل أم غيره فإن قول سيبويه على وجازته يعد ذا قيمة تاريخية مهمة لأنه يلتقى ومفهوم عبدالقاهر لهذا الضرب من الاستعارة ، وذلك أن قوله جعل للداهية فما مما يؤول إلى أن الداهية لابد وأن تكون قد شبهت أولا بمن كان له قم على الحقيقة كحيوان مفترس حتى يسوغ جعل الفم للداهية .

فيسير الأمر الذى يجعل الشىء للشىء وليس له كما ذكر عبدالقاهر فيما بعد وارتضاه العلوى(٢) بعدما قدد كل التعريفات الأخرى .

ومن كلام سيبويه الهام جدا فيما يتصل بالمكنية حديثه عن حروف الجر وطريق الاتساع فيها ، ومن المعلوم أن حروف الجر فى اللغة العربية على كثرتها واسعة التصرف مما يكسب اللغة ثراء لتؤدى أغراضا متنوعة ومعانى شتى والعرب حينما يتوسعون فى استعمال الحروف أنما يهدفون تصوير معناها وأثرها فى البيان ، وسيبويه قد لاحظ توسع اللغة فى استعمال الحروف واستعمالها فى معانى غير التى وضعت لها هوكان له فى ذلك موقف واضح ، وتوجيهه محدد فقد تحدث سيبويه عن الحرف (فى) وأنه يستعمل على طريق الاتساع فقال " وأما " فى" فهى للوعاء كقولك : هو فى الجراب وفى الكيس وفى بطن أمه ، وكذلك هو فى النعل ، لأنه جعله إذا أدخله فيه كالوعاء له ، وكذلك هو فى القبة ، وفى الدار ، وإن اتسعت فى الكلام فهى على هذا وإنما تكون كالمثل يجاء به يقارب الشىء وليس مثله (٣)

(١) الكتاب لسيبويه جـ ١ ص ٣١٤ .
(٢) الطراز للعلوى جـ٢ ص ٢٠٤ .
(٣) الكتاب جـ ٢ ص ٣٠٨ .

تقول سيبويه : جعله اذا أدخله فيه كالوعاء له فواضح جدا فى أن الكلام مبنى على تشبيه الفعل بالوعاء ، وأن حرف الظرف (فى) دال على ذلك وهذا يلاريب مما يدخل فيما عرف بعده بالاستعارة المكنية ، ويمكن أن نرجع بمذهب الخطيب وابن يعقوب إلى كلام سيبويه حيث ذهبا إلى أن الاستعارة فى الحرف تابعة لتشبيه يجرى فى مدخول الحرف أى فى مجروره ، وإن اختلفا فى الاسم الاصطلاحى على تفصيل يأتى وفق مايقتضيه سياق البحث .

وتوجيه سيبويه هذا فيما أرى أولى مما أعتبره المكاثى حين ذهب إلى اعتبار الاستعارة فى متعلق الحرف قاصدا به معناه الكلى كالظرفية بالنسبة للحرف (فى) (١) .

وإنما قلنا ذلك لأن الذى يفهم من التعبير ليس هو ذلك التشبيه والتصوير الذى يجرى فى المعانى التجريدية للحروف ، إنما هو تصوير يجرى فى الأفق القريب لمدلول العبارة ، فقولك : هو فى العمل فيه تصوير للفعل فى صورة ظرف يحيط بصاحبه ويغمره من جهاته .

ولعل فى أقوال سيبويه وإشاراته مايؤكد الثقات العلماء قبل الزمخشرى ومن غير أصحاب كتب التفسير إلى هذا الفن ، فصاحب الكشاف مع عنايته الواضحة بحديث الاستعارة فى الحرف إلا أن توجيهاته لم تكن من التحديد بحيث يصبح التنصيص بها على اتجاه بعينه، هل يعد التشبيه والاستعارة فى أو فى مدخوله مما جعل الاستاذ الدكتور محمد أبوموسى يستخلص أن كلام الزمخشرى يصح أن يستدل به على الوجهين(٢) .

وعلى ذلك فان قيمة ماذكره سيبويه لايرجع إلى اعتبار السبق الزمنى فحسب وانما الى وضوح التوجيه وتميزه إلى حد كبير .

---

(١) المفتاح ص ٢٠٣ .
(٢) ينظر: البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى وأثرها فى الدراسات البلاغية ، د/ محمد أبو موسى - دار الفكر ×-ص ٤١٩ ومابعدها .

وهكذا يمكن القول إن سيبويه قد ضمن كتابه بعضا من أمثلةٍ وضعها نحويا بلاغيا ، بل نراه يتناولها بعين الطريقة التي سلكها علماء البلاغة من بعد في مباحثهم ، غاية الأمر أنه لم يذكر لها أسماء اصطلاحية تذكر المصطلحات في عصره لم يكن ذا شأن خطير ، وإنما كان البحث ينصبُّ أصلا حول اللغة ومتصرفاتها ومحاولة الكشف عن خصائصها وأسرارها .

* * * * * * * * * *

ثانيا : فى قواعد الشعر لثعلب ت ٢٩١ (١)

وأما أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب فقد خص فى كتابه قواعد الشعر الاستعارة بحديث قال عنها فى أوله (وهو أن يستعار للشئ اسم غيره أو معنى سواه ، ثم أورد كثيرا من الأمثلة معقبا عليها فى إيجاز لكنه على كل حال كاف فى القول بأنه يقصد الاستعارة الكنية دون غيرها ، فكل شواهده وتعليقاته تنطق بهذا المفهوم بما يقترب ، وما وجدناه عند سيبويه .

يقول تعقيبا على بيت زهير :

فشدَّ ولم يَنْظُرْ بيوتًا كثيرةً لَدَى حيثُ ألقتْ رجلَها أُمُّ قَشْعَمِ

ولا رجل للمنية .

وفى قول تأبط شرا فى شمس ابن مالك :

إذا هزَّه فى عَظْمِ قِرْنٍ تهلَّلَتْ نواجزُ أفواهِ المنايا الضواحكِ

يقول ولا ناجذ للمنية ولا ثم .

ويقول تعليقا على قول الشاعر :

فظلَّ يُناجِى الأرضَ لم يَكْدَحِ الصفا به كَدْحَةً والموتُ خزيانَ ينظُرُ

يقول ولا عين للموت .

وعلى قول ذى الرمة : —

سقاهُ الكَرَى كأسَ النُعاسِ فرأسُه لِدِينِ الكَرَى مِنْ أوَّلِ اللَّيْلِ ساجِدُ

يقول ثعلب ولا دين للكرى ولا كأس(٢) للنُّعاس .

---

(١) مقدمة كتاب : مجالس ثعلب ص ١٠ .

(٢) ينظر : قواعد الشعر لثعلب ، شرح : د/خفاجى — ط / الجلبى ١٩٤٨ ص ٣٧ ومابعدها .

ولاتخرج تعليقات ثعلب الأخرى عما ذكرناه ، وهى تكشف عن اتجاه الرجل فى فهم تلك الأساليب، فتعريفه للاستعارة، وتعقيباته تشير فى وضوح إلى مدى التقارب بينه وما ذكره عبدالقاهر ، وأشرنا إليه سابقا ، فقوله فى التعريف أن يستعار للشئ اسم غيره أو معنى سواه يؤول إلى جعل الشئ للشئ، وليس له على الحقيقة ، ويؤكد هذا المعنى تعليقاته فى نحو قوله ولا رجل للمنية يفيد أن جعل الرجل للمنية استعارة لأن المنية لا رجل لها على الحقيقة، وهذا يعنى تشبيه المنية بمن له رجل على الحقيقة حتى يسوغ جعل الرجل للمنية .

ويرجع د. عبدالقادر حسين احتفاء ثعلب بالاستعارة بالكناية إلى تعجب العرب منها وإجلالهم لها ، فالصولى يعتبر الاستعارة بالكناية أجل استعارة وأحسنها وكلام العرب جار عليها (١).

ويبدو لى أن ثعلبًا قصد إلى ذكر بعض الصور مما ورد فى أشعار العرب من ذلك اللون من البديع الذى أكثر منه المحدثون وظنوا أنهم ابتكروه ليثبت أصالة هذا الفن من ناحية ، وليبين الطريقة التى كان الشعراء فى القديم يجرون عليها ، ويؤكد هذا المعنى طريقة ثعلب فى الاستشهاد حيث جاءت شواهده مما ورد فى الشعر العربى من العصر الجاهلى والأسوى فحسب .

---

(١) ينظر: أثر النحاة - د/ عبدالقادر حسين - دار نهضة مصر - ص ٢٣٥ .

ثالثا : في الخصائص لابن جـــني . ت ٢٩٢ هـ

وقد أشار أبو الفتح عثمان بن جني في الخصائص إلى الكنية وطريق التجوز فيها وذلك في الباب الذي عقده للتفريق بين الحقيقة والمجاز الذي بدأه بتعريف الحقيقة والمجاز ، حيث قصد بالثاني أن يستعمل اللفظ في غير ماوضع له في اللغة ، وبين خلال حديثه عن المجاز يتبين أنه لابد فيه من التشبيه الذي يعد عنده أحد الأصول الثلاثة التي بنى عليها كل مجاز بالاضافة إلى التوسع والتوكيد ، وعلى ذلك فإن المجاز عنده ينصرف إلى الاستعارة خاصة و ومعنى هذا أن ابن جني لم يلتفت إلى ماعرف بعده بالمجاز المرسل (١) .

والذي أشار إليه من سبقوه والمعاصرون له (٢) حتى جاء عبدالقاهر الذي حرر الفرق بينه وبين غيره على طريقته في تناول مسائل البلاغة (٣) والمهم أن أكثر ماذكره ابن جني من أمثلة في هذا الباب شرحه بما يفيد عنده أنه من باب الاستعارة الكنية ـ اذا استثنينا من ذلك المثال الأول الذي أتى به .

فمن إشارات ابن جني القريبة إلى الكنية قوله وهو يصدد بيان الأصول الثلاثة التي حتمها في كل مجاز على ضوء قوله تعالى : " وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا " يقول هذا هو المجاز وفيه الأوصاف الثلاثة ، أما السعة فلأنه كأنه زاد في أسماء الجهات والمحال اسما هو الرحمة ، وأما التشبيه فلأنه شبه الرحمة ، وإن لم يصح دخولها بما يجوز دخوله فلذلك وصفه بوصفها ، وأما التوكيد فلأنه أخبر عن العرض بما يخبر به عن الجوهر ، وهذا يقال بالعرض وتفخيم عنه (٤) ، نراه في قوله فلأنه شبه الرحمة إلى آخره يميل إلى مقتضى الاستعارة بالكناية حيث شبهت الرحمة بمكان ودل على ذلك بلازم المشبه به وهو الادخال .

---

(١) أنظر : الفتاح ص ١٧٢ .
(٢) ينظر : الموازنة ص ٣٣ ، ٣٤ .
(٣) ينظر : الأسرار جـ٢ ص ٣٥٩ .
(٤) ينظر: الخصائص ص ٤٤٣ .

والمعروف أن تلك الآية قد آلت عند المتأخرين إلى المجاز المرسل بما تكون العلاقة فيه غير المشابهة سواء أكانت السببية [1] أم كانت المحلية كما نص صاحب الاتقان [2] فان الذى يعنينا بالأصالة إنما هو اتجاه ابن جنى .

وواضح فى أنه يتفق ومقتضى الكتية عند المتأخرين

وأحيانا يشير ابن جنى إلى نحو مما ذهب إليه عبد القاهر فقط من جعل الشئ للشئ وليس له على الحقيقة حيث يقول صاحب الخصائص تعليقا على قول الشاعر :

ووجه كأنّ الشمس حلّت رداءها عليه نقىّ اللون لم يتخدّد

يقول : جعل للشمس رداء [3] . ويعرض ابن جنى لبعض الأمثلة التى سبق أن عرضها سيبويه تحت باب التوسع إلا أن ابن جنى يعرضها بعرض آخر أكثر تحديدا بما يتجه بها إلى الكتية فيقول : (ألا ترى إذا قلت : بنو فلان يطؤهم الطريق ، فانه من السعة أخبارك بمن لا يصح وطؤه بما لا يصح وطؤه فتقول على هذا : أخذنا على الطريق الواطئ لبنى فلان ومررنا بقوم موطوئين بالطريق ، يا طريق ظأ يا بنى فلان أى أدنيا اليهم ، وتقول : بنى فلان بيته على سنن السارة ، ريحة فى طئة الطريق بأضيافه له ، أفلا ترى إلى وجه الاتساع عن هذا المجاز .

ووجه التشبيه إخبارك عن الطريق بما تخبر به عن سالكه فشبهته به ، إذ كان هو المؤدى لهم فكأنه هم .

---

(١) ينظر : هامش الخصائص نفس الموضع

(٢) ينظر : الاتقان جـ ٢ ـ ط : دار الفكر ـ لبنان ـ جـ ٢ ص ٣٧

(٣) ينظر : الخصائص صـ ٤٤٥

وأما التوكيد فلأنك اذا أخبرت عنه بوطئه إياهم كان أبلغ من وطء سالكيه لهم وذلك أن الطريق مقيم ملازم ، فأفعاله مقيمة معه ثابتة بثباتـــه وليس كذلك أهل الطريق لأنهم قد يحضرون فيه ويغيبون عنه فأفعالهم أيضـا كذلك حاضرة وقتا وغائبة أخرى ، فأين هذا مما أفعاله ثابتة مستمرة ، ولما كان هذا كلاما الغـــوض فيه المدح والثناء ، اختاروا له أقوى اللفظين لأنه يفيد أقوى المعنيين[1] .

نرى أن ابن جنى يذكر أولا كيف كان الاتساع بهذا التعبير المجازى ثم التشابه بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى ، ووضح لنا كيف أدى هذا التعبير المعنى حتى يكون المجاز أبلغ من الحقيقة لما فى الأداء به مـــن القوة التى تعرى عنها الحقيقة فى هذا السياق والأهم من ذلك كله أن فى قـول ابن جنى فى بيان وجه التشبيه ، ووجه التشبيه أخبارك) الى آخـــره إشارة واضحة إلى طريق المكنية ، وميل بهذا الأسلوب إليها فهو يشبـــه الطريق بقوم سائرين وجعل الوطء دليل ذلك التشبيه ، وبهذا نلحظ مـــدى التطور الكبير فى فهم تلك الأساليب ونظائرها على يدى ابن جنى عما كان عليـه الأمر عند سيبويه[2] .

ومن إشارات ابن جنى الواضحة أيضا إلى المكنية وطريق التجوز بهـا ما قاله فى بيانه لوجه التجوز فى قوله تعالى (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا) يقول ابن جنى : (فيه المعانى الثلاثة ، أما الاتساع فلأنه استعمل لفـــظ السؤال مع مالا يصح فى الحقيقة سؤاله : وأما التشبيه : فلأنها شبهت بمـــن يصح سؤاله لما كان لها وظرفا لها ، وأما التوكيد فلأنه فى ظاهر اللفـــظ إحالة بالسؤال على من ليس من عادته الإجابة ، فكأنهم تضمنوا لأنبيهم عليـــه السلام ، انه ان سأل الجمادات والجهال (أنبأته بصحة قولهم وهذا تناء فى تصحيح الخبره أى لو سألها لأنطقها الله بصدقنا فكيف لو سألت من عادته الجواب[3] .

---

(١) ينظـــر : الســـابق ص ٤٤٦ .
(٢) ينظـــر : الكتـــاب لسيبويه جـ١ ص ١٠٨ ، ص ١٠٩ .
(٣) الخصائـــص : جـ ٣ ص ٤٤٧ .

فالفرق واضح بين من يذكر فقط أن فى هذا الأسلوب اتساعا أو حذفا كما كان الأمر عند سيبويه ، وبين صاحب الخصائص الذى يذكر كيفية هذا الاتساع مع بيان المشابهة بين المعنى قبل أن يتسع ، وبعد أن دخله الاتساع مع إيضاحه لبلاغة الأسلوب المتجوز به وما طرأ عليه من توكيد وبالغة - غير أن الذى يلفت النظر هنا أن ابن جنى ينظر إلى أن هذا المجاز ونظائره[1] المتأخرين إلى الاستعارة بالكناية ، فعلى توجيهه تشبه القرية بانسان ، ثم حذف ودل على ذلك التشبيه بلازم المشبه به وهو السؤال ، فخرج على ذلك من كونه مجازا مرسلا ، وأصبح من أنواع الاستعارة التى يميل بها إلى الكنية .

والمتأخرون قد حملوا هذا المثال ونظائره على المجاز المرسل لكون العلاقة فيه غير المشابهة ، وإنما هى عندهم ماعرف بالمحلية ، كما ذكر السيوطى فى الاتقان[1] .

وقد كان لاتجاهات ابن جنى هنا آثار حقيقية ، فإذا كان السيوطى قد اكتفى بأن عرض لأمثلة ابن جنى دون تعليق ، فإن ابن الأثير قد فصل وناقش ، واعترض وخرج[2] على ماستناوله فى مكانه من البحث .

---

(١) ينظر: الاتقان فى علوم القرآن جـ٢ ص ٣٧ .

(٢) ينظر: المثل السائر لابن الأثير - ط - بولاق ص ٨٤ .

المجاز عند الثعالبي ت : ٤٣٠ (١)

ومن العلماء الذين وقفنا منهم على إشارات نبهة الثعالبي في كتابه فقه اللغة وأسرار العربية ، فقد ورد تفيه بعض الإشارات إلى فكرة الكنية والتخييلية وإلى طريقة التجوز في الحرف بماله اتصال وما تبحث عنه .

ففي حديثه عن وقوع بعض حروف المعاني موقع بعض تحدث عن الحرف (في) ومجيئه بمعنى (على) فقال : (في بمعنى : (على) كقوله تعالى : "وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ" لأن الجذع للمصلوب بمنزلة القبر للمقبور ، وينشد .

هُمُ صَلَبُوا الْعَبْدِيَّ فِي جِذْعِ نَخْلَةٍ ... فَلَا عَطَسَتْ شَيْبَانُ إِلَّا بِأَجْدَعَا (٢)

فكأن الثعالبي يريد أن يقول : إنما ساغ استعمال الحرف (في) هنا مع أن الظاهر للحرف (على) لأن الجذع لما صار مستقرا للميت فكان بهذا مشبها بالقبر فجاز أن يستعمل مع الجذع ما كان يستعمل في الأصل مع القبر لكونه قد نزل منزلته .

وهذا الاعتبار من الثعالبي يمكن أن يعد أصلا لما بنى عليه أمر الاستعارة بالحرف عند الخطيب ، وابن يعقوب ، فظاهر كلام الثعالبي أن مدخول الحرف ، وهو الجذع قد شبه بالقبر ودل عليه باستعمال ما يختص به وهو حرف الظرفية .

وهذا الأمر أعده مهما جدا في باب التأصيل للفن البلاغي لأنه يعني أن المتأخرين لم يبتكروا من رؤسهم ، وانما بنوا على أصل في التراث ليبقى لهم بعد ذلك فضل التحديد والتمييز .

وواضح أن توجيه الثعالبي لوجه التجوز في الآية الكريمة على هذا النحو دقيق ومقبول وأولى مما ذهب إليه محمد بن علي بن محمد الجرجاني ت ٧٢٢ ، حيث أجرى الاستعارة في الفعل لأنه لما استعير الصلب للتمكين ، روعي التمكين في التعدية (بفي) دون (على) (٣) .

ولا يخفى ما في هذا من ضعف ومخالفة لما عليه جمهور البلاغيين كما حسب

---

(١) مقدمة كتاب فقه اللغة للثعالبي ـ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ـ ط : عيسى الحلبي ـ ص ١٠ .
(٢) السابق ص ٣٥٨ .
(٣) ينظر : الاشارات والتنبيهات ـ محمد بن علي بن محمد الجرجاني ـ تحقيق د / عبد القادر حسين ص ٢٣١ .

الكشاف[1] والرازى[2] والسكاكى [3] والخطيب [4] ، على خلاف بينهم يأتى طرف منه فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وفى موضع آخر نراه يخص الاستعارة بحديث يبدأه بتعريفه لها بما لا يخرج كثيرا عما استخلصناه من كلامه السابق يقول الثعالبى (ذلك من سنن العرب هى أن تستعير للشىء مايليق به ويضع الكلمة مستعارة له من موضع آخر ثم حشد طائفة غير قليلة من منثور العرب .

والذى يتحقق فيه مفهوم الاستعارة عنده وإن كنا نلحظ أن فيما مثل به خلطا بين الصور ، يقول الثعالبى مستشهدا (كقولهم فى استعارة الأعضاء لما ليس من الحيوان : رأس الأمر ، رأس المال ، وجه النار ، عين الماء ، حاجب الشمس ، أنف الجبل ، أنف الباب ، لسان النار ، ريق المزن ، يد الدهر ، جناح الطريق ، كبد السماء ، ساق الشجرة .

كقولهم فى التفرق : أنشقت عصاهم ، شالت نعامتهم ، رويت سماح الأرض بصرها ، وكقولهم فى اشتداد الأمر: كشفت الحرب عن ساقها ، أبدى الشر عن ناجذيه ، حمى الوطيس ، دارت رحى الحرب .

وكقولهم فى ذكر الآثار العلوية: افتر الصبح عند تواجده ، ضرب بعمودى سل سيف ، الصبح من عند الظلام ، نفر الصبح فى قفا الليل ، باح الصبح بسوحى نطاق السجوزاء ، انحط قنديل الثريا)[5] .

وإذا كان مفهوم الاستعارة عند الثعالبى على ماأشرنا إليه يتحقق بتصيير الشىء للشىء وليس له ، فإننا نلاحظ خلطا ظاهرا بين الضروب والصور فيما مثل به : أرأيت كيف خلط بين ماهو ظاهر فى الحمل على جعل الشىء للشىء وليس له وماهو منصرف الى ضرب آخر.

---

(1) الكشاف ص ٣٠٩٣ وجـ ٦٠
(2) تفسير الرازى جـ٤ ص٣٢٠ ، جـ٦ ص ٥٥٠
(3) مفتاح البلاغة : ص ١٦٢٠ (4) الايضاح ص ١٦٩٠
(5) فقه اللغة ص ٣٨٢٠

فقد ساوى بين أمثال استعارة الدهر ، والنواجذ للشر وبين استعارة الجناح للطريق والأنف للجبل مع أن الفرق بين الضربين واقع ، ذلك أن اليد والنواجذ ، قد استعيرتا لمعنى لايمكن النص عليه على عكس استعارة الجناح والأنف حيث يمكن أن يقال انه استعار الجناح للجانب والأنف لأعلى الجبل وهكذا .

بل نراه يخلط بين صور الاستعارة وضروب أخرى من البيان ملتبسة بها ، فجاء بأمثلة عند التحقيق من قبيل الكناية أو التشبيه البليغ بما لاسبيل إلى الوقوف عنده الآن لنصل إلى حقيقة الفرق لدراسة أساليب البيان بين عبدالقاهر والسابقين عليه حيث عمد الإمام الى التحليل والاستخلاص والفصل الدقيق لمسائل الفن البلاغى ويذل فى ذلك جهدا امتدت أطنابه إلى موضوع الكناية سوف نحاول بسطه فى سياقه إن شاء الله تعالى .

وفى موطن آخر خص الثعالبى فصلا لما جرى من غير بنى آدم مجراه فى الإخبار عنه ذكر فيه (من سنن العرب أن تجرى الموات ، ومالايعقل فى بعض الكلام مجرى بنى آدم كما قال الجعدى :

تَزَوَّرْتُها والدِّيكُ يدْعو صَباحَه ... وأما بنو نَهْشَلٍ دَنْوًا فَنَصَبَّوا

وكما قال الله عز وجل (لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا الَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) ، وأكبر من قول الجعدى قول عبيدة بن الطبيب : ـ

إذا أشرف الديك يدعو بعض أسرته ... إلى الصباح وهم قوم بمعازيل

فجعل للديك أسرة وسماهم قومًا[٥] .

ولئن كان قول الثعالبى ، فجعل للديك أسرة ، يماثل ماوجدناه عند سيبويه وتعلب فإن الذى لاشك فيه أن ذلك كله يمثل الأصل الذى بنى عليه عبدالقاهر حين عمد الى الفرق بين هذا الضرب والضرب الآخر من الاستعارات الذى آل الى التصريحية وهكذا يمكن القول ان اللغويين ، قد كانت لهم اشارات نافعة التقت بها أصحابها الى فكرة الكنية وأفاد منها عبدالقاهر ومن بعده .

---

(٥) فقه اللغة ص ٣٧٤ .

الفصـــــل الثانى
فى المصادر النقديـــــة والبلاغيـــــة

المبحـــث الاول :

فى البديع لابن المعتز • وأخبار أبى تمـــــام للصولى

المبحـــث الثانى :

مـــــــ ـــــح الآمـــــــدى

المبحـــث الثالث :

فى وساطـــــــة القاضـــــ ـى الجرجانـــــى

المبحـــث الرابع :

عند أبى هلال • وابن رشيـــــق وابن سنـــــان

تمهيـــــد

ظهر مما عرض الفصل السابق أن المشتغلين بالدراسات القرآنية واللغوية سواء منهم من صرف جهده الى قضية الاعجاز، أو اهتم بالتفسير والتأويل، أو قصد الى بحث مسائل اللغة واسرار التركيب، أنهم كانوا يهتمون اهتماما واضحا ببيان صور المجـــاز وانواعه لان ذلك يساعدهم دون شك على فهم كثير من آيات الكتاب العزيز ويعينهم علـــى تخريج كثير من الآيات المتشابهات والرد على الطاعنين الذين يتبعون ما تشابه منـــه ابتغاء الفتنة.

ومن هنا فلا غرابة أن وقفنا في هذه الدراسات على كثير من الاشارات التي تـــدور حول فكرة المكنية والتخيلية جاوزت احيانا مجرد الرمز والاشارة بحيث جاءت على نحو يكـــاد يتفق أو يقترب وكلام المتأخرين ولو بشيء من الايضاح والبسط.

وإذ قد ظهر ذلك فقد كانت الخصومات حول النصوص الأدبية حافزا قويـــا احـــد النقـــاد والبلاغيين وشحذ عقولهم وبعد أبصارهم الى جوانب النص وتحليل صـــوره والحكم عليها قبولا أو ردا.

وقد كان لهذا دون ريـــب أثر واضـــح على الدرس البلاغي وخاصـــة الجانب التطبيقـــي.

واذا كان ذلك يمثل حقيقة تاريخية ثابتة فثم حقيقة أخرى وهي ان تلـــك الخصومات كانت حول صور البديع التي اكثر منها المحدثون. ولاشك ان المكنية تعد أحد بل أهم وابرز تلك الفنون التي أداروا عليها بحوثهم ودراساتهم وكانت مثار جدل ونقاش. ومن هنا تعددت المواقف، وتباينت الاتجاهات. فهناك اتجاه ينزع الى التجديد ولذا يحـــاول اصطياد التماس وجوه التخريج لتلك الصور من الاستعارة التي جاء بها أصحاب البديـــع على خلاف ما جرى عليه العرف والذوق المزي على ما يظهر عند ابن المعتز والمرزباني.

وهناك اتجاه آخر يؤثر طريقة العرب الموروثة وقد شاع هذا الاتجاه بين كثير من العلماء والنقاد العرب من ذوى الثقافات العربية الخالصة كما يمثلها القرآن الكريم والحديث الشريف وبأثور العرب شعرا ونثرا . وكان مقصدهم الرجوع بتلك الصور السى عهودها السالفة بما فيها من اصالة ووضوح واقتصاد فى غير مبالغة ولا اغراء أو تكلف ولذلك ناصروا طريقة البحترى وأضرابه ممن التزموا المقاييس التى يمثلها عهود الشعر العربى (١) .

واما ابو تمام ومن على طريقته فقد خالفوا فى الطريقة واتجهوا الى التجديد حتى آتوا بكل غريب وبعيد . ويبدو هذا الاتجاه واضحا عند أبى هلال وابن رشيق وابن سنان وعلى نحو أوضح عند صاحب الموازنة .

بقى اتجاه ثالث يرى أن فى كل من الاتجاهين السابقين نوع مغالاة وتطرف فلا ينبغى ان يرفض كل جديد لانه محدث ولو كان حسنا فى ذاته كما لا يسوغ تبجيل كل قديم ولو كان غير جيد فى ذاته . وانما الاوفق رد الحكم بالحسن أو القبح الى ذات النص وسياقه واحوال صاحبه وملابسات عصره .

ولعل القاضى الجرجانى كان أعدل حين رأى انه لا ينبغى أطلاق الحكم . وانما ينبغى الاجتهاد فى محاولة الناس المعاذير وصرفها لوجوه التى تجرب تلك الاستعارات الى باب القبول .

وانما قلت هذا وأطلت فيه لان تلك الجهود المبهمة من خير ما يعتز به تراثنا العربى هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ـ وهذا هو الاهم ـ فقد كانت عونا للامام عبد القاهر فى بناء طريقته الفذة فى مجال التحليل الواعى والمدرك للفروق بين ضروب الفن الواحد على ما سيظهر فى موضعه ان شاء الله تعالى .

---

(١) الموشح للمرزبانى ص٤٧٠ .

في البديع لابن المعتز ت ١٩٦ (١)

سبقت الإشارة إلى أن بعضا من العلماء ممن سبقوا ابن المعتز قد ألمحوا إلى أن من الاستعارة نوعا يقوم على وصف الشئ بما ليس له . و هو الذى لا يمكن أن يشار إلى المستعار له (التخييلية) .

و قد التفت ابن المعتز إلى ذلك أيضا . يؤخذ هذا أو يفهم من تعريفه للاستعارة و من بعض تعليقاته كذلك .

فقد عرف الاستعارة بأنها استعارة الكلمة لشئ لم يعرف بها من شئ قد عرف بها (٢) . ثم ساق ابن المعتز للاستعارة شواهد كثيرة من القرآن الكريم و الحديث النبوى الشريف و كلام الصحابة و أشعار الجاهليين و الإسلاميين و كلام المحدثين من المنثور و المنظوم و المهم أننا وجدنا فى بعض تعليقاته إشارات بعيدة إلى هذا الضرب فمنها تعليقه على قول امرئ القيس :-

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَ أَرْدَفَ أَعْجَازاً وَ نَاءَ بِكَلْكَلِ

حيث قال : (هذا كله من الاستعارة لأن الليل لا صلب له و لا عجز (٣) .

و يستذكر أيضا تعليقا على قول النابغة :-

وَ صَدْرٍ أَرَاحَ اللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ ... ... البيت.

يقول ابن المعتز : " أراح الليل عازب همه هذا استعار من إراحة الراعى الإبل إلى مراحها أى موضع تأوى إليه " (٤) .

و يعلق على قول الأقوه الأودى يهجو الجرهميين :-

مُلْكُنَا مُلْكُ نَبَاطٍ أَوَّلٍ وَ أَبُونَا مِنْ بَنِى أَودَ حِيَارِ

(١) تاريخ علوم البلاغة ص ٧٨ .
(٢) البديع لابن المعتز ضمن كتاب ابن المعتز و تراثه تحقيق د . محمد عبد المنعم خفاجى ص ٦١٢ .
(٣) السابق ص ٦١٨ .
(٤) السابق ص ٦٢٠ .

فيقول : اللقاح من العرب الذين لا يدينون للملوك و هو مأخوذ من لقاح الإبل أى هم مستغنون بما عندهم من العز عن غيرهم[1] .

فمعنى كلام ابن المعتز أن الليل قد وصف بما لا يوصف به على الحقيقة حيث جعل له صلبا و أعجازا إلى آخره كما أن الليل قد أثبت له إراحة . و كذلك أثبت للملك اللقاح و هذا الوصف أصلا للإبل . و واضح من ذلك أن هذا المفهوم يتفق و المعنى الذى أشار إليه عبد القاهر فيما بعد و جعله أصلا للتفريق بين ضربى الاستعارة التصريحية و التخييلية على ما سيأتى إيضاحه فى موضعه إن شاء الله .

و مما يلاحظ أن أكثر الشواهد التى أوردها ابن المعتز تدخل فى باب الكناية و لهذا الأمر ما يبرره حيث كانت موضع النقاش بين المحافظين من اللغويين و الشعراء و بين من يتزعون نحو التجديد بالسرف و سنرى كيف كان نقد الآمدى منصبا فى أكثره على هذا الضرب حيث أغرب فيه أبو تمام و أضرابه و جاءوا بصور منه على غير المألوف .

و مع أن ابن المعتز أول من ألف فى البديع فيما نعلم إلا أنه لم ينظر إليه نظرة المعجب بشئ اهتدى إليه . فلم يره حسنا كله . فبعد تلك الاستعارات الجيدة التى وقعت موقعها من حسه و نفسه أورد كذلك بعض الاستعارات القبيحة التى لم يتذوقها لما رأى فيها من البعد بين المستعار له و المستعار منه . فمن العيب قول الشاعر :-

كُلُوا الصَّبْرَ غَضّاً وَ اشْرَبُوهُ فَإِنَّكُمْ ... أَكَلْتُمْ بِهِ يَوْمَ الظُّلَيْمِ وَ الظُّلْمُ بَارِحُ

و قول العباس بن الأحنف :-

وَلِيَ جُفُونٌ جَفَاهَا النَّوْمُ فَاتَّصَلَتْ ... أَعْجَازُ دَمْعٍ بِأَعْنَاقِ الدَّمِ السَّرَبِ

و هذا و أمثاله من الاستعارة مما عيب من الشعر و الكلام و إنما تخبر بالقليل ليعرف فيجتنب[2] . و مع أنا نوافقه فى قبح الاستعارة فيما أورد إلا أنه لم يذكر العلة التى بنى عليها حكمه . و لعله رأى الاكتفاء بحس القارئ و ذوقه عن التماس

(١) السابق ص ٦٢٢ .
(٢) البديع ص ٦٤٢ .

العلل و الأسباب ، فأمر التعليق هنا ميسور إذ التعبير عن احتمال الصبر بالأمل أو تشبيههم بطعام ردئ بغير بعد ، و أساس الاستعارة هو التقارب بين المستعار له و المستعار منه في الشبه حتى يمكن مزجهما و لا يكون بينهما تباعد أو مفارقة ، و لا يظهر في أحدهما إعراض عن الآخر (و يبدو هذا البعد أو الإعراض بوضوح في بيت العباس بن الأحنف لأنه جعل للدمع أعجازا و للدم أعناقا) [1] .

و مما عابه ابن المعتز من الاستعارة في المنثور قول عبيد الله : أقعد على أست الأرض فقال له مخاطبه ما أعلم أن للأرض استا [2] .

و الحق أن التنبيه إلى نقد الاستعارة على هذا الوجه قد فتح بابا للقيام النقد على أساس فني يتعمق فيه الناقد يغوص إلى قرار المعنى و يبحث عن الفكرة و مقدار التوفيق أو الاخفاق في تأديتها على ما سيتضح عند صاحب الموازنة و صاحب الوساطة و من تلاهما على ما سيأتي تفصيله قريبا .

فى أخبار أبى تمام للصولى ت ٣٣٥ أو ٣٣٦ هـ [1]

يعد أبو بكر بن يحيى المعروف بالصولى من أهم و أبرز النقاد الذين حملوا عب ء الدفاع عن تلك الاستعارات الغريبة أو البعيدة التى جاء بها أصحاب البديع و خاصة أبا تمام ، فقد ألف الصولى كتابه : أخبار أبى تمام و قدم فيه أبا تمام على غيره مستحسنا طريقته ، و قد بذل جهدا غير قليل فى محاولة التخريج لما عيب من استعاراته . و إن لم تلق محاولته استحسانا أو قبولا من أكثر النقاد و البلاغيين و خاصة المحدثين بل ظل الصولى و تخريجاته محل ريبة و تجريح و اتهام .

و تحت داعى عدم الإطالة نكتفى بإيراد مثال واحد نتبين منه طريقة الصولى التوجيه و ما كان لذلك من أثر على الدراسات النقدية و البلاغية بعده .

فقد أورد الصولى فى سياق رده على المعاب من استعارات أبى تمام قوله يمدح محمد بن حسان الضبى قوله :—

لا تسقنى ماء الملام ، فإننى صب قد استعذبت ماء بكائى

يريد أبو تمام كما جاء فى شرح التبريزى : أى لا تلمنى فإنى عاشق قد ألفت البكاء و استعذبته ، فلا أكاد أقلع عنه للومك إياه [2] .

و ذكر قول المعترضين : ما معنى ماء الملام ، ثم بدأ الجواب و التوجيه مستندا الى مأثور العرب نثرا و شعرا . و كذلك بعض أى القرآن الكريم . فهم (يقولون كلام كثير السماء . و ما أكثر ماء شعر الأخطل . و يقولون : ماء الصبابة و ماء الهوى . يريدون الدمع . قال ذو الرمة :—

أ أن ترسمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم ؟

و قال أيضا :—

أدارا بحزوى هجت للعين عبرة فماء الهوى يرفض أو يترقرق

---

(١) مقدمة كتاب أخبار أبى تمام .
(٢) شرح التبريزى لديوان أبى تمام جـ ١ ص ٣٢ ، ٣٣ .

و يعقب الصولى على هذا البيت بقوله : فصير الماء الوجه ماء . و قالوا : ماء الشباب و يستشهد لذلك بقول أبى العتاهية :—

ظبى عليه من الملاحة حلـــــة ماء الشباب يجول فى وجناتـــه

ثم يعقب بقوله (لما يكون من استعمار) أبو تمام من هذا كله حرفا فجاء به فى حد ربيته لما قال فى آخره : فأنتى صب قد استعذبت ماء بكائى . قال فى أوله لا تسقنى مـاء الملام . و قد تحمل العرب اللفظ على اللفظ فيما لا يستوى معناه) و يستشهـــد لذلك ببعض آيات القرآن الكريم من نحو قوله تعالى : " و جزاء سيئة سيئة مثلهـــا " و السيئة الثانية ليست بسيئة لانها مجازاة و لكنه لما قال : (و جزاء سيئة . قـــال : سيئة . فحمل اللفظ على اللفظ " .

كما ذكر قوله عز و جل : " و اخفض لهما جناح الذل من الرحمة " معقبا بقوله : " فهذا أجل استعارة و أحسنها . و كلام العرب جار عليهـا .

ثم يختم الصولى حديثه عن هذه الاستعارة بقوله ردا على المنكرين : (و لـــو عرف هؤلاء ما أنكره الناس على الشعراء الحذاق من القدماء و المحدثين لكثر حـــتى يقل عندهم ما عابوه على أبى تمـــام اذا اعتقدوا الانصاف و تظروا بعينه و منزلـــة عائب أبى تمام — و هو رأس فى الشعـــر مبتدئ لمذهب سلكه كل محسن بعـــده فلم يبلغه فيه حتى قيل : مذهب الطائى . و كل حاذق بعده ينسب اليه . و يكفى أنوه منزلة حقيرة يعجبان عن ذكرها الذم و يرتفع عنها الوهد [1] .

و يظهر من كلام الصولى هذا أن هناك من عاب تلك الاستعارة . ثم أوضـــح أن تلك الاستعارة لم تخرج عما عند العرب و أكد ذلك بشواهد عديدة لشعراء مشهـــود لهم بالجودة و الاحسان .

و واضح أن توجيه الصولى هذا انما يستند الى مبدأ هو القياس على النظائـــر و قد أثارت تلك الاستعارة بالذات و أقوال الصولى حولها اختلافا شديدا بيـــن النقاد و البلاغيين قديما و حديثا حيث لا يكاد يخلو منها مؤلف فى مجال النقـــد و البلاغة و قبل أن نعرض لمناقشة الصولى نورد طرفا من آراء النقاد و البلاغيين .

---

(١) أخبار أبى تمـــام ص ٣٣ و ما بعدهـــا .

و من الغريب أن الآمدي مع موقفه الرافض لأمثال تلك الاستعارات بل لما هو أقل منها بمدا يكثير يكاد يتفق مع الصولي من حيث امكان قبول تلك الاستعارة (١) و ان ناقض الصولي من كثير من الشواهد التي قاس عليها موجه لها على طرق أخرى على ما سيتضح عند الحديث عن الموازنة .

و ابن سنان و ان رفض مثل هذه الاستعارة كذ رفض توجيه الصولي لها و مع كونه قد رد على الآمدي الا أنه أبدى لينافي الحكم حيث جعل أبا تمام من أصحاب البدائع فهذه الاستعارة و أمثالها لا ينبغي أن تقدح فيه (٢) .

و أما ابن الأثير فقد توسط في الحكم و رأى أن هذه الاستعارة حسنة من وجه و بعيدة من وجه آخر اما سبب القرب فهو ان العلام هو القول الذي يعنف به الملوم لأمر جناه . و ذلك مختص بالسمع . فنقله أبو تمام الى السقيا التي هي مختصة بالحلق . كأنه قال : لا تذقني العلام .

و أما سبب البعد فهو أن الماء مستلذ . و العلام مستنكرة فحصل بينهما مخالفة من هذا الوجه (٣) .

و أما السكاكي فقد رأى في تلك الاستعارة تصيرا لمفي رأيه . و هو امكان انفراد الاستعارة التخيلية عن المكنية(٤) و ان كان ذلك لم يرض جماعة البلاغيين بعده كالخطيب(٥) و غيره . و من ثم حاولوا التماس وجوه أخرى للتخريج الا أن واحدا منها لم يسلم من نقاش و اعتراض على ما سيظهر عند الحديث عن مذهب السكاكي في المكنية ان شاء الله تعالى .

و اذا كان ما سبق يمثل جانبا من آراء النقاد و البلاغيين تجاه هذه الاستعارة في القديم فان أكثر النقاد المحدثين يتجهون الى رد تلك الاستعارة و أمثالها و رفض تخريجات الصولي .

فقد أورد الدكتور مندور كلام الصولي مناقشا له و معترضا عليه بقوله : (والنقد

---

(١) ينظر : الموازنة جـ ١ ص ٢٦١ .
(٢) ينظر : سر الفصاحة ١٣٠ — ١٣٥ .
(٣) المثل السائر جـ ٢ ص ١٥٥ .
(٤) ينظر : المفتاح ص ١٨٣ .
(٥) ينظر : الايضاح ص ١٨٠ .

الصحيح هو أن أبا تمام قد أراد البديع — فخرج الى المحال • و قد ذكر ماء الباكاء • فكان لابد له وفاء للبديع رد للاعجاز على الصدور أوردا الصدور على الاعجاز من أن يذكر: (ماء الملام) و هذا سخف يدل على الإسراف و صفاقة الذوق عند أبي تمام و عند ناقديه)[1] •

و اذا كانت تلك الاستعارة و أمثالها فيها من البعد و الغرابة ما لا يقبل الجدل • و اذا كان الصولي لم يحسن التوجيه الا أن ذلك لا يدفع ما بدا من تحامل في قول الدكتور مندور • فالملاحظ أنه قد اسرف كثيرا في اتهام الصولي و وصفه بما لا يرضى بمثله النقد المنهجي • و الأخطر أن يجرد ابا تمام عن الاحساس بشيء مما يقوله [2] و أن يصفه بالصفاقة و السخف • و نحسن نعلم من أمر أبي تمام أنه كان حاد الشعور يكاد يحس الشيء قبل وقوعه على ما أخبرنا به من يعتد الدكتور مندور[3]

و أما الدكتور زغلول سلام فيرى أن نقد الصولي تعوزه الدقة البيانية فهو متأثر بمذهب البديع حتى و لو على حساب الترابط المعنوي [4] •

و أرى أنه و ان كان من حق الشاعر أو الأديب أن يختار لمعانيه و صوره العبارات و الألفاظ التي يراها أحق بها من غيرها بلا قيود و لا محاذير • لكن بشرط الا يكون ذلك على حساب أصول الذوق العام أو بخروج عن القواعد التي لابد منها لصحة التصوير و استقامة التصوير • و بناء على ذلك فمن غير الميسور أن نقبل تلك الاستعارة و أمثالها اذ لا مناسبة من قرب أو بعد بين الملام و الماء حتى يسوغ في الذوق إضافة أحدهما للآخر •

اذ ان لفظ الماء يوحي بمعان مخالفة لما توحيه كلمة الملام كما لا اعتقد أن المقام يناسب لهذا الاستعمال اذ ليس المقام هنا مقام تهكم و لا سخرية • و كما هو معلوم فان الاستعارة إنما تقوم على مناسبة والا كانت ضربا من العبث أو التعمية و الإلغاز •

و أما دفاع الصولي و تحامل غنيمي هلال اذ أن هناك فرقا كبيرا بين استعارة — ماء الملام — و ماء الصبابة — و ماء الهوى — عند ذي الرمة • اذ المراد بالماء هنا الدموع • فهو استعمال على سبيل الحقيقة •

---

(١) النقد المنهجي عند العرب د • محمد مندور ص ٩٨ •
(٢) السابق نفس الموضع •
(٣) ينظر : حديث الشعر و النثر د • طه حسين ص ١٦١ •
(٤) ينظر : أثر القرآن في تطور النقد العربي د • زغلول سلام ص ٣٣٩ • ٣٤٠ •

و اما قياس الصولى — ماء الملام — على بعض الآيات الكريمة فلا وجه لتلك المقارنة لوجود التخالف الصحيح كما فى الآيات الكريمة دون تلك الاستعارات .

و ما كان أبو تمام ليذهب عليه الفرق . فليس جعل الجناح للذل كجعل الماء للملام فان اثبات الجناح للذل مناسب و ذلك أن الطائر اذا وهن أو تعب بسط جناحيه و خفضهما و ألقى نفسه على الأرض . و للانسان أيضا جناح فان جنبيه جناحاه و اذا خضع و استكان طأطأ من رأسه و خفض من يديه فحسن عند ذلك جعل الجناح للذل و صار تشبيها مناسبا . و أما الماء للملام فليس كذلك فى مناسبة التشبيه كما يقول ابن الأثير[1] .

و مما هو معلوم أن هذه الآية الكريمة قد تناولها البلاغيون ضمن أحاديثهم عن الاستعارات المكنية و شرحوها على مقتضياتها على ما هو واضح فى أكثر من موضع فى هذا البحث .

و مع ذلك فقد رأى الدكتور أحمد بدوى أن ما فى الآية الكريمة خارج عن نطاق الاستعارة بالكناية أصلا . و هو يدخل فى باب الكناية .

يقول تعقيبا على رأى البلاغيين فى الآية الكريمة : و عندى أن ليس الأمر على ما ذكروا . و ان هذا التعبير كناية عن الرفق فى معاملة الوالدين و أخذهما باللين و الرقة . كما تقول : و أخفض لهما الجناح ذلا . و لكن لما كان ثمة صلة بين الجناح بمعنى جانب الانسان و بين الذل . اذ أن هذا الجانب هو مظهر الفطرسة حين يشمخ المرء بأنفه و مظهر التواضع حين يتطامن — أجازت هذه الصلة اضافة الجناح للذل لا على معنى المكنية . فلسنا إذاً بحاجة الى تشبيه الذل بطائر تستعير جناحه . و لكننا بحاجة الى استعارة الجناح للجانب و جمال ذلك هنا فى أن اختيار كلمة الجناح فى هذا الموضع توحى بما ينبغى أن يُظل به الابن اباه من رعاية و حب كما يظل الطائر صغار فراخه[2] .

و الحق أن هذا الرأى و التوجيه يفتقر الى مناقشة ليس لمخالفته ما عليه البلاغيون فحسب و انما لأننا لانجد فى الحمل على الكناية معنى جديدا يفتقد عند اعتبار المكنية بل ربما كان فى أسلوب المكنية مزيد مبالغة فى تصوير المعنى المقصود على ما سيظهر فى موضعه ان شاء الله .

---

(١) ينظر : المثل السائر جـ ٢ ص ١٥٥ .
(٢) من بلاغة القرآن د . أحمد بدوى ص ٢٢٢ .

و لا شك أن هذه الدراسة القيمة التي نهض بها أبو بشر الآمدي في كتابه الموازنة ، و هذه الجهود المشكورة التي أودعها القاضي علي بن عبد العزيز كتابه الوساطة من خير ما يحتز به تراثنا الأدبي . و قد كانت هذه التحليلات عونا لعبد القاهر الجرجاني في بناء طريقته في مجال التحليل و العرض .

و مع وجود ملامح مشتركة بين كل من الآمدي و الجرجاني ، إلا أن ثمة خصائص مميزة لدراستها تصح إفراد كل منهما بحديث خاص .

و لما كانت مجالات الدراسة فيما يتصل بالمكنية عند الآمدي أكثر شمولا و أعم أثرا ، فضلا عن الاعتبار التاريخي ، كان الحديث عنه أولا .

* مع الآمدي ت ٣٧١هـ[1]

تعد دراسة أبي بشر الآمدي حول أساليب المكنية من أهم ما قام حول هذا الفن من دراسات إذا أشفنا جهود عبد القاهر القيمة في مجال التأصيل و التميز و كذا بعض المحاولات الجادة التي بذلت في ميدان التحليل و الكشف عن أسراره و أغواره .

و قد عولجت المكنية عند الآمدي على نحو جديد جمع إلى الناحية الأدبية متمثلة في الحشد الهائل من الشواهد ، الجانب البلاغي و النقدي متحققا في المعايير المستمدة من النماذج ، سالكا في ذلك أسلوب التحليل و التطبيق و المقارنة و دلالته كله يمثل قيمة ذاتية أصيلة يضاف الى ذلك ما كان لها من آثار بعيدة المدى على الحياة الأدبية و النقدية ما تزال تشهد بعض جوانبها حتى الآن ، و تلك ميزة أخرى لها أهميتها الكبرى .

و ينبغي أن نتفق على أن تناول ما يتصل بفن المكنية عند الآمدي على ضوء

---

(١) ينظر : معجم الأدباء جـ ص

مسألتين تتصل أولاهما بكيفية تصوره ، وموقفه منها ، وجهوده نحوها على طريق التحديد والتمييز ، وتتعلق ثانيتهما بالكيفية التي عالجها على ضوء المعايير البلاغية والنقدية .

الاستعارة :-

أورد الآمدي ما يعد حدًا للاستعارة التي جرى عليها العرف العربي بقوله (وإنما استعارت العرب الشئ لما ليس هو له ، إذا كان يقاربه أو يناسبه ، أو يشابهه في بعض أحواله ، أو كان سببا من أسبابه ، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشئ الذي استعيرت له وملائمة لمعناه)[1] .

وعلى هذا تكون المكنية داخلة في هذا التعريف الذي غلب عليه التعميم بحيث يتسع لبعض الصور البيانية الأخرى ، ولقد خطأ الأستاذ الدكتور عوني ضيف الناقد الآمدي في كونه قد أدخل الاستعارة بالكناية في حيز الاستعارة في حين أنها لون آخر لا يدخل في الاستعارة أصلا على ما ذهب إليه الأستاذ الباحث تعقيبا على تعريف الآمدي (وهو مخطئ في هذه القاعدة التي وضعها للاستعارة ، ذلك أنه أدخل في حيز الاستعارة ما سماه العرب بالاستعارة المكنية ، وكان أرسطو يسميه وضع الشئ تحت العين) أي بث الحياة والحركة فيه ، وتسميه البلاغة الغربية الحديثة باسم التشخيص وهو ينفصل عن الاستعارة القائمة على التشبيه ، إذ هو جعل وخلق وتجسيد ونقل لعناصر الطبيعة وللمعاني من عالمها إلى العالم الحي المتحرك)[2] .

ومع أن الأستاذ الباحث يعد أحد أولئك الذين نقدر لهم جهودهم في ميدان البحث البلاغي والأدبي إلا أن ذلك لا يمنع من أن نخالفه في كلامه هذا ، فالآمدي وإن أدخل في الاستعارة ما عرف بعده بالمكنية ، فقد سبقه من العلماء كثعلب وابن المعتز من أدخل المكنية في الاستعارة أيضا ، وقد سبق للأستاذ

---

(١) الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ص ٢٦٦ .
(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٠ .

الباحث أن ذكر ابن المعتز ربما كان أول من وجه نقاد أبي تمام و منهم الآمدي الى هذا الجانب [1] — الاستعارات المكنية — .

ثم ان عموم النقاد و البلاغيين بعد الآمدي كعبد القاهر و الزمخشري و الرازي و السكاكي و الخطيب لم يختلفوا في اعتبار هذا اللون من قبيل الاستعارة و ان اختلفت كلمتهم حول مفهومها عندهم على ما سيأتي تفصيله في مواضعه ان شاء الله تعالى .

نعم ان ابن الأثير قد أخرج المكنية عن الاستعارة و جعلها ضربا من التوسع لكن لم يلق رأيه هذا قبولا و لم يكن له صدى عند المتأخرين .

و أما أن هذا اللون يسمى بأسماء أخرى في البلاغة غير العربية فلا أعتقد أن هذا أمر تواخذ به البلاغة العربية ، اذ ليست المسألة مجرد مصطلح هذا من ناحية .

و من ناحية أخرى فان الاسم المقترح بهذا الفن و هو — التشخيص — لا يصلح بديلا عن المكنية لأن هذه الكلمة فيها من الاتساع ما يشمل صورا أخرى ، ثم ان القول باغفال جانب المشابهة في تلك الاستعارة يعد اهمالا لأحد الأصول المهمة التي قام عليها الدرس البلاغي في مراحله المختلفة .

و اذا كانت المكنية داخلة في تعريف الاستعارة عند الآمدي فقد أشار الى طريقتها في بعض المواضع و من ذلك قوله في بيت البحتري :-

أبعد المشيب المتنفى في الذوائب أحاول لطف الوعد عند الكواعب[2]

يقول : " فجعل المشيب متنفسا في الذوائب ، أي مشهورا فيها على الاستعارة كأنه جعل سيفا صاقل في رأسه "[3] .

---

(١) ينظر : البلاغة تطور و تاريخ نفس الموضع .
(٢) الموازنة جـ ٢ ص ١٩٢ .
(٣) نفس المرجع جـ ٢ ص ١٩٥ .

و من ذلك أيضا تخريجه لبيت الأخطل "فان الريح طيبة قبول"(١) إذ يقول : (فإن كانت العرب سمت الشمال و الجنوب إذا هبتا لينا ، قبولا فانما شبهوهما بالنّبا و انما روها اسمها "(٢) و أقرب مما سبق و أدل على ما نسأل عنه قوله في تعليقه على بيت البحتري :—

قَدْ بَيَّنَ الْبَيْنُ الْفِرَاقُ بَيْنَنَا عِشْقَ النَّوَى لِقَلْبِ ذَاكَ الرَّبِيبِ(٣)

حيث قال : " و النوى هي النية في انتقال القوم من موضع لآخر و عشق النية لربيب الربرب : استعارة ، ليست بحسنة ، غير أن الشعراء المتأخرين قد اصطلحوا على أن جعلوا البين و الفراق و النوى كالأشخاص ، و جعلوها الحائلة بينهم و بين من يهوونه . فهم يستعملون الأفعال لها فربما حسنت الاستعارة لها وربما قبحت على حسب مواضعها في الإغراق و الاقتصاد "(٤) .

و مع أهمية تلك الإشارات و نحوها ، و اعتبارها الأصول التي قام عليها التحديد للمكنية فيما بعد ، إلا أنه لا ينبغي أن نسرف في الاعتداد بها أو تحميلها أكثر مما تحتمله إذ ما نزال في القرن الرابع ، و لم تصل بعد إلى حيث التمييز الدقيق للفنون البيانية بعامة و المكنية منها على وجه أخص .

و المهم أن تلك الإشارات تعين على فهم حقيقة موقف الآمدي و أنه لم يكن منكرا له كما قد يقع اللبس في ذلك لكثرة إيراده ، العاب و المستقبح ، و كذا تمسكه الشديد بأصول معينة أحتكم إليها في بحثه لتلك الأساليب و الحكم عليها .

و الآمدي و إن جاري في معظم جوانب دراسته ما يقتضيه الذوق العام ، و ما عليه عموم نقاد عصره ، إلا أنه قد أخذت مواقفه على شيء من التحفظ و ربما الاعتراض كذلك من قبل النقاد و الباحثين ، و بخاصة المحدثون ممن رأوا في كثرة الضوابط عنده ، قيودا لا تتفق كثيرا و الطبائع الأدبية بالإضافة إلى كونها جامدة على

---

(١) الموازنة جـ ١ ص ١٦٣ .
(٢) السابق جـ ١ ص ١٦٤ .
(٣) السابق جـ ٢ ص ٣٤ .
(٤) المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٥ .

أدباء الشعراء الذين ـ نبعوا مقتضيات العصر مستقين منه أخيلتهم و صورهم ، بغض النظر عما قد يكون من مخالفة للتراث الموروث .

و على هذا فان أبا تمام وأضرابه قد جاءوا باستعارات مخالفة لما جرى عليه العرف العربي حيث قاسوا على ما ورد صورا أخرى جديدة تصل إلى حد المبالغة المفرطة أو الإحالة و الاغراب في المعنى .

و يمكن القول إن الآمدي قد عالج الأمور النقدية المتصلة بالمكنية في موضعين أساسيين :ـ

الموضع الأول : في الباب الذي عقده للبحث في أخطاء أبي تمام في المعاني و الألفاظ [1] .

الموضع الثاني : في الباب الذي عقده لبيان القبيح من استعارات أبي تمام [2] .

و من أهم المسائل التي عرض لها في الموضع الأول :ـ

الاحتكام إلى ما جرت به العادة و اعتباره أصلا تقاس عليه جودة الاستعارات، و قد ألح الآمدي كثيرا على تلك القضية متخذا من مخالفة أبي تمام لهذا الأصل أساسا للحكم على كثير من استعاراته بالخطأ لأنه استخدم أوصافا لأشياء لم تأتلف في مأثور العرب المعتد بمذاهبهم في مثل قوله :ـ

رَقَّتْ حواشي الحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ ... يُكَفُّكَ مَا مَاريْتَ فِيهِ تَبَرُّدُ

فقد أورد الآمدي إنكار ثعلب لهذا البيت و أن الناس ما زالوا يضحكون منذ سمعوه معلقا و موجها جانب الخطأ بقوله : (و الخطأ في هذا البيت ظاهر لأني ما علمت أحدا من شعراء الجاهلية و الإسلام وصف الحلم بالرقة ، و إنما يوصف بالعظم و الرجحان و الثقل و الرزانة [3] .

---

(١) الموازنة جـ ١ ص ١٥٧ ، و ما بعدها .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٦١ .
(٣) السابق جـ ١ ص ١٤٣ .

ثم أورد عديدا من الشواهد التي وُصِف الحلم فيها وفق المعاني التي أشار إليها معقبا بقوله : " فهذه طريقة وصفهم للحلم و ما مدحوه بالثقل و الرزانة و رموه بالطيش و الخفة ، أيضا فإن البرد لا يوصف بالرقة ، و إنما يوصف بالثاقبة و الصقالة ، و لولا أنه قال رقيق حواشي الحلم ، لظننت أنه (ما) شبه بالبرد إلا لثاقبته ، و هذا عندي أقبح الخطأ ثم قوله : (لو أن حلمه يكفيك : كلام في غاية (القبح) و السخافة [1] هذا ما قاله بشأن تخطئته بيت أبي تمام .

فأما إنكار ثعلب : فينبغي أن يؤخذ على ضوء من الحذر و التروي و ذلك لصدوره في أحكامه عن مزج ثقافي تحفظ شديد الميل إلى القديم التواءت إلى حد يشبه التعصب كما ظهر عند الحديث عن الكنية في دراسته ، و كما يومئ بذلك جلياء في شرحه لديوان زهير [2] و أما وجه الخطأ على ما أوضحه الآمدي : فجمال منا قشة ، إذ أنه لم يبن على أساس موضوعي مستمد من الأسلوب نفسه مما أوجد حوله خصومات كثيرة و على الأخص لدى الكتاب المعاصرين و المحدثين .

يقول الدكتور : طه حسين تعقيبا على رأي الآمدي في البيت السابق : "وهؤلاء النقاد لم يقدروا الفرق البعيد جدا بين عقلية أبي تمام ، و عقلية الشعراء المتقدمين و الذين تلدوهم من المحدثين و الذين شبهوا الحلم بالجبال ، فأبو تمام رجل حضري ، و هو إذا مدح فإنما يمدح الوزراء و الكتاب و الخلفاء المترفين ، و هذا إذا وصف الخلفاء بالتأني و الرزانة لم يستحسن منه أن يجعل لهم رزانة هؤلاء الأعراب التي تزن الجبال ، لم يكن أحد هم يحب أن يوصف بضخامة الرأس ، و ثقل السمع كما كان يستحسن من قيس بن عاصم أو معاوية بن أبي سفيان ، و إنما كان العصر عصرا آخر ، و كانت لأهله حضارة هي على أقل تقدير شديدة الابتسام من الناحية المادية حضارة أرستقراطية مترفة تظهر فيها الدعة " [3] .

ثم يلتمس وجها لوصف أبي تمام و استماتته بقوله فليس غريبا أن يكون حلم المتحضرين في بغداد و رقيق الحواشي أما ، لو أن حلمه يكفيه ، فهذا غريب

---

(١) الموازنة جـ ١ ص ١٤٦ .
(٢) شرح ديوان زهير ص ١٨ .
(٣) من حديث الشعر و النثر د . طه حسين ص ١٧٤ .

و لكن أية قيمة للشاعر المبتكر إذا لم يستطع أن يخترع لك من الصور ما يبهرك و يضطرك إلى أن تعجب بهذه الصور الجميلة (١) .

و أما الأستاذ الدكتور شكري عياد فيشير إلى ما يمكن عده تناقضا في موقف الآمدي و أضرابه إذ يقول : " و الحق أن النقد العربي الخالص قد وضع الشعراء و النقاد جميعا في مأزق . فالشاعر المحدث ملزم بأن يجاري القدماء في أوصافهم و تشبيهاتهم لا يستحسن إلا ما استحسنوا . و لا يذم إلا ما ذموه . و لا يشبه إلا على طريقتهم . و لا يستعير إلا على أساليبهم . فإذا وافق الشاعر المحدث بعد ذلك شاعرا مقدما في معنى أو أسلوب . فهو آخذ و هو مسبوق (٢) .

و الحق أن موقف الآمدي .. يشوبه شئ من التحكم و ربما التنكر لأثر العصر و ما جد فيه على (اختلاف صور البيان من جماعة إلى جماعة و من زمن إلى زمن (٣) على أن الأدباء و خاصة أصحاب المذاهب يجدون في ملابسات حياتهم و حصاد ثقافتهم ينابيع يستقون منها صورهم و أخيلتهم . و إن كنا لا نقول بعدم الإفادة من طرائق المتقدمين في التعبير و التصوير (و لكن لا نريد الوقوف بالأدب و بالانتاج البياني وقفة ركود من غير أن نستوحي تجاربنا و نسترفد بعقولنا و لا نريد أن نجمد فلا نتهيأ للأدب . لا في موضوعاته و لا في أشكاله و لا في أغراضه . فيصبح أدبنا صورة أخرى من أدب العصور الماضية (٤) .

على أن موقف الآمدي فيما يتصل بجريان العادة و الاستناد إليها في الحكم قد أثار مسألة أخرى لها أهميتها الكبرى على الصور البيانية بعامة . و ربما أساليب المكنية على وجه خاص و تلك المسألة هي :—

" القول بعدم القياس في المجاز "

و قبل أن نتناول رأي الآمدي حول تلك المشكلة نزيد ها أيضاحا بتحديد المراد منها فنقول :—

---

(١) من حديث الشعر و النثر . طه حسين ص ١٧٥ .
(٢) كتاب أرسطو تحقيق د . شكري عياد ص ٢٣٤ .
(٣) علم البيان د . طبانة ص ٢٢٠ .
(٤) الأصول الفنية في الأدب د . عبد الحميد حسن ص ١٩٤ .

هل دلالة الألفاظ و التراكيب على معانيها تعد من قبيل الدلالات التوقيفية بحيث يعد الخروج عنها خروجا عن أصول اللغة ذاتها ، أو أن تلك الدلالات لهـا طابع التغيير وفقا لتطور العصر ، و ارتقاء مظاهره بحيث تلائم الحياة و ما يطـرأ عليها من ظواهر متباينة ، و كذا نفس الأديب المتفعلة بما يشاهد سواء من الواقـع المحس أو ما استتر داخلة من أحاسيس و مشاعر و أيما كان القول بالاحتمال هـذا أو ذاك فسنصبح بمثابة دعوى تقام بغير دليل ، لذا احتاج الأمر إلى شئ مـن التفصيل .

رأى الآمـــدى :ـ

و يبدو موقف الآمدى فى تعليقه السابق على استعارة أبى تمام رقيق حواشى الحلم ـ كما أسلفنا ـ و إن كان هذا الرأى يظهر على نحو أكثر وضوحا فى العديد من أحكامه بالتخطئة لاستعارات أبى تمام التى لم يلتزم معها بالمتعارف ، بـل جدد فيها و وصف أشياء بأوصاف لم تعهد و كأنه بذلك يقيس على ما ورد و تجـد مثلا لذلك فى تخطئته لأبى تمام فى قولـه :ـ

بِيَوْمٍ كَطُولِ الدَّهْرِ فِي عَرْضِ شِلْوِهِ وَوَجْدِيَ مِنْ هَذَا لَوَهَذَاكَ أَطْوَلُ (١)

فقد ذكر أن فى هذا المعنى إحالة ، رادًا القول بإمكان اعتبار المجاز (لأن المجاز فى هذا له صورة معروفة ، و ألفاظ مألوفة معتادة لا يتجاوزها فى النطق إلى ما سواها (٢) ثم يورد بعضًا من الأمثلة التى استعمل فيها وصف الطول و العرض استعمالا صحيحـا على وجه الاستعارة معقبا بقوله : (فهذا إذا جرى على هذا اللفظ المستعمل حسـن و لم يقبح ، و إن عدلت به عن هذه الطريقة ، و هذه الألفاظ المألوفة إلى ما يشبـه الحقائق أو يقاربها كنت مخطئـا) (٣) .

فالآمدى منع منعا باتا استعارة (العرض للزمان فى قول أبى تمام بحجـة أن لا طول و لا عرض له على الحقيقة مع أنه أجاز قولهم (و ما زلنا فى رخاء و نعمـة

---

(١) الموازنـة جـ ١ ص ١٩٦ .
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ١٩٧ .
(٣) السابق جـ ١ ص ١٩٩ .

الدهر الطويل العريض و غشنا في خفض و دعة زمنا طويلا عريضا) على أن يكون المراد تمام النعمة و كمالها و اتساعها و قد جاء في شعر الراعي و كُثَيِّر مايفيد الجواز قضية استعارة العريض للمجد و الأخلاق و هي لا عرض لها على الحقيقة فلم جوز هنا و منع هناك و وقف دون أبي تمام يحصي عليه الأخطاء و يرميه بالخروج على اللغة ، الحق أن تعليل الآمدي غير واضح و التفرقة غير بينة و هذا راجع إلى أن الآمدي تقليدي محافظ لا يقبل أن يقاس على اللغة و يتشدد في هذا .

و قال التبريزي نقلا عن أبي العلاء : (لما جعل للدهر طولا وصفه بالعرض على معنى الاستعارة و لا حقيقة بأن يوصف ، و إنما هو طويل لا غير ، فأما العروض فانما هو على الأماكن ، و ما جرى مجراها فأما الدهر فطويل ، و ما علم أحد قبل الطائي وصفه بالعرض ، و لكنه لما تقدم ذكر الطول استجاز أن يجيء بضده)[1] و قد ذكر الآمدي أيضا قول أبي تمام :ـ

أَمَرَ التَّجَلُّدَ بِالتَّلَدُّدِ حُرْقَةٌ أَعْرَتْ جُمُودَ دُمُوعِهِ بِجُمُومِ

و قد أورد تعليقه هينا وجه الخطأ بقوله : (فأي لفظ أسخف من أن يجعل الحرقة آمرة و أن كان ليس بخطأ ، و إنما العادة في مثل هذا أن تكون باعثة أو حاملة أو نحو هذا ، و أما الآمر فليس هذا موضعه)[2] .

فكأن القبح ليس مرده إلى قبح الصورة في ذاتها كما يقرر هو و أنما لخروج أبي تمام عن تقاليد العرب في استخدام الألفاظ (و هنا يبدو التحكم في الفن فمن قال إن الشاعر ينبغي ألا يخرج دائما عن التقاليد ، ان من حق " الأديب " أن يجدد و أن يخترع من الأدوات ما يريد ، و لعل التبريزي كان أكثر دقة من الآمدي حين قال : (إن أبا تمام له مذهب خاص في الاستعارة[3] و كثيرة هي المناقشات التي أثارها اتجاه الآمدي و كثيرة هي الاتهامات التي وجهها النقاد و الباحثون المحدثون إليه وحتى من أولئك الذين أخذ عنهم الاعجاب الشديد بالآمدي و الدفاع عن مواقفه .

---

(١) ديوان أبي تمام بشرح التبريزي جـ ٣ ص ٧٢ .
(٢) الموازنة جـ ١ ص ٢٢٢ .
(٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي د . شوقي ضيف ص ٢٣٥ .

ويورد ابن المستوفي تعليقا على كلام أبي العلاء السابق كثيرا ما يقول أبو العلاء نحو قوله : ما أعلم أحدا قبل الطائي ذكر تلك أو سبق إليه و شبهها يريد ما يستحسنه الطائي و ليست الاستعارة محصورة فإن وافق محدث من الشعراء من تقدمه في شئ منها فإما تعمدا أو اتفاقا و إلا فهي مما يستعملها كل شاعر إذا قصدها على ما يعرض عليه » (١)

و هذا الكلام يوحي بأن من حق الشاعر أن يتحرر من مذاهب القدماء و من تلك القيود التي وضعها أمثال الآمدي .

و يرى صاحب الرمزية في الأدب العربي « أن الجدة و الطرافة و الخروج عن المألوف أساس تقدير العمل الفني « لأن ذلك ما يميزه عن لغة الناس في حياتهم و أحاديثهم و محاوراتهم (٢) .

كما يجب أن يكون للغة الأديب ما يميزها أيضا عن لغة غيره من الأدباء .

و أما الأستاذ العقاد فيقول بعد أن أورد بعضا من ملاحظته القيمة عند بحثه موضوع المجاز و الشعر : (و ظاهر من جملة هذه الملاحظات أن أهل العربية جددوا كثيرا من مجازاتهم و إننا نستطيع أن نحذو حذوهم) (٣) .

و يضيف إلى ذلك (و شرط اللغة أن تصنع كما صنع أهلها فتجدد في المعاني من طريق المجاز بحيث لا يكاد السامع يفرق بينها للوهلة الأولى « أهي أصل في اللغة قديم أم مجاز جديد (٤) .

و كذلك الدكتور طه حسين يعبر عن رفضه لتلك المقولة التي لا تتيح للشاعر التصرف في أساليب اللغة بقوله : (و إذا كان هذا الكلام شائعا في الكوفة و البصرة

---

(١) هامش شرح التبريزي لابن المستوفي جـ ٣ ص ٧٢ .
(٢) الرمزية في الأدب العربي د . درويش الجندي ص ٦٦ .
(٣) اللغة الشاعرة عباس العقاد ص ٥٤ .
(٤) المصدر السابق ص ٥٦ .

في القرن الأول فأظننا قد أصبحنا لا نسيغه في القرن الثالث و أظننا أصبحنا نعتقد أن اللغة ملك لكل شاعر و كل كاتب ، فهوا إذاً يجب أن يصرفها لا أن تصرفه "(١)

كما يرى أن النقاد المحافظين و إن قبلوا مثل ذلك في عهود ماضية ، فليس لنا أن نقبلها بهذا اليسر الآن(٢) .

و حتى الدكتور مندور مع إعجابه بدراسات الآمدي و كثرة دفاعه المشروع عن اتجاهاته لم يجد بُدًا من مناقشته و اتهامه في تلك المسألة(٣) .

و قد اتجه هذه الوجهة الدكتور محمد الديداوي يقول : "والمجاز في اللغة رخصة للشاعر ، وفتح لباب التعبير على مصراعيه عندما تضيق الحقيقة عن التعبير الكامل في المعاني ، و الشاعر المبدع إذا استطاع أن يحسن استخدام الألفاظ الحقيقية وتملك زمام ناصية المجاز بعد صناع فقد حاز الفن كله و باب المجاز مفتوح لكل شاعر و لا يشترط على الشاعر في ولوجه إحكام الصنعة ، و لغة الشعر قوامها المجاز و لكن الآمدي ضيق واسعا ، و أحب للشعراء أن يقتصروا على ما جاء به سلفهم من المجاز و أن يحافظوا على حرمة الحقيقة فلا يمسوها و لكن هذا مخالف لسنة التطور و تحكم في الفن لا مسوغ له)(٤) .

و في الحق أن مشكلة كهذه يصعب البت فيها برأي قاطع و مرد ذلك لاتصالها بأصل لغوي من ناحية و بملكة التصوير و الابداع الأدبي من ناحية أخرى و من ثم نشأ الخلاف تبعا لاعتبار البعض أحد الجانبين و لو على حساب الجانب الآخر و مع ذلك يمكن أن نقول إنه ينبغي التفريق بين اعتبارين لأن اختلاطهما لا يعين على الوصول إلى ما قد يكون أمرا مقبولا .

فأما الاعتبار الأول فيتصل باللغة من حيث صحة اللفظ و التركيب و ما يحكم ذلك من قواعد و أصول نحوية و صرفية و كذا ما يتصل بالأسلوب الشعري من حيث القواعد التي من أجلها كان شعرا .

---

(١) من حديث الشعر و النثر د . طه حسين ص ١٧٦ .
(٢) المرجع السابق ص١٧٧ . (٣) النقد المنهجي ص ١٢٩ .
( ) الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام د . محمود الربداوي ص٢١٠ .

و هذا الجانب لا أعتقد أنه مجال مناقشة مجدية ، إذ الالتزام به أصل مقرر و الخروج عنه إنما هو خروج عن أصول اللغة ذاتها ، بغض النظر عن دعاوى البعض ممن يريدون أن يحرروا أنفسهم من كل شئ فشل ذلك دليل عجز و قصور و غصبين ظاهر الأمر اتهام للغة ، في حين أنهم في الحقيقة هم المتهمون .

و أما الجانب الثاني فيتصل بالأساليب من حيث ألوان التعبير التي يملكها الأدباء ، فالآمدي و أكثر النقاد القدامى لا يكادون يفرقون كثيرا بين هذا الجانب و ما سبقه .

و من ثم نادوا بضرورة الالتزام حتى بأشكال التعبير و التصوير و عدا الخروج عن ذلك خروجا عن أصول اللغة يستوجب التخطئة و لو كان التعبير في ذاته ليس بمعيب ، و هذا الاعتبار الصائم قد خلف ما يمكن تسميته برد فعل و انعكاس حاد و على الأخص من بعض المحدثين إذ يرون أن من حق الأديب أن يعبر عما شاء بما شاء ما دام صاحب مذهب و اتجاه (١) .

و لا شك أن في الأخذ بأي الاتجاهين نوع تطرف و مغالاة فإذا كنا لا نوافق كل الموافقة على مسلك الآمدي و أضرابه ، و نرى فيه قيدا على الإبداع ، و حدا للملكات المبتكرة مما لا ينسجم مع طبيعة الحياة و تجددها فمن المنطقي أن لا نوافق أيضا على الاتجاهات الداعية إلى عدم الالتزام بشئ ما دام الأديب صاحب مذهب ، و الحق أن عبارة « صاحب مذهب » عبارة متسعة جدا و لا يسوغ الأخذ بها على عمومها و اطلاقها و إلا لجاز لكل أحد أن يبيح لنفسه ما يشاء تحت دعوى أنه صاحب مذهب كما يحدث الآن ، حين نسمع ما يقرب من الضمونة التي لا تكاد تفهم بل و لا يكاد يفهمها أصحابها كذلك .

و لا نود الاطالة في تلك المشكلة أكثر من ذلك مع أهميتها لآثارها على درس المكتبة ... لننتقل إلى الباب الذي عقده لبيان القبيح من استعارات أبي تمام .

---

(١) الفن و مذاهبه في الشعر العربي ص ٢٣٥

فقد أورد الآمدي في هذا الباب خمسة وعشرين شاهدا لاستعارات أبي تمام أجمل معظم شواهدها في قوله : " فجعل كما ترى ، مع غشاشة هذه الألفاظ للدهر أخدعا ، ويدا تُقطع من الزند ، وكأنه يصرع ، وجعله يشرق بالكرام ويفكر ، ويبتسم وأن الأيام بنون له ، والزمان أبلق ، وجعل للمدح يدا وللقصائد مزامير إلا أنها لا تنفخ ولا تزمر ، وجعل المعروف مسلما تارة ، ومرتدا أخرى ، والحمد وغدا ، وجَذَبَ ندى الممدوح يزعمه جذبةً حتى خر صريعا بين أيدي قصائده ، وجعل المجد مايجوز عليه الخرف ، وأن له جسدا وكبدا ، وجعل لصروف النوى قدا ، وللأمن قُرُحا ، وظن أن الغيث كان دهرا حائكا ، وجعل للأيام ظهرا يركب ، والليالي كأنها عوارك ، والزمان كأنه صب عليه ماء ، والفرس كأنه ابن للصباح الأبلق ، وهذه استعارات في غاية القباحة والهجانة والغثاثة والبعد من الصواب "(١) .

ولا يعنينا هذا الحكم الأخير في كثير لما فيه من تجريح واتهام وتعميم ومن ثم نحاول أن نلتمس بعضا من الأسس الموضوعية التي احتكم إليها في عيب ما عاب ، وقد كان القياس الأصيل عنده ما جاء عند العرب من استعارات إذ كان عمادها وجود علاقة بين طرفيها و مشابهة و قرب و وضوح ، وبعد عن الإغراب والتكلف على ما يحتله مأثورهم من مثل قول امرئ القيس :—

فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ (١)

و قول زهير :— وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصَّبَا (٢)

و قول الهذلي :— وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا (٣)

و غير ذلك مما يعد من عيون الشواهد التي قامت عليها دراسات المكثية عند المتأخرين ، وقد علق الآمدي على هذا بقوله : (فهذا مجرى الاستعارات في كلام العرب "(٤) .

---

(١) الموازنة جـ ١ ص ٢٦٥ .
(٢) الموازنة جـ ١ ص ٢٦٦ .
(٣) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٦٧ .
(٤) المصدر السابق جـ ١ ص ٢٦٩ .

ويفهم من تلك الشواهد و من تعليقاته عليها أن المعايير المعتبرة فى قبح استعارات أبى تمام مخالفتها لما جاءت عليه عند الأقدمين .

بعد الشبه :ـ

يرى الآمدى أن بعد الشبه فى الاستعارة من الأمور الموجبة الحكم عليها بالقبح و الرد و الآمدى فى هذا يستند إلى أصل مهم و مقرر لدى أكثر النقاد و البلاغيين العرب و هو ضرورة التناسب بين طرفى الاستعارة و قرب الشبه فيها و كلما كانت العلاقة قريبة و صحيحة عقلا أو حسا كلما كانت الاستعارة حسنة و مقبولة و بمقدار خروجها عن هذا الأصل يكون الحكم عليها بالقبح و الرد .

و الاستعارة فى هذا الجانب تخالف التشبيه فإنه يأتى فيما ظهر وجه الشبه و قرب و فيما خفى و بعد ، و كلما احتاج الوجه إلى إمعان الفكر و تدقيق النظر كان أغرب و أجود بمثى و جد بين الطرفين شبه صحيح و مقبول ، لكن الاستعارة على العكس من ذلك يجب أن يكون الشبه فيها جليا و إلا صارت ضربا من الألغاز والإحالة .

و أساس التفريق بين الاستعارة و التشبيه فى هذا الجانب يرجع إلى أننا فى التشبيه نكون أمام طرفين ، على خلاف الاستعارة فليس معها ما يدل على التشبيه فإذا انضم إلى خفائه خفاء وجه الشبه زاد الخفاء و اشتد [1] .

و بناء على هذا الاصل حكم الآمدى على كثير من استعارات أبى تمام بالخطأ و القبح لبعد الشبه فيها ، فمن ذلك قول أبى تمام يمدح الحسن بن وهب :ـ

سأشكر عمرا الهب الرغى و ابن اخا دهر الذيبى

و قال يمدح محمد بن يوسف :ـ

فضربت الشتاء فى أحد عينيه ضربة غادرته عودا ركوبا

---

(١) ينظر حاشية مخلوف على شرح الدمنهورى للجوهر المكنون ص ١٥٠ .

و قال فى مدح محمد ابن الهيثم :ـ

يا دهرُ قَوِّمْ منْ أخَدَ عَيْك فقد ... أضجَجْتَ هذا الأنامَ من خُرُقِكْ

عد الآمدى هذه الأبيات من مرذول و قبيح الاستعارات ، و بعد أن زاد عليها عشرين بيتا من هذا القبيل و اتبع ذلك كله استعارات العرب اللائقة و الملائمة لمعناها قال : " انما استعارت العرب لما ليس له إذا كان يقاربه أو يدانيه أو يشبهه فى بعض أحواله ، أو كان سببا من أسبابه فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالمعنى الذى استعيرت له و ملائمة لمعناه ، ثم أتى باستعارات لا يروق القبيح و زهير و طفيل و غيرهم و استعارات من القرآن الكريم كل ذلك ليوازن بين الجيد و الردىء و ليضع القارىء امام قضية بينة المعالم واضحة الأسس ، ثم يستطرد مبينا عيوب تلك الاستعارات فقال : " و أما قول أبى تمام : " و لين أخادع الدهر الأبى " فأى حاجة إلى الأخادع حتى يستعيرها للزمن ؟ و كان يمكنه أن يقول : " و لين معاطف الدهر الأبى " أو " لين حوادث الدهر " أو " خلائق الدهر " كما تقول : فلان سهل الخلائق و لين الجانب ، و موطأ الاكناف ، و لأن الدهر قد يكون سهلا و حزنا و كيدا و خشنا ، على قدر تصرف الأحوال فيه ، فإن هذه الألفاظ كانت أولى بالاستعمال فى هذا الموضع ، و كانت تنوب له عن المعنى الذى قصده ، و يتخلص من قبح الأخادع ، فإن فى الكلام متسعا [1] .

فأما قوله : " ضربت الشتاء فى أخدعيه " فإن ذكر الأخدعين ها هنا ـ على قبحها ـ أسوغ ، " أى من السابقة فى البيت الأول " لأنه قال : " ضربة غادرته عودا ركيبا " و ذلك أن (العود) المسن من الإبل ، و البعير أبدا يضرب على صفحتى عنقه فيذل ، فقربت الاستعارة ها هنا من الصواب قليلا .

ثم تابع النقد مشيرا إلى البيت الثالث :ـ

و من القبيح فى هذا قوله : " يا دهر قوم من أخدعيك " البيت ، أى ضرورة دعته إلى الأخدعين ؟ و قد كان يمكنه أن يقول : " من أعوجاجك " أو " قوم معوج ضلعك " أو " يا دهر أحسن بنا الصنع " لأن الأخرق هو الذى لا يحسن العمل ، و ضده " الصنع " .

---

(١) الموازنة جـ ١ ص ٢٤٥ ـ ٢٥٥ .

فالآمدي لا يقبل مطلقا أمثال تلك الاستعارات ، ويرى أن في اللفظة شيئا غلما ذا الدخول في المزالق ، والولوج في الضايق ، والمخاطرة بالتقعر والتعمق؟ ونرجئ أمر التعليق على هذه الاستعارات ورأي الآمدي لتعرض لبعض آراء النقاد والبلاغيين .

فقد عد أبو هلال العسكري قول أبي تمام :-

يَا دَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ ... ... البيت

من بخيس شعره[1] .

وأما القاضي الجرجاني فيظهر من كلامه أن تلك الاستعارة وما شابهها على ما فيها من مجانبة للصواب يجب أن تغتفر ويلتمس له فيها العذر[2] .

وأما ابن الأثير فلقد سلك في نقد البيت مسلكا آخر ، ولم ينتج أثر ما قبله ، بل جعل عيب كلمة " الأخدع " وقبحها في تثنيتها .

وبعد هذه الخصومة المتهافتة حول كلمة الأخدع نجد الاجماع شبه منعقد على قبح الاستعارة فيها لثقلها على النفس إلا ما كان من تسامح القاضي الجرجاني ، وأما النقاد المحدثون فقد ذهب الدكتور شوقي ضيف إلى قبول تلك الاستعارة بل وبلغ حد الأعجاب ، وأنكر على الآمدي قوله لأن الآمدي لم يعجب بالاستعارة لأنها (الاستعارة المكنية التي يرى فيها خروجا على عمود الشعر العربي)[3] .

ويشاركه في قبول الاستعارة أيضا من النقاد المحدثين الدكتور مصطفى ناصف[4] .

وهكذا نجد تفاوت النظر بين النقاد والقدماء منهم والمحدثين وكل منهم

---

(١) الصناعتين ص ٤٤ .
(٢) الوساطة ص ٤٣٢ .
(٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٢٣٧ .
(٤) نظرية المعنى في النقد العربي د. مصطفى ناصف ص ١٠٩ .

ينظر إليه من زاوية فالقدماء يتمسكون بعمود الشعر ، و المحدثون يتحللون منه بعض التحلل و يلاحظون تحضر الشعر و الشعراء تخالف الأذواق ، و الذى أراه أن استعارات أبى تمام هنا ، و أمثالها لا شك أن فيها غرابة و بعداً عن المألوف و إذا كنا لا نوافق الآمدى فى عرضه و تعنيفه فإننا لا نصل الوقت ذاته إلى درجة الإعجاب بها .

المبالغة و الإفراط :-

و الحق أن الأدب العربى فى مجمله كان يميل إلى الاعتدال و ينفر من المغالاة و المبالغة المفرطة ، و كان لذلك ما يبرره فى حينه و قد حافظ جماعة النقاد القدامى على هذا الأصل أيضا مع عصور أدبية قد تختلف طبائع الأشياء و الحكم عليها فيها تبعا للتفاوت الواضح فى العديد من مناحى الحياة .

و من هنا عابوا على الشعراء المحدثين مجئ استعاراتهم على نحو من الإفراط و المغالاة .

و الآمدى لا يختلف عن هؤلاء ، فقد عاب كثيرا من استعارات أبى تمام فى مثل قوله :-

تَحَمَّلْتَ مَا لَوْ حَمَّلَ الدَّهْرَ شَطْرَهُ لَفَكَّرَ هَلْ أَى بِعَيْشَيْهِ أَثْقَلُ (١)

و قد ذكر الآمدى فى تعقيبه قوله : (فجعل للدهر عقلا ، و جعله مفكرا فى أى العيشين أثقل و ما شئ هو أبعد من الصواب من هذه الاستعارة ، و كان الأشبه و الألوق بهذا المعنى لما قال ، تحملت ما لو حمل الدهر شطره ، أن يقول : لتضعضع أو لا نهد ، أو لأمن الناس صوفه و توازله و نحو هذا المعنى مما يعتمده أهل المعانى فى المبالغة و الإغراق (٢) .

و هذا يعنى أن الآمدى لا يؤثر المغالاة التى قد تفقد الشاعر صوابه

---

(١) الموازنة جـ ١ ص ٢٧١ .
(٢) السابق جـ ١ ص ٢٧٢ .

(و قد كان قوم من الرواة يقولون أجود الشعر : أكذبه [1] ولا واللـــــه ما أجوده إلا أصدقه .

(و هذا هو الذي يأخذ بمجامع القلب و يستولي على النفس و من حذق الشاعر أن يصور لك الأشياء بصورها و يعبر عنها بألفاظها المستعملة فيها و اللائقة بها) [2] .

على أن توجيه الآمدي العيب في مثل تلك الاستعارات لم يمنع أحد النقاد المعاصرين مع اتفاقه معه في الحكم : (و نحن و إن كنا لا ننكر ما في أمثال هـــذه الاستعارات من تكلف و إسراف ، إلا أننا لا نرى العيب في تشخيصه المعنويات .

و أرى أن الوصف بالبعد كاف دون أن نسرف في الاتهام إذ ربما كـــان وراء البعد معنى أو معانٍ تدخل في مقصد الشاعر و إن تعسر إدراكها إلا بعد حين .

و قد كان من آثار ما جاءت عليه استعارات أبي تمام من بُعد أن شـــاب الكثير منها الغموض و الخفاء مما أوقع في لبس قبل معانيها و كيفية تأديتها .

الغموض و الخفـــاء :—

و قضية الخفاء و الوضوح ما تزال مسار جدل لم ينتج شيئا مرضيا حتى اليوم ، و فيما أعتقد أنه مما يزيد في صعوبة هذه المشكلة عدم الاهتداء على نحو قاطـــع إلى الحد الفاصل بين الغموض و العمق و التعقيد من ناحية ، و الوضوح و السطحيـــة من ناحية أخرى .

فماذا تسأل لنا عن حقيقة الغموض بم يكون ؟ و ما المعايير التي يحتكـــم إليها في تقديره ؟ ثم ما المقصود بالوضوح و ما الذي يقبل عليه في مجـــال الأدب ؟ و هل له من أسس حاكمه ؟ أقول : إنا تسأل عن شئ من ذلـــك و نحوه تعددت الآراء و اختلفت التوجيهات بما يضيع معه وجه الحقيقة فمثل تلـــك القضايا تعد من قبيل الأمور النسبية يختلف الحكم فيها تبعا لاختلاف الأشخـــاص و ثقافتهم و عصورهم و منازعهم الفكرية و الأدبية و يبقى القول الفصل للـــذوق

---

(١) الموازنـــة جـ ٢ ص ٥٨ .
(٢) السابـــق جـ ٢ ص ١٩٩ .

تسليم المستند بأصول الأدب و مناهجه و أما موقف الآمدي فيتضح من خلال اتجاهاته السابقة على أن موقفه من قول أبي تمام :-

جَارَى إِلَيْهِ الْيُمْنُ وَصْلَ خَرِيدَةٍ مَا شَتَّ إِلَيْهِ الظُّلْمُ حَتَّى الْأَهْتَدِ

يزيد الأمر وضوحا ، قال الآمدي بعد تحليله لعناصر هذا الشاهد :-

" يا معشر الشعراء و البلغاء ، و يا أهل اللغة العربية ، خبرونا كيف يجاري اليمن وصلها ؟ و كيف تماشي هي مطلبها ؟ ألتسمعون؟ ألا تضحكون ؟ [1] .

و لا ريب أن هذه الاستعارة على جانب كبير من الغرابة و البعد عن المألوف و فيها خفاء و لكن لا ينبغي أن نغفل أننا أمام شاعر من نوع خاص فأبو تمام أكثر الشعراء المتأخرين ابتداعا للمعاني [2] بل هو رب المعاني [3] (و قد شهد بكل معنى مبتكر لم يعثر فيه على أثر ، و قد أراد المتنبي أن يسلك مسلكه فقصر عنه خطاه [4] .

و فحوى ما تقدم أن الصور الخيالية و المعاني الذهنية هي الأصل في جمال الأساليب في الأدب و الفنون و أن الفنان لا يطلب منه أن يكون سهلا لكل انسان و لذ يقيد بالمعاني و الخوالج التي يتساوى في التفطن لها و التأثر بها جميع الناس) [5] .

لكن لا يصل الأمر إلى حيث التعمية و الالغاز ، و مهما يكن من شئ فإن بعض المذاهب الحديثة ، و بخاصة التأثرة منها بالآداب الغربية قد سلكت في طريق الإغراب و الغموض سبلا ربما كانت أشد و عورة بكثير مما كان من أبي تمام مما دفع أحد الكاتبين إلى التعليق على بعض تلك النماذج بقوله: " و قديما عيب أبو تمام ، و تناوله النقاد بالتجريح و وصفوا شعره بالأغلاق و التكلف لشئ دون هذا بكثير و بسببه أنزله كثير منهم عن منزلة بين الشعراء

---

(١) الموازنة جـ ١ ص ٢٨٠ .
(٢) ابن المعتز و تراثه د. خفاجي ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .
(٣) الابانة عن سرقات المتنبي للصيدي ص ٦ .
(٤) المثل السائر ص ٣٠٣ .
(٥) مراجعات في الآداب و الفنون للعقاد ص ٩٦ .

المطبوعـــين [1] على أنّ الآمدى و إن أكثر من ذكر القبيح و العاب من استعـارات أبى تمام و إيراد الشيء حولها إلا أنه ليس يهمل تماما الحسن من استعارات أبى تمام وقد أذكر بعضا مـما استحسن له مثل قولـــه :-

وَمِنْ زَفْرَةٍ تَعْطِي الصَّبَابَةَ حَقَّهَا وَتُورِي زِنَادَ الشَّوقِ تَحْتَ الحَشَا الصَّلْدِ

فقد ذكر فى تعقيبه أن من زفرة تعطى الصبابة حقها معنى جيد حسن " [2] . بـــل إنـــه ربما يحاول التماس بعض وجوه القبول لبعض من استعارات أبى تمام التى عابها غيره . و ذلك نحو محاولته فى تخريج (لا تسقنى ماء الملام) [3] .

مع أن هذا المثال بالذات و توجيهه له لم يرض به معظم النقاد قديمـــا و حديثـــا .

و لعل فى كل ما سلف ما يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من أن الدراسات المتصلة بالمكنية عند الآمدى تعد من أوسع و أهم الدراسات التى عنيت بهـذا الأسلـــوب إذ أنه قد أطلعنا على الكثير من الأصول و القواعد التى يحتكم إليها فى فهـــم و تقدير هذا القبيل من الاستعارات مع عرضه لكثير من شواهدها . و عنايته الفائقة بالتخريج و التوجيه و الموازنة . و إن كنا قد لاحظنا بعضا من التحامل عنده علـــى كثير من استعارات أبى تمام . فهذا مرده فى الحقيقة إلى غلبة الذوق العربـــى المحافظ الذى شاع فى عصره و بعده أيضا كما سيظهر فى دراسة أخرى لها قيمتهـــا فى ميدان هذه الاستعارة على أسس نقدية . و نعنى بذلك ما قام به القاضى الجرجانى فى وساطتـــه .

---

(١) علم البيان د . بدوى طبانـة ص ٢٢٢ .
(٢) الموازنـــة جـ ٢ ص ٤٥ .
(٣) السابـق جـ ١ ص ٢٢٧ .

في وساطة الجرجاني

يعد القاضي الجرجاني ثاني نقاد عصره ، و ممن أخذوا بالمنهج العربي ، و طريقة العرب ، و أقام النقد على عمود الشعر ، و هو الميزان الذي انتهى إليه نقد الشعر في القرن الرابع .

و خلاصة المسائل التي تعرض لها علماء البيان في القرآن ، و في الشعر و الأدب بعامة و الشعر على وجه خاص .

و قبل أن نقف بشيء من التفصيل على اتجاه الجرجاني إزاء أساليب المكنية و كيفية معالجته لها نرى من المناسب ذكر بعض من الملاحظات العامة و التي كان لها أثرها على دراسته لهذا الباب ، و هي تتمثل فيما يأتي :—

أولا : نبه إلى أن لعامل البيئة و الزمان أثرهما على الشعر و الشعراء ، فيعكس ذلك على ألفاظهم و معانيهم و طرق تعبيرهم [1] ، و هذا دون شك ملحظ يحمد له ، و إن لم يركن إليه تماما ، حينما يعتمد ما جرت به العادة عند السابقين أحد الأسس التي يقوم عليها تخريج بعض ما عيب من استعارات المحدثين .

ثانيا : لم يرتض القضاء بالأحكام العامة ، فمديح أبي تمام و استعاراته محل تفاوت مع تقديره و اجلاله و عرفانه بفضله [2] .

ثالثا : يقرر مثل كثير من نقاد عصره : أن الاستعارة لم تقع في الشعر على قصد ما دام قد حصل له عندهم عمود الشعر [3] .

رابعا : عد الاستعارة أحد أعمدة الكلام ، و عليها المعول في التوسع و التصرف و بها يتوصل إلى تزيين اللفظ و تحسين النشر [4] .

---

(١) الوساطة بين المتنبي و خصومه للجرجاني ص ١٨ .
(٢) المرجع السابق ص ١٩ .
(٣) السابق ص ٣٤ .
(٤) السابق ص ٤٢٨ .

خامسا : وقعت له بعض العبارات التي يمكن عدها من قبيل الإشارات على طريق التمييز بين الكناية وغيرها من صور الاستعارة [1] .

سادسا : جعل الذوق المرجع الأصيل الذي يحتكم إليه في قبول الاستعارات أو ردها .

وبعد تلك الملاحظات نجد أن الجرجاني قد عرف الاستعارة بقوله : (وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالاسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها) ولا يعنينا التعريف في ذاته ، إذ لا يختلف كثيرا عما سبقه وإن كان أكثر تحديدا لكن المهم أن نبحث عن الأسس التي احتكم إليها في تقديره للاستعارات .

وأما المقياس الأول فيتحقق في قوله بعد تعريفه السابق " وملاكها قرب الشبه ومناسبة المستعار له للمستعار منه ، وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا توجد بينهما منافرة ، ولا يتبين في أحدهما أعراض عن الآخر [2] وهذا الشرط هو الفيصل في جمال الاستعارة أو قبحها ، وواضح التقاؤه مع الآمدي وعمود نقاد عصره فيه ، والذي يمكن اعتباره معيارا موضوعيا .

وثمة معيار آخر تقاس عليه الاستعارات حسنا أو قبحا ، ومرد ذلك إلى استجابة النفس أو نبوها (وربما تمكنت الحجج من إظهار بعضه واهتدت إلى الكشف عن صوابه أو غلطه) [3] فليس صحيحا إذا ما قال به د. مندور من أن الجرجاني لا يعرف لجودة الاستعارة أو قبحها غير قبول النفس لها أو نفورها عنها [4] ذلك أن القاضي وإن أعتد بالذوق الشخصي إلا أنه لم يقل بعدم محاولة التحليل والتماس التعليل ، وإنما يلجأ إلى ذلك عند فقد النص للمعيار الموضوعي الذي حدده أولا ، كما أنه لم يقصد بقوله والتعليل غير مستطاع إلى عجزه عن بيان

---

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني ص ٤٣٠، ٤٣١ .
(٢) الوساطة ص ٤١ .
(٣) المرجع السابق ص ٤٢٩ .
(٤) النقد المنهجي ص ٣٠٠ .

وجوه جمال الاستعارة أو قبحها ، بقدر قصده إلى ترتيب جانب ذوقي في فهم الاستعارة ، و هو ما لا يخلو منه كل فن كلامي ، أو غير كلامي ، كما أنه لا يمكن قياس الأدب قياسا موضوعيا يمكن فيه تعليل كل جانب من جوانبه ، ثم إن الجرجاني قد علل أحيانا و لم يترك للذوق وحده تذوق الاستعارة و فهمها و الحكم عليها ، بل وضع مقياسا وضعيا غير ذلك المقياس الذاتي .

و على كل فقد عولجت أساليب المكنية عنده في موضعين في وساطته فقد تحدث عنها أولا عند تناوله للبديع حيث ذكر طائفة من الاستعارات المستحسنة تعود كلها إلى صور المكنية على سبيل القطع أو الاحتمال ، و لا غرابة في ذلك ما دام بصدد الحديث عن البديع الذي أولع به المحدثون بما استتبع حديثه عن الاستعارات لكونها أحد عناصره البارزة و التي شاعت عندهم ، بينما وجدت على قلة في أشعار المتقدمين .

و قد ذكر هنا بعضا من شواهد المكنية الدائمة كقول زهير :—

و عُرِّي أفراس الصِّبا و رواحله

و قول لبيد :—

إذ أصبحت بيد الشمال زمامها (١) ، وغير ذلك مكتفيا بالسرد المجرد عن كل تعقيب سوى وصفه لتلك الاستعارات بالحسن و إصابة الصنعة و عذوبة اللفظ (٢) .

ثم ذكر بعضا مما عابه (٣) ، و إن لوحظ أن ما ذكره هنا إنما يعود جميعه إلى أبي تمام ما عدا شاهدا واحدا لأبي نواس .

فمما عابه قول أبي تمام :—

باشرت أسباب الغنى بمدائح ضربت بأبواب الملوك طُبُولا

و قوله أيضا :—

إلى ملك في أبكر المجد لم يزل على كبد المنثوف من نعله بَرْدُ

(١) الوساطة ص ٣٤ .
(٢) الوساطة ص ٣٩ .
(٣) السابق ص ٤٠ .

و كقول أبـــي نواس :-

يا عمرو أصحتْ بُهْمَةً كَبِـــدي ناصِعٌ بَهاضًا بِمُصْفَـرِ العنب

وقد علق على جملة المعاب بعبارة انشائية لا تحمل مضمونا نقديا محددا إذ قـال : " فاسدد مسامعك ، و استغش ثيابك ، و إياك و الاصغاء اليه ، و احذر الالتفات نحوه فانه مما يصدئ القلب ويُصمه ، و يطمس البصيرة ، و يكد القريحة "(١) .

و قد تحدث عن صور المكنية ثانيا في اثناء حديثه عن الافراط في الاستعارة من خلال دفاعه عن المتنبي ، و قد يكون هذا الموضع أكثر أهمية إذ تناول فيه بعضا من شواهـد المكنية على شئ من التحليل و التعليل و المقارنة ، و إن كان ذلك لم يـــرض كثيرا من النقاد بعده مما أوجده مجالا للنقاش ، و فوق ذلك كله فقد وقعت منـــه عبارات تعد من قبيل الإشارات القريبة إلى طريقة المكنية

نقد عرض الشاهدين منهما المتنبي بالافراط في الاستعارة وقبل أن يتحسس وجها للتعليل : قدم لذلك بقوله : " وقد كانت الشعراء تجري على نهج منهـــا قريب من الاقتصاد حتى استرسل فيه أبو تمام و مال إلى الرخصة فأخرجه إلـــى التعدي ، و تبعه أكثر المحدثين بعده ، فوقفوا عند مراتبهم من الإحســـان و الاساءة و التقصير و الإصابة " .

ثم قال : " و قد كان بعض من أصحابنا يجاريني أبياتا أبعد أبو الطيب فيهـا الاستعارة وخرج عن حد الاستعمال و العادة ، فكان مما عدد منها قوله :-

سَرَتْ فِي قُلُوبِ الطِّيبِ مَفْرِقُهـا وَحَسْرَةً فِي قُلُوبِ البِيضِ وَالْيَلَبِ

و قولـــه :-

تجمعت في فُؤادِهِ هِمَـــمُ مِلْءُ فُؤادِ الزَّمانِ إِحْداهَـا

فقال : جعل للطيب و البيض و اليلب قلوبا و للزمان فؤادا و هذه استعارة لم تجر على شبه قريب و لا بعيد ، و إنما يصح الاستعارة و تحسن على وجه من المناسبة و طرف من الشبه و المقاربة .

---

(١) الوساطـــة ص ٤١ .

و هنا يبدأ الجرجانى فى محاولة التماس العذر للمتنبى بالقياس على النظائر فيقول : " فقلت لـه هذا ابن أحمر يقول :—

وَلِبِسْتُ عَلَيْهِ كُلَّ مُعْصَفَـــةٍ هَوْجَاءَ لَيْسَ لِلُبِّهَا نَـــــرُ

فما الفصل بين من جعل للريح لُبـــا و من جعل للطيب و البيض قلبا "

و هذا أبو ربيلـــة يقـــول :—

هُمُ سَاعِدُ الدَّهْرِ الَّذِى يُتَّقَى بِهِ وَمَا خَيْرُ كَفٍّ لَا تَنُوءُ بِسَاعِدِ

و هذا الكميت يقـــول :—

و لما رأينَ الدهر وَعْرًا سبيلُهُ و أبدى لنا ظهرا أجبّ مسنّمـا
و معزفة حصاء غير مفاضـــة عليه و لو تأذا عثانين أجْدَعـا
و جبهة قرد كالقُواك ضئيلـــة و صدّر خديه وأنفا مُجَدَّعـــا

فهؤلاء قد جعلوا الدهر شخصا متكامل الأعضاء تام الجوارح فكيف أنكرت علـــى أبى الطيب أن جعل له فؤادا " (١) .

و يحسننا من هذه الفقرة ما فيها من إشارات للطريقة التى تقوم عليها الكنيـــة و المبوة لها عن التصريحية على حدود المتأخرين "

و قد يسط القاضى وجه هذه الاستعارة بقوله : " و ذلك أن الريح لما خرجـت بعصوفها من الاستقامة و زالت عن الترتيب شبهت بالأهوج الذى لا مسكة فـــى عقله و لا زبر للبه و لما كان مدار الأهوج على التباس العقل حسن من هذا الوجـــه أن يجعل للريح عقلا " (٢) .

و هذه إشارة قريبة إلى ما ذكره البلاغيون من أن اللازم المذكور فى الاستعـارة المكنية هو ما يكون به قوام وجه الشبه أو كماله كتطق الحال و أظفار المنية " (٣)

---

(١) الوساطـــة ص ٤٢٩ "
(٢) السابـــق ص ٤٣٠ "
(٣) السابـــق ص ٤٣٠ "

و لئن كان تخريجه الاستعارة اللبيب الريح سائغا مقبولا إلا أن في توجيهه لبعض الاستعارات الأخرى شيئا من التعسف الذي لا تدعو إليه ضرورة بالاضافة إلى فقده بعضا من جمال الصورة و يظهر ذلك في تخريج استعارة الساعد للدهر إذ يقول : فأما الدهر فانما يذكره أهله فإذا جعل للدهر ساعدا و عضدا و منكبا فقد أقام أهله مقام هذه الجوارح من الإنسان[1] .

يحسن هذا التوجيه إبعاد اعتبار الاستعارة أصلا ليصبح المثال محمولا على ما عرف بالإيجاز بالحذف . ثم يذكر قول أحيحة القيسي المشهور : " فقلت له لما تَطَلَّى بِسُلِّهِ واصفا إياه بأن ألفاظه مقبولة غير مستكرهة و قريبة المشاكلة ظاهرة المشابهة . و مع أن استعارات المحدثين لم تأت على هذا النحو من القرب في المشابهة . إلا أنه يلتمس لهم بعض وجوه العذر التي تقربهم إلى الإصابة يقول : " فإذا قال أبو الطيب . مسرة في قلوب الطيب مفرقها . فانما يريد أن مباشرة مفرقها شرف . و مجاورته زين و مفخرة . و أن التحاسد يقع فيه و الحسرة تقع عليه . فلو كان الطيب ذا قلب كما لو كانت البيض ذوات قلوب لأسفت ؟ و اذا جعل للزمان فؤادا ملائمه هذه البهمة فإنما أورده على مقابلة اللفظ باللفظ . فلما افتتح البيت بقوله : تجمّعت في فؤاده همَمه . ثم أراد أن يقول أن أحداها تشغل الزمان و أهله و لا يتسع لأكثر منها ترخص بأن جعل له فؤاد و أعانه على ذلك أن البهمة لا تحل الا للفؤاد و سهله في استعارة الأوصاف و إذا قال أبو تمام : " يا دهرُ قَوِّمْ من أخْدَعَيْكَ " فإنما يريد اعدل و لا تجر . و انصف و لا تحف . لكنه لما رآهم قد استجازوا أن ينسبوا إليه الجور و الميل . و الاغراق انما وقع بانحراف الأخدع و ازورار المنكب استحسن أن يجعل له أخدعا و أن يأمر بتقويمه "[2] .

و تبع القاضي الجرجاني كلامه بما يشبه الحكم العام إذ يقول : " و هذه أمور متى حملت على التحقيق و غلب فيها محض التقويم . أخرجت عن طريقة الشعر . و متى أتبع فيها الرخص و أجريت على المسامحة . أدت إلى فساد اللغة و اختلاط الكلام و إنما القصد فيها التوسط و الاجتزاء بما قرب و عرف . و الاقتصار على ما شهر و وضح "[3] .

---

(١) الوساطة ص ٤٣٠ / ٤٣١ . (٢) الوساطة ص ٤٣٢ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٣٣ .

و مع ذلك الجهد الواضح الذى بذله القاضى فى محاولته تخريج ما فسى (بيت المتنبى من بعد فى الاستعارة و إغراق إلا أن توجيهه هذا قد قوبل من بعض النقاد بعدد بشئ من المناقشة و الاعتراض • كما فعل ابن سنان على ما سوجسز مفصلا فى موضعه و أيضا فأن الدكتور مندور قد حمل بشدة على استعارات المتنبى منتهيا إياها بالسخف و الإحالة و الاغراب و مناقضا الجرجانى فى حمله إياهسا على بعض الاستعارات الاخرى و قياسها عليها مع وجود التمايز بينهما •

يقول صاحب النقد المنهجى : " و موضع الضعف عند الجرجانى فى هسذه الحجة هو منهجه الذى يعتمد على المنطق و القياس • و هو يفعل ذلك بالرغسم من أنه قد عثر على القياس الصحيح عندما قال : ان السبب هنا هو قبول النفس و نفورها • و النفس لا تقبل و لا تنفر جريا وراء قياس • و الأمثلة التى أورد هسا لا يمكن أن يقاس بعضها على بعض • فوصف الكميت للزمن بأنه يقلب ظهره على بطنسه كالسمك • ليس للاستعارة فيه قيمة ذاتية و إنما يأتيه الجمال و القوة و الإيحساء من الصورة المشتركة التى يعبر عنها "(١)

و أيا ما كان الأمر فإن صور المكنية قد أكتسبت على يدى الآمدى و القاضسى أهمية خاصة نبعت من طبيعة مؤلفيها حيث جاءت على نحو مستوعب لكثير من الجوانسب و إن برز خلال ذلك بعض من المشكلات التى تتصل بصور المكنية بما كان لهسا أثرها على توجيه دراستها عندهما •

و مسن ذلسك :-

أولا : دراستها من خلال فنون البديع و الذى كان مصدر تحفظ و حذر • مسا جعلها ينظران اليها على أنها فن مستحدث يفتقد جانبا من جوانسب الأصالة العربيسة •

ثانيسا : افتقاد الكثير من نماذجها البحث الموضوعى الكاشف عما بهسا من أسرار • و الاكتفاء أحيانا بمجرد حشد الشواهد فى غير تعقيب أو فى صورة أحكسام عامسة •

---

(١) النقد المنهجى ص ٣٠٠ •

ثالثـا : الاحتكام فيها إلى الذوق العربي القديم و أخذ النماذج الجديـــدة منها على ضوء منـــــه .

رابعـا : عدم وضوح الفوارق المميزة لها عن غيرها من صور الاستعارة الأخـــرى، على نحو قاطع ، و لو كان ذلك لأمكن أن تُـدرس وفق قواعد خاصـــة بها و إن لم يمنع ذلك مـــن وقوع بعض الإشارات المميزة و القريـــــة من مفهوم المكنية عند المتأخرين .

و مع كل ذلك فستبقى بحوث الآمدي و القاضي الجرجاني من أهم ما كتـــب فيما تعلق بالحديث عن صور المكنية قبل عبد القاهـــر .

مع أبي هـــلال ـ ٣٩٥ [1] :ـ

الحق أننا لم نجد عند أبي هلال شيئا يتصل بالكناية في الفصل المتـــد الذي عقده للاستعارة حيث لم نقع منه على إشارة إلى طريقتها ، فقد نقل عـــن الرماني تعريفه للاستعارة المعترض عليه بكونه لا يشمل التخييلية كما نقل كثيرا مـــن الشواهد عن الرماني مقتفيا أثره أيضا في التخريج بما يوافق طريقة التصريحية[2] .

ويبدو أن العسكري قد غفل عن إدراك طبيعة التصوير و الخيال في هـــذا الضرب فقد رأيناه يذكر صورا عديدة منه في الفصل الخاص بالتنبيه على الأخطـــاء في المعاني .

يقول أبو هلال تعليقا على قول امرئ القيـــس :ـ

الم تَسْأَلِ الرَّبْعَ الْقِوَاءَ فَيَنْطِقَ ... وَهَلْ تُخْبِرَنْكَ الْيَوْمَ بَيْدَاءُ سَمْلَقُ

وَهَلْ عَائِدٌ لِي هَايِفٌ مُمْنَهَّدٌ ... كَأَنِّي أُنَادِي إِذْ دُعِيَّ أَخْرَسَا

من هذا التشبيه فاسد لأجل أنه لا يقال كلمت حجرا فلم يجب فكأنه كان حجرا ، والجيد في ذلك قول كثير :ـ

عَقَلْتُ لَهَا يَا عَزَّ كُلُّ مُصِيبَةٍ ... إِذَا وُطِّنَتْ يَوْمًا لَهَا النَّفْسُ ذَلَّتِ

كَأَنِّي أُنَادِي صَخْرَةً حِينَ أَعْرَضَتْ ... مِنَ الصُّمِّ لَوْ تَمْشِي بِهَا الْعُصْمُ زَلَّتِ

شبه المرأة عند السكوت بالصخرة .[3] .

و هذا كما قلنا إغفال لهذه الحقيقة النفسية في موقف الشاعر ، فالاطـــلال و الزمن ليست في وجداننـــا بيتة راكدة ، و إنما هي مواخض أحياء ، لأن الشاعـــر حين يقبل عليها بحنينه و جيشاته ، يذهل عن حقيقتها و يراها بعينه الملتاعـــة تروى أخبار الصحابة ، أو توسوس بها ، فلما سألها و سكتت ، كان هذا السكـــوت أمرا غير متوقع ، و كأنها صارت خرساء تجيش و لا تنطق ، و قد أفصح الشعر عن هـــذه الحقيقة فيما لا يحصى [4] .

---

(١) تاريخ علوم البلاغة ص٩٢ . (٢) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص
(٣) الصناعتين لأبي هلال العسكري ص٧٧ وصحة البيت في الديوان هكذا :ـ
ألما على الربع القديم بعسعسا ... كأني أنادي أو أكلم أخرسا
(٤) ينظر التصوير البياني د . أبو موسى ص ٢٧٣ و كتاب امرئ القيس أمـــير الشعراء الجاهلية د . طاهر مكي ص ٢٥٧ .

كما عاب أبو هلال قول أبي تمام :-

رقيق حواشي الحلم .. .. البيت

و عده من أغلاط الشاعر و تناوله بنحو ما سبق به الآمدي (١) .

و من المحقق أن أبا تمام في جوانب كثيرة من مثل هذه الصور الغزلية يحاول أن يجدد و أن يلائم بين العصر و أفكار الشعر ، و قد حاول أن يبتكر في الصورة فأغرب في كثير منها ، و الحضارة العباسية و الرقي العقلي الذي أصاب الشاعر العباسي ، كان جديرا بأن يستوعب هذه الصور الغزلية ، تجد ذلك عند مسلم و ابن الرومي ، و لكن لم يغربا أغراب أبي تمام و لم يتعمقا تعمقه (٢) .

في العمدة لابن رشيق - ٥٦ (٣)

و أول ما نلحظه على دراسة ابن رشيق ، غلبة الاتجاه الأدبي ، و قد يكون من مبررات هذا المنهج أنه وجد في فترة متأخرة نسبيا فوقع عليه حسب الجمع مع التخريج و التبويب ، لكن هذا لا يمنع أن نقف منه على اتجاه معين ، و موقف متميز ، و لو في بعض جوانبه فيما يتصل بالمكنية .

وقبل أن نشرع في تفصيل ذلك نورد مسألة أو مشكلة أثيرت حول درس ابن رشيق لموضوع الاستعارة عامة . إذ أن للمكنية فيها نصيبا ، فقد عد ابن رشيق الاستعارة من حلى الشعر " وليس في حلى الشعر أحسن منها ، كما هي عنده من البديع ، بل أول أبوابه " .

" و الاستعارة إنما هي من اتساعهم في الكلام و اقتدارهم ، ليس ضرورة ، لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم ، و ليس ذلك في لغة أحد من الأمم غيرهم فانما استعارو مجازا و اتساعا " (٤) .

---

(١) الصناعتين ص ٨٦ .
(٢) الخصومات البلاغية و النقدية في صدمة أبي تمام د . عبد الفتاح لاشين ص١٤٧ .
(٣) تاريخ علوم البلاغة ص ٩٥ .
(٤) العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، لابن رشيق القيرواني جـ ١ ص ٢٧٤ .

و قد خطأ د . طبانة ابن رشيق لأمر لا نعتقد أن ابن رشيق يقصده فيقول : " فقد رأيناه يعد ها من الحلى ، و هنتان ما بين اعتبارها عنصرا من عناصر الجمال الطبيعى و اعتبارها مظهرا و زينة لشئ قد يكون فى ذاته جميلا ، و قد يكون غير جميل ، و ابن رشيق : لا يرى الاستعارة ضرورة فى الكلام ..... و قد أخطأ ابن رشيق فى هذا القول "(١) .

و لا خلاف فى أن الاستعارة تعد جوهرا أصيلا فى الشعر ، و هى الخاصية النوعية للأدب و لا خلاف كذلك فى أن درس الاستعارة فى إطار البديع و إطلاق ألفاظ كالحلى و المحسنات و اللطائف و نحو ذلك قد يوقع فى لبس عند النظرة الأولى ، لكن الأمر الذى لا ينبغى الخلاف فيه أيضا أن لفظ البديع قديما كان يعنى غير ما يعنيه مصطلح البديع حديثا ، فقد كانت هذه الألفاظ تعنى أيضا معنى الجدة و الاختراع و الابتكار و كلها معان تتفق و الغايات الأصيلة للأدب ، فلم الاصرار إذا على اتهام ابن رشيق مع أنه لم ينفرد بهذا الأمر إذ هو مسبوق بمثله من القاضى الجرجانى (٢) ، و من قبلهما ابن المعتز (٣) .

و فوق ذلك ينبغى أخذ رأى ابن رشيق على ضوء موقفه العام و مراعاة سياق حديثه و الملابسات المختلفة التى قد تعين على الوصول إلى رأى قريب من الصواب ، فابن رشيق و إن عد الاستعارة من تهيل الحلى و البديع إلا أنه قد عدها مجازا بل هى عنده أفضل أنواعه ، و المجاز كما ذكر من مفاخر العرب فلو ساغ بعد ذلك أخذ عبارته على المعنى المناقض فهم لا نسحب هذا الحكم على التشبيه أيضا إذ عده هو الآخر لونا مجازيا "(٤) .

و بعد ذلك نجد أن ابن رشيق قد قسم الاستعارة إلى لونين :-

يقوم الأول على أن يستعار للشئ ما ليس منه و لا إليه و يستشهد لذلك بقول لبيد :-

---

(١) دراسات فى نقد الأدب العربى د . بدوى طبانة جـ ١ ص ١٧١ .
(٢) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ٣٤ .
(٣) البديع لابن المعتز ص ٦١٣ .
(٤) العمدة جـ ١ ص ٢٦٨ .

وَغَدَاةِ رِيحٍ قَدْ وَزَعْتُ وَقَرَّةٍ إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا

و قد علق بقوله : " فاستعار للريح الشمال يدا ، و للغداة زماما ، و جعل زمام الغداة بيد الشمال إذ كانت الغالبة عليها ، و ليست اليد من الشمال و لا الزمام من الغداة " (١) .

و أما القسم الثاني : فما أخرج مخرج التشبيه كما قال ذو الرمة :-

أَقَامَتْ بِهِ حَتَّى ذَوَى الْعُودُ وَالتَّوَى وَسَاقَ الثُّرَيَّا فِي مُلَاءٍ الْفَجْرُ

فاستعار للفجر ملاءة و أخرج لفظه مخرج التشبيه " (٢) .

ثم يورد اختلاف من قبله فالبعض يفضل ما كان من قبيل قول لبيد على حسن يؤثر آخرون ما في قول ذي الرمة ، أما هو فيميل إلى ما كان على مثال استعارة ذي الرمة و المخرجة على التشبيه مخطئا من يرى خلاف ذلك لأن جل العلماء على تفضيل الاستعارات القريبة ، " و به أتت النصوص عنهم ، و اذا استعير للشيء ما يقرب منه و يليق به كان أولى مما ليس منه في شيء و لو كان البعيد أحسن استعارة من القريب لما استهجنوا قول أبي نواس :-

بُحَّ صَوْتُ الْمَالِ مِنْكَ بِشَكْوَى وَيَصِيحُ

فأي شيء أبعد استعارة من صوت المال ؟ فكيف حتى بح من الشكوى و الصياح ، مع ما أن له صوتا حين يوزن أو يوضع ؟ و لم يرد ، أبو نواس فيما أقدر لأن معناه لا يتركب على لفظه إلا بعيدا و كذا قول الشاعر :- [illegible] :

وَجَرَّتْ رِقَابَ الْوَصْلِ أَسْيَافُ هَجْرِهَا
وَقَدَّتْ لِرِجْلِ الْبَيْنِ نَعْلَيْنِ مِنْ خَدِّي

فما أهجن ، رجل البين ، و أقبح استعارتها ؟ و لو كانت الفصاحة بأسرها فيها و كذلك رقاب الوصل " (٣) .

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٢٦٩ .
(٢) الموضح السابق نفسه .
(٣) السابق ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

نعم ان الذوق العربي العام يقر ابن رشيق على إيثار القرب و عدم الاغراق مع أن البعض قد خرج إلى حيث الميل إلى جانب البعيد و الدفاع عنه مما نجد لـــه صورة عند الصولي كما سبق • و آخرين ممن يرون أن خير الاستعارة ما يحمد و علـــم من أول وهلة أنه استعارة (١) •

كما نسلم لابن رشيق الاتجاه الذي يراه أولى بالاتباع إذ ما زالت تلـــك المسألة تمثل اشكالية نقدية عجز النقد الحديث عن أن يجد لها حلا مرضيا • و سيظل كذلك ما دامت الاذواق مختلفة • لكن الذي نسأل عنه • و نناقش فيه هو تحـــكم هذا المقياس إلى حد بدا و كأن ابن رشيق يخضع النصوص عليه إخضاعا دون مراعـــاة حقيقة للفوارق المعنوية بينها • فاعتبار استعارة لبعيد من قبيل البعيد يعد أمـــرا جديدا غريبا • فما أكثر الدراسات التي تعاقبت على هذا الشاهد بحيث لا يكـــاد يخلو مؤلف من ذكره • و هو معدود عندهم من قبيل المستحسن إما صراحة وإما ضمنا •

و أما عن مقياس بناء الاستعارة على التشبيه فلا نطمئن في سلامته من حيـــث هو و ان كنا نتنازع في عدم قبول بيت لبيد لتصور التشبيه فيه و لو على نحو ما • ثـــم إن المقارنة بين هذه الاستعارة و استعارة أبي نواس و بشار غير سليمة إذ مـــرد القبح في استعارة أبي نواس إنما هو قبح الصورة المعبر بها مع عمق المعنى المـــراد و كذا استعارة رجل اليمين • لكن الاستعارة في رقاب الوصل مما قد نجد سبيـــلا إلى فهمها على وجه يبعدها عن القبح لما فيها من دلالة عميقة على المعنى الـــذي أراده الشاعر مع طرافة التصوير و خروج الصورة عن المعتاد • و أما استعارة البعـــد للمثال فلا نرى وجها لقبحها أو بعدها معنى أو صورة أصلا و سيأتي من يقـــف على مثل تلك الاستعارات بالتحليل و الكشف و التمييز بما يثبت مجانبة ابن رشيـــق الصواب في تطبيق هذا الاصل في التمييز بين الاستعارات و إذ قد بدا تأثـــر ابن رشيق بالنهج العربي العام النافر من الإغراب و الاغراق فإننا نجده • و قد تخفف بعض الشيء من هذا حين يعرض لبعض صور المكنية في سياق رده على رأي ابن جني في أن الاستعارة لا تكون إلا للمبالغة حيث ذكر أن كلام ابن جني أيضا حســـن في موضعه لأن الشيء إذا أعطى وصف نفسه لم يسم استعارة فإذا أعطى وصـــف غيره سمي استعارة إلا أنه لا يجب للشاعر أن يبعد الاستعارة جدا حتى ينافره و لا أن

---

(١) دور العبارات و غير الاشارات في تحقيق معاني الاستعارات لأحمد بن محمد النحوي ت عبد الحليم شادي ص ١٨٠ •

يتوهمها كثيرا حتى يحقق ذلك فى خير الأمور أوسطها .

و ينبه إلى أصل مهم و هو أن للاستعارات قرائن و أحوال يتبعها الحكم بالحسن أو التقبيح ، فقد يعيب أدباء عصر استعارات استحسنت فى عصر آخر (١) .

و يورد ابن رشيق قول الشاعر :-

فقلتُ لها يا أمَّ بيضٍ إنني هُريقَ شبابي و استشنَّ أريضي

و يعقب عليه بقوله : هريق شبابي ، لما فى الشباب من الرونق و الطراوة التى هى كالماء (٢) .

و قول طفيل :-

فوضعتُ رِجْلي فوقَ ناجيةٍ يَقْعَاتُ شَحْمَ سَنامها الرَّحْلُ

و يعقب عليه بقوله : فجعل شحم سنامها قوتا للرحل ، و هذه استعارة كما تراها كأنها الحقيقة لتمكنها و قربها .

و هذا الكلام يمكن توجيهه على المكنية حيث قال فجعل شحم سنامها قوتا للرحل ، فهذا يفيد أن التجوز فى وصف الرحل بالاكتيات ، و ليس فى وصف الحال التى عليها بالاكتيات ، و على اجراء المتأخرين يشبه الرحل بمن الاكتيات صفته كالانسان مثلا مع حذفه و الرمز إليه بشئ من لوازمه على طريق المكنية .

و فى تعليقة أيضا على بيتى امرئ القيس فى قوله :-

و ليلٍ كموجِ البحرِ أرخى سُدُولَهُ ... ... البيتين

ما يتفق و مفهوم المكنية إذ يقول : " فاستعار لليل سدا و لا يرخيها و هى الستور وصلها بتمطى به و أعجازا يردفها و كلاكلا ينوء به " (٣) .

---

(١) العمدة جـ ١ ص ٢٧١ .
(٢) السابق جـ ١ ص ٢٧٤ .
(٣) السابق ص ٢٧٦ .

و هكذا يتضح مما تقدم حرص ابن رشيق على طريقة العرب في الاستعارات وإيثار عدم الاغراب فيها .

و هذا الحرص نشعر به عنده في كتاب له آخر و هو " الأنموذج " فعلى الرغم من أنه لم يصلنا منه سوى بعض إشارات متفرقة في المصادر الأدبية ، فإنه يفهم منه اتجاهه ، فقد أرخ فيه لفن الاستعارة و تتبعها منذ امرئ القيس و حتى المتنبي ، و كان منهجه فيها يميل إلى إيثار الاقتصاد و عدم الاغراق و المبالغة على العكس من ابن شرف القيرواني ." (١)

كما ظهر أيضا التزاوج بين الناحية الأدبية من الدراسة و الجانب التطبيقي مع بعض الأصول و الآراء التي انعكست آثارها على المكنية فكانت خطوة بها على طريق التحديد والتميز تلاها خطوة أخرى عند أديب ناقد معاصر له هو ابن سنان .

عند ابن سنان ت ٤٦٦ (٢)

لا ريب في أن دراسة ابن سنان لموضوع الاستعارة ذات قيمة كبيرة في ميدان الدرس النقدي و البلاغي و قد رأيناه أحيانا يحكم بعض المعايير التي انفرد بها مما يوقعه في شيء من التضارب و مخالفة الذوق .

و ثمة ملاحظة عامة و هي أن دراسة ابن سنان لموضوع الاستعارة تكاد أن تنصرف في مجملها إلى صور المكنية .

و لعل أول ما يلفتنا في ذلك تحليله المستفيض و العميق للاستعارة في قوله تعالى : " و اشتعل الرأس شيبا " فقد عقب بأن ما في الآية " استعارة لأن الاشتعال للنار و لم يوضع في أصل اللغة للشيب ، فلما نقل إليه بان المعنى لما اكتسبه من التشبيه ، لأن الشيب لما كان يأخذ في الرأس و يسمى فيه شيئا فشيئا حين يجعله إلى غير لونه الأول ، كان بمنزلة النار التي تشتعل في الخشب و تسري حتى تحيله الى غير حاله المتقدمة ." (٣) .

---

(١) تاريخ النقد العربي د . زغلول سلام ص ٥٤ .
(٢) تاريخ علوم البلاغة ص ٩٨ .
(٣) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ١٠٨ .

و عباراته هذه تجعل تلك الاستعارة منطوية تحت الكنية فالاشتعال ليس على الحقيقة للشيب ، و إنما هو من خواص النار ، و على هذا يكون الشيب قد شبه بالنار ، المستعار فيه للشيب : المستعار له ، ثم حذف المشبه به و رمز إليه بشيء من لوازمه ، و قد زاد ابن سنان الأمر وضوحا في اثناء تطبيقه لأركان الاستعارة على الآية الكريمة إذ قال : " لابد للاستعارة من حقيقة ، هي أصلها ، و هي مستعار ، و مستعار منه ، و مستعار له ، فالمستعار لفظ الاشتعال فيما مثلنا به ، و النار مستعار منه ، و الشيب مستعار له "(١) .

لكنه يضيف إلى ذلك حينما يقرر بلاغة تلك الاستعارة على حقيقتها قوله : " و استعمل الرأس شيبا " أبلغ من كثر شيب الرأس و هو حقيقة هذا المعنى "(٢) .

و قد يكون ذلك من بين سنان و أشاله وراء اختلاف التوجيه عند المتأخرين حين اتجه بها البعض إلى الكنية في حين مال بها آخرون إلى الحمل على التصريحية و على كل فالتوجيهان سائغان بلاغة و يبقى التفضيل ثابعا لأبلغية التصوير التي قد تختلف فيها الأذواق و الأفهام .

و لا يعني هذا أن ابن سنان قد سلك هذا النهج مع الاستعارات القرآنية الأخرى ، فقد نقل عديدا منها عن الرماني(٣) بنص تحليله لها دون إضافة "(٤) .

بعض المقاييس التي احتكم اليها ابن سنان في تقدير الاستعارات :—

و قد جعل ابن سنان معيار جودة الاستعارة هو قربها : ذلك لأنه قسم الاستعارة إلى قسمين : " قريب مختار " و بعيد مطرح " فالقريب المختار ما كان بينه و بين ما استعير له تناسب قوي ، و شبه واضح ، و البعيد المطرح اما أن يكون لبعد ما استعير له في الأصل ، أو لأجل أنه استعارة مبنية على استعارة فتضعف لذلك ، و القسمان معا يشملهما وَصْفِي بالبعد "(٥) و لم يستقم معيار الخفاجي

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ١١٠ .
(٢) السابق ص ١٠٩ .
(٣) ينظر : النكت ص ٨٥ و ما بعدها .
(٤) السابق ص ١١٠ ، ١١١ .
(٥) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ١٣٦ .

في الحكم على الاستعارة في بيت لأنه لم يستجد قول امرئ القيس :-

نَقَلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ ... وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ

لأنه رأى فيه استعارة مبنية على استعارة .

وقد ناقض الآمدي حيث كان يرى أن الاستعارة في البيت في غاية الحسن لقربها و ملاءمتها ، و قد عابها كما يقول الآمدي من لم يعرف موضوعات المعاني و الاستعارات و المجازات "(١) .

و أما عند ابن سنان فليست هذه الاستعارة من الجيد فيها و لا رديئها بل هي من الوسط بينهما "(٢) .

و كذلك لم يستجد ابن سنان قول زهير :-

صحا القلب عن سلمى واقصر باطله ... و عرى أفراس الصبا و رواحله

و العلة ما ذكره في بيت امرئ القيس " و ذلك أن الاستعارة في بيت زهير مبنية على قولهم - ركب هواه و جرى في ميدانه - على نحو ما قاله أبو القاسم ، و تلك استعارة بغير شك ، و قد بني عليها ، و بيت طفيل أقرب و أحسن لغناء بنفسه "(٣) .

و هو مستأنس في تلك المسألة ، فإن حكمه على بيت امرئ القيس بما يبعد قبول الاستعارة فيه يتعارض و ما سبق أن صرح به من الاستعارة المبنية على أخرى من قبيل القبح و المردود ، و قد تنبه إلى ذلك ابن الأثير (٤) و آخذه عليه و أكد ذلك د. الخولي مبديا موافقته على ملاحظة ابن الأثير "(٥) .

---

(١) الموازنة جـ ١ ص ٢٥٠ .
(٢) سر الفصاحة ص ١١٢ .
(٣) السابق ص ١١٣ .
(٤) المثل السائر لضياء الدين بن الأثير ص ٢٣٠ ، ١٣١ .
(٥) صور من تطور البيان العربي ص ١٧٣ .

و يعقب استاذنا الدكتور جلال الذهبي على مسلك ابن سنان هذا فيقول: " و كنا ننتظر من الخفاجي — و هو الأديب الذي عانى صنعة الشعر — أن يحكم احساسه قبل أن يحكم قاعدته ، و لو أنه فعل ذلك لتغير حكمه قطعا ، و لكان في الوقت نفسه أدق حكما و أقرب إلى الصواب قولا "(١) .

و يبدو أن أساس التفرقة عند ابن سنان بين الاستعارة و التشبيه غير واضح تماما — الأمر الذي كان من آثاره ما نشعر به من خلط ظاهر حين قارن بين قول أبي نصر :—

حتى إذا بهر الأباطح و الرُّبا نظرتْ اليك بأعين النُّوّار

و قول أبي تمام :—

قرّتْ بقُرانَ عينُ الدين وانشرت بالأشتريين عيونُ الشرك فاصطلما

و في تلك المقارنة يحكم بحسن البيت الأول لوجود شبه بين النوار و العيون قرب الاستعارة من أصلها على العكس مما في استعارة أبي تمام فقد حكم بقبحها لفقدها شرط الشبه القريب "(٢) .

ويقول : " و مع تأمل هذين البيتين يفهم معنى الاستعارة لأن النوار و الشرك لا عيون لهما على الحقيقة و قد قبحت استعارة العيون لاحدهما و حسنت للآخر " و بيان العلة فيه أن النوار يشبه العيون ، و الدين و الشرك ليس فيهما ما يشبهها ، و لا يقاربها ، و هذه طريقة متى سلكت ظهر المحمود منها في هذا الباب من المذموم "(٣) .

و كان عليه أن ينتهي إلى ما وقع فيه مما هو كالتناقض ، لأن النوار ما دام يشبه العيون ، و الطرفان مذكوران فكيف يكون استعارة ؟ و مناطها عنده على تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة ، على جهة النقل كما نقل عن الرماني و نقده .

---

(١) الفخر الرازي و البلاغة العربية د . جلال الذهبي ص ٢١١ .
(٢) سر الفصاحة ص ١١٤ .
(٣) سر الفصاحة ص ١٤١ .

و بناء على هذا الفرق يمكن ان يناقش فى رده الاستعارة أبى تمام لفقدها الشبه بين الشرك و العنون لان الشبه و القرب فيه الذى اشترطه أكثر النقاد و مال إليه الذوق العربى إنما يكون بين طرفى الاستعارة ..... المستعار منه ... و المستعار له .... و ابن سنان ممن قال بذلك لكنه لم يحسن التطبيق فى تلك المقارنة ، و قد بدا ابن سنان فى دراساته لبعض أساليب المكنية و كأنه لا يقر بما عرف لدى المتأخرين بالترشيح حيث يوحى بأوصاف تلائم المستعار منه بما يكون من دواعى قوة الاستعارات و بلاغتها ، و أما هو فيوجه هذا النوع على أنه استعارة أخرى لذا يكون المثال الاستعارى المرشح من قبيل بناء الاستعارة على أخرى ، ففى قول الشريف الرضى :—

و الحب داء يضحل كأنما ترغو برواحله يغير لغام

يقول فى تلك الاستعارة " نقلت من قول زهير — أفراس الصبا و رواحله لكنه أبعد منه ، لأنه بنى عليه أمرا آخر غير قريب ، و هو قوله : (رواحل الصبا ترغو و لا لغام لها — و هذا المذهب الرديء فى الاستعارة على ما قدمنا) [1] .

و فى بيت أبى ذؤيب المعدود من شواهد المكنية و هو قوله :—

وَ إِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... ... البيت

علق عليه بقوله : " فليس من أحسن الاستعارات و لا أقبحها ، و لا أراه نظير ما اخترته من قول طفيل و ذى الرمة و ابن نباتة و الشريف الرضى ، و لا الأمثلة البعيدة التى ذكرتها ، بل هو وسط ، و إن كان إلى الاختيار أقرب لما جرت به العادة من قولهم : علقت به المنية ، و نشبت و ما أشبه ذلك ، و لأجل كثرة هذا حسن ، و لأنه مبنى على غيره لم أجعله من أبلغ الاستعارات على ما تقدمت ذكره " [2] .

و فى هذا الكلام تلمس شيئا من الاضطراب فى فهم الاستعارة إذ أنه كما يبدو وقع أسير الأصول التى قررها و قصد إلى إيقاع النصوص عليها حتى و لو أدى ذلك إلى مخالفة العرب و الحكم بما لم يرتضه لكنه لا يليق أن يأتى ببعض العبارات التى قد تشكل تعارضا أو تراجعا عنه .

---

(١) السابق ص ١١٤ .
(٢) السابق ص ١١٥ .

و يعرض لبعض مختارات أبي تمام المختارة و القبيحة موردا في ذلك بعض الشواهد التي سبق أن عابها صاحب الموازنة معقبا بقوله : فإن أخادع الدهر و الشتاء من أقبح الاستعارات و أبعدها مما استعيرت له ، و ليس يقبح ذلك خفاء الوجه الذي لأجله جعل للشتاء و للدهر أخادع إلا سوء التوفيق في بعض المواضع .

و هنا يظهر جانب التحامل على أبي تمام ، فمع أنه يحق له أن يحكم بالقبح أو الحسن على مقتضى ذوقه لكن أن يحمل إلى نفي الوجه الذي لأجله قال أبو تمام ما قاله فهذا لا يتفق و النظرة الموضوعية خاصة ، و إننا قد نستطيع أن نجد في أمثال تلك الاستعارات وجها يمكن أن تحمل عليه (١) .

و قد أفاض ابن سنان الحديث عن استعارة المتنبي و التي أثارت جدلا كثيرا و هي قوله :—

مسرة في قلوب الطيب خرقها ... وحسرة في قلوب البوم و الرخم

و نقل في ذلك كلام صاحب الوساطة ، و محاولته التماس وجه يمكن أن يحمل عليه (٢) ، مع بعض التحريف في عبارة القاضي مما قد يترتب عليه ليس في فهم المعنى .

و قد تناول دفاع الجرجاني بالتحليل و النقد الفصل موجها إياه على أحد احتمالين ، إما أن يكون القصد نفي الخطأ عن المتنبي ما دام غيره قد فعل مثله و حينئذ يكون الكلام في موضعه (٣) .

و أما إن كان المراد التماس العذر للمتنبي و أنه غير مبتدع و أنه وجد طريقا مسلوكا ، فإن ابن سنان لا يرتضي هذا التوجيه معللا بأن خطأ السابقين لا ينبغي أن يكون ذريعة تجيز خطأ اللاحقين (٤) .

---

(١) الفن و مذاهبه في الشعر العربي ص ٢٣٨ .
(٢) الوساطة للقاضي الجرجاني ص ٤٢٩ و ما بعدها .
(٣) سر الفصاحة ص ١٢٠ .
(٤) الموضع السابق .

و في هذه الصور يجد ناقدنا عدة نقدية مهمة لا أعتقد أن نقادا كثيرين و بخاصة في العصر الحديث — يقوون عليها • فابن سنان لا يوافق على ارتباط العمل الفني بصاحبه أو مراعاة العصر الذي قيل فيه • و إنما ينظر إلى الفن في ذاته • و على هذا فإذا كان المتنبي قد أخطأ في هذه المكنية مع وجود نظائر في موروث السابقين حكمنا على الكل بالخطأ دون تحيز (١) •

و قبل أن نناقشه في اعتراضه على دفاع الجرجاني نقول ان ذلك الأصل النقدي الذي يدعو الى انسلاخ الأديب و الأديب عن عصره أمر ليس من اليسور الاقرار له • اذ فيه عنت من الصادرة على الأذواق المتغيرة و المتطورة • فما يقبله عصر ليس بلازم أن يقبله على عهد آخر قد تتغير فيه ألوان الحياة و الثقافات و تختلف تبعا لذلك الأذواق • أما البحث في جمال العبارة أو العمل أو عدم جمالها فينبغي ألا يقتصر على النظر فيما عمل • أو قيل • أشريف هو أم خسيس • بل يجب أن ينظر أيضا في القائل أو الفاعل • و من قيل أو فعل له • و متى • و لمن • (٢) •

و أما مناقشته للجرجاني ففي حاجة إلى تعليق • ذلك أن القاضي حينما يلتمس وجها لما وقع فيه المتنبي قد لا يكون غايته فقط مجرد القياس على النظائر • فليس هذا من باب النقد • و انما يذل محاولته و دعا إلى فهم المعنى • و الترفق به • و التماس متى الاحتمالات الممكنة و التي قد تدخل تحت مقاصد الشاعر و هو من أجل ذلك يستخدم اسلوبا بعينه يؤثره • و لا ينبغي أن يفهم هذا على أنه دليل عجز من الشاعر بل قد يكون امارة اقتدار • و بخاصة مع أشال المتنبي لما عرف به من تمكن في الأدب و اللغة بالاضافة إلى الطموح و الرغبة في الابتداع و الخروج عن المألوف • ليس في ميدان الصورة وحدها • بل تخطى ذلك إلى ما ليس في الامكان اقراره عليه • دون أن يكون ذا اتصال مباشر بحديثنا الآن •

و قد وجد ابن سنان تفاوتا و اختلافا بين بيت المتنبي و الأبيات التي قاس عليها القاضي فان استعارة ابن أحمر في قوله :— و لِهَقٌ عليه كلّ مُنْسِفةٍ ... الى آخره

---

(١) سر الفصاحة ص ١٢٠ • ١٢١ ••
(٢) كتاب أرسطوطاليس في الشعر نقل أبي بشر حتى ابن يونس مع ترجمة د • شكري عياد ص ١٤٤ •

لها وجه من القبول لجريان العادة بها على العكس من استعارة المتنبي [1] وفي ذلك عود إلى ما وقع فيه من الاضطراب على الاستعارات التي ينبت على غيرها .

و أعتقد ان القاضي كان أعدل حينما انتهى للمحدثين بعض الوجوه ويظل رفض ابن سنان لهذا المبدأ دليلا على التحفظ الشديد الذي ما زال حتى القرن الخامس مسيطرا حتى إنه لا يكاد يعترف بما تعليه العصور من تطور . وعلى الأديب ألا يتخلف . بل عليه أن يواكب وله أن يقتحم بأبداعه الى آفاق قد لا تتسع لإدراكها عقول ماضية .

و تبلغ بنا الدهشة مداها حين يعترض على الجرجاني في حمله مراد المتنبي في قوله : " قلوب الطيب " على قوله : " لو كان الطيب ذا قلب " و يرى أن ذلك ليس بتقدير يسوغ استعارة المتنبي . إذ أن هناك فرقا . لأن أحدهما قد جعله واجبا و الآخر ممتنعا ليس فيه أكثر من الفرض الذي يعلم من فحوى اللفظ أنه لم يقع .

و لا يخفى ما في مثل تلك التفرقة من تهافت يكاد يصل إلى حد السذاجة . فأي وجوب يفهم من جعل القلوب للطيب . أهو وجوب الواقع المشاهد . أم وجوب التخييل . فان كان مراده الأول سلمنا قياده لنا . و تلزمه تهمة القول به . و إن كان الثاني . سقطت التفرقة أصلا . و سلم التماس القاضي و استشهاده على تلك التفرقة ببيت البحتري :—

فلو أنَّ مشتاقاً تكلف غير ما ... في طبعه لمشى إليه المنبرُ

و يجيبه لو كان قال — إن المنبر مشى إليك [2] . و لا فرق بين الاستعمالين في المآل فمشى المنبر ممتنع في كليهما . و إن دل على الامتناع بأداة ظاهرة في البيت . و اكتفى بدلالة العقل و الحمل على الاتساع في غيره . و من هنا لن تنتظر في نقد بيت المتنبي على أنه قد أوجب للمبرّح قلبا على الحقيقة . فذلك لا يقول بمثله إلا غير عاقل . و نحن نبرئ المتنبي في أن يقع في مثل ما اتهم به . دون أن يلزمنا ذلك التسليم العام بما قال به لكن ليس من الوجوه التي أوخذ بها .

---

(١) سر الفصاحة ص ١٢٠ .
(٢) السابق ص ١٢٢ باختصار .

و يستمر ابن سنان في المناقضة ، فيقر اصلا آخر ذا 1 همية لنكاره المترتبة على المكنية مفصلا يقياس المجاز .

و مع أنه غير منكر لهذا الأصل الا أن له رأيا واضحا و صريحا فيه ، فهو لا يقر بمبدأ جواز القياس على المجاز حتى إنه لا يحق للشاعر أو غيره الاتيان بالمجاز بالبناء على مجاز آخر ، نجد ذلك في سياق رده على القاضي في اعتذاره من جعل المتنبي للزمان فؤادا لأنه قابله بما في صدر البيت و هو قوله :—

تجمعت في فؤاده همم

قال ابن سنان في ذلك الرد على توجيهه الجرجاني معترضا " لأن مقابلة اللفظ باللفظ على ما أراده مجاز ، و المجاز لا يقاس عليه " (١) .

و قد يفهم من موقفه هذا جانب المحافظة أو كل التضييق على الأدباء ، و على كل فان ايضاحه لمقصوده ربما أعان على الوصول الى حقيقة مذهبه تجاه تلك المسألة اذ انه صرح بأنه ينبغي أن ينظر في استعمال مثل هذا على ما يكون له وجه معهودة و ليس يسوغ في كل موضع ، فهو بهذا لا يطلق الحكم بالحظر أو الاباحة ، و قد قاس ذلك على مسألة حذف المضاف و اقامة المضاف اليه مقامه فهو جائز مع مواضع دون مواضع بحسب ما يتفق مع فهم المقصود و زمان اللبس و الاشكال (٢) .

ثم يعقب على تبرير الجرجاني جعل المتنبي للزمان فؤادا ، و انما اعان على ذلك تسامح الشعراء في استعمال نحو تلك الأوصاف للدهر ، و لكن ابن سنان يرفض هذا لأن الخطأ لا يسوغ الخطأ ، و ان الحمل على السابق لا يفيد ، و هنا نتساءل : هل المقصود مجرد الحمل فقط ، أم ان المراد ان كثرة وصف الشعراء للدهر و توسعهم الى حد التواطؤ يمكن أن يؤدي الى شيء من القارئة المعينة على الفهم و استجابة النفس و انفعالها بعناصر الصورة .

و الظاهرة اللافتة في بعض الدراسات النقدية المتقدمة ما يمكن أن نصفه

---

(١) سر الفصاحة ص ١٢٢ .
(٢) السابق ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

بالتحكم ، ذلك اننا نلحظ ان ابن سنان غير الوقت الذى لا يقبل من الشاعر أن يأتى بصور قديمة لها فى مجال الأدب سوابق يعيب على الشاعر الاتيان بصور لم تكن لها نظائر و لم تجربها عادة .

و لا ينتفى بما مضى من مناقشات مسهبة حول تخريجات الجرجانى ، بل يعيب عليه أيضا اعتذاره عن استعارة أبى تمام للدهر اخدعا : يقول ابن سنان فى ذلك : « و قوله فيما بعد ان أبا تمام قال : يا دهر قوم من أخدعيك فقد ، فكأنما هم قد استجازوا ان ينسبوا اليه الجور و الميل وقالوا : قد أعرض عنا و أقبل على فلان ، و جفانا ، و الميل و الاعراض انما يكون بانحراف الاخادع ، و ازورار المنكب ، كلام لا يخفى عن أبى تمام شيئا لأنا قد ذكرنا ان الاستعارة اذا بنيت على استعارة قبحت و بعدت ، و الواجب أن تكون لها حقيقة ترجع اليها بلا واسطة ، و اذا كان الأمر على هذا ، و كان قولهم عن الدهر قد اعرض عنا و اقبل على فلان استعارة و مجازا بغير شك ، ثم يحسن أن تجريه مجرى الحقيقة ، و تبنى عليه أمرا بعيدا حتى تجعل للدهر اخدعا لاجل قولهم ، انه قد أعرض عنا و انحرف .

ويقال للقاضى أبى الحسن : هل تجوز لبعض المحدثين أن يبنى استعارة اخرى على الأخدع فى الدهر لان أبا تمام قد استعمل ذلك ، و بنى غيره على قول هذا المحدث استعارة أخرى بعيدة و يؤول الى ما لا نهاية له [1] .

و الملاحظ أن تمسك ابن سنان بمسألة البناء على المجاز الى هذا الحد و احتكامه إليه فى تقبيح الاستعارة فيه نوع تحكم ، ذلك أنه لا ينبغى أن ينظر إلى هذا الاساس على أنه حتما يفضى الى إلمدهبين الاستعارة و أصلها ، بل قد يكون من دواعى التقريب كذلك .

وقد أعقب ابن سنان مناقشاته لأبى الحسن بذكر طائفة غير قليلة من شواهد المكنية مع تحليله الكاشف عن وجوه الحسن أو القبح فيه محتكما إلى المقاييس التى ارتضاها .

---

(١) سر الفصاحة ص ١٢٣ .

فيما استحسنه قول السري الموصلي :—

عَلِيلَةُ أَنْفَاسِ الرِّيَاحِ كَأَنَّمَا ... يُحَلُّ بِمَاءِ الْوَرْدِ تَرْجِيعُهَا النَّدَى
يَشُقُّ جُيُوبَ الْوَرْدِ فِي هَجَرَاتِهِ ... نَسِيمٌ مَكِّيٌّ يَنْظُرُ إِلَى الْمَاءِ يَعْشُرُهُ

و قد ذكر هي إيضاحه للاستعارات قوله : " و استعمال العلة عنها كناية عن العنف و الخفوت و قلة الحركة على وجه التشبيه بالمريض "(١) و لا يخرج هذا عن الأصل الذي أقام عليه المتأخرون إجراءهم للمكنية . إذ يقولون في مثل ذلك :— شبهت الرياح باعتبار الحالة التي هي عليها بمريض و حذف المشبه به و رمز إليه بشيء من لوازمه :—

و أما ما استقبحه منها فكثير .... من نحو قول أبي تمام :—

و كم أحوزت منكم على قمح قدّه ... صروف النوى من هُزْ هَفٍ حسن القدّ

فان استعارة القد لصروف النوى من أبعد ما يقع في هذا الباب و أقبحه . و إنما يقود أبا تمام إلى هذا و أشاله رغبته في الصنعة حتى كأنه يعتقد أن الحسن في الشعر مقصور عليها . فيورد منه لأجل التكلف ما لا غاية لقبحه و يسعفه الخاطر في بعض المواضع . فيأتي بالعجائب و الغرائب "(٢) .

كما أورد أحدى استعارات أبي تمام المشهورة و التي كانت مسار تجاذب بين النقاد و ما زالت كذلك حتى الآن و هي قوله :لا تسقني ماء الملام ..... البيت و قد أورد كلام الصولي في تخريج تلك الاستعارة معترضا عليه بما هو قريب من موقف الآمدي متخذا من اعتذار أبي القاسم أساسا يمكن أخذ هذه الاستعارة عليه فقال و أما اعتذاره بأن العادة الجارية أن يقال : جرعته من القول كأسا مرا فلما استعمل في الملام التجرع على الاستعارة جعل له ماء على الاستعارة فللمعترض أن هذا أقرب ما يعتذر به لأبي تمام في هذا البيت . و أولى من جميع ما قد ذكر لنا

---

(١) سر الفصاحة ص ١٢٦ .
(٢) السابق ص ١٢٥ .

قدمناه من فساد التعليق بذلك ، لكننا قدمنا أن الاستعارة إذا بنيت على استعارة بعدت ، وإن اعتبر فيها القرب ، فماء الملام ليس بقريب وإن لم يعتبر فيها لم ينحصر وبنى على كل استعارة و استعارة . و أدى ذلك إلى الاستحالة و الفساد على ما قدمناه ، و ليس هذا البيت عندي بمحمود و لا من أقبح ما يكون في هذا الباب »(١) .

و يبدو ابن سنان في هذا البيت أكثر اتزانا و اعتدالا ، مع أن الاستعارة فيه لم تلق استجابة أو قبولا من عموم النقاد في القديم و الحديث مع أنه كان أقسى في الحكم و الاتهام مع استعارات أخرى قد تكون أقل بعدا و أقرب إلى التماس المعاذير و وجوه التخريج .

و من واقع ما سبق يصبح من اليسور القول إن الدراسة التي قام بها ابن سنان في سر الفصاحة متصلة بالأسلوب الذي اصطلح عليه فيما بعد بالمكنية تعد من أهم و أوسع الدراسات حولها إلى عصره ، لكنه لم يعمد إليها عرضا تاعديا اصطلاحيا و إنما تناولها عرضا أدبيا نقديا يبين اثر هذه الصناعة الأديب من واقع نماذج عديدة لها للمستقبح منها و المستحسن محتكما في التقدير إلى عديد من الأصول التي عنى بها ، و لا يضره أن اتفقنا معه في بعضها في حين ناقشناه في أغلبها ، فذلك لا يقلل من أثره الحقيقي على هذا الباب على طريق الدراسة الأدبية البلاغية النقدية التطبيقية .

---

(١) سر الفصاحة ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

الباب الثاني

المكتبة من عبد القاهر الى السكاكي

الفصل الاول :
تطور دراسات أساليب المكتبة على يد عبد القاهر واثره على العلماء بعده .

الفصل الثاني :
المكتبة على طريق التطبيق والتحديد الاصطلاحي .

الفصل الثالث :
الرجوع بصور المكتبة الى روح الدرس الادبي .

" الفصل الاول "

تطور دراسات أساليب المكنية على يد عبد القاهر ت ٤٧١ هـ وأثره على نشأة المذاهب حولها

وصلت أساليب المكنية إلى الامام عبد القاهر ومعها عديد من المشكلات التى ساحبت مراحل بحثها المختلفة على تفاوت الطوائف التى درست لديها فقد ظلت دون معالم واضحة مميزة ، إن لم تهمل أصلا .

فقد عولجت فى ظل مصطلحات شتى " ، فهى لون من التوسع أو مجاز أو مثل ، وهى لون من البديع أو الكناية عوغاية ما وصلت إليه أن أطلق عليها استعارات وأن قرنت بوصف البعيدة كثيرا .

وكان وراء كل تلك الاستعمالات مشكلة أو مشكلات بعضها يرد إلى طبيعة المرحلة وظروف البيئة المتناولة لها ، وأكثرها نتاج خصومات أدبية ونقدية .

ومن هنا تأتى الأهمية الكبرى لدراسة عبد القاهر ، إذ يحث تلك الأساليب على نهج جديد هجر فيه الأحكام العامة وسلك الأسلوب العلمى الباحث عن التفاصيل المدرك للفروق والفواصل مع الارتقاء بالذوق المفيد بما طرأ عليه من عوامل الرقى الفكرى والثقافى والاجتماعى .

وكل هذه الخصائص والسمات قد ظهرت آثارها على تناوله لمسائل البلاغة بعامة لكنها قد تجلت أكثر ما تكون فى موضوع الاستعارة بما يشهد بفضله على هذا الباب وأثره العميق على ما كتب فيه بعده .

والمهم أن عبد القاهر قد تناول أساليب التخييلية مميزا لها ومشيدا بها ومشيرا إلى طريقة المكنية كما عرض لعديد من المسائل البلاغية والنقدية المتصلة بها .

بلاغة الاستعارة :—

كثيرا ما يشيد عبد القاهر بفن الاستعارة مبينا شرفها وفضلها ومبرزا بلاغتها وخصائصها .

يقول الإمام عبد القاهر الجرجانى (وهى أمدُّ ميدانا وأشدُّ افتنانا وأكثر جريانا وأعجب حسنا وإحسانا ، وأوسع سعة ، وأبعد غورا وأذهب نجدا فى الصياغة وغورا من أن تجمع شعبها وشعوبها . تعم وأسحر سحرا وأملأ بكل ما يملأ الصدورا ويمتع عقلا ويؤنس نفسا ، ويوقر أنسا وأهدى إلى أن تهدى إليك عذارى قد تخير لها الجمال فوعى بها الكمال . ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبدا فى صورة مستجدة تزيد قدره نبلا وتوجب له بعد الفضل فضلا)

ثم يذكر أن من خصائص اللفظة المستعارة أنها تستخدم فى عدة مواضع ولها فى كل موضع فائدة أو فوائد فضلا عن كونها (تعطيك الكثير من المعانى باليسير من اللفظ) ولكن أى نوع من الاستعارات هو المراد بهذا التقدير والثناء ؟ ولا ريب فى أن أسلوب الاستعارة على اختلافها تحقق تلك المزايا أو أكثرها وإن كان عبد القاهر يضيف إلى ما سبق بما يكاد يختص بصور الكنية والتخييلية إذ يقول : (وإذا تأملت أقسام الصنعة التى بها يكون الكلام فى حد البلاغة ، ومعها يستحق وصف البراعة وجدتها تفتقر إلى أن تصيرها حلاها ، وتقصر عن أن تنازعها مداها ، وصادفتها نجوما هى بدورها ، وروضا هى زهرها وعرائسا لم تصرها حليها فهى عواطل وكواعب ما لم تحسنها فليس لها فى الحسن حظ كامل ، فإنك لترى بها الجماد حيا ناطقا والأعجم فصيحا ، والأجسام الخرس مبينة ، والمعانى الخفية بادية جلية إن شئت أرتك المعانى اللطيفة التى هى من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى تراها العيون . (١)

وفى الدلائل ينبه إلى فضل تلك الاستعارات وامتيازها عن الضرب الأول الذى يقصد به عنده التصريحية بقوله : (وليس هذا الضرب دون الضرب الأول فى إيجاب

---

(١) اسرار البلاغة ج ١ ص ١٣٦

وصف الفصاحة للكلام ... بل هو أقوى منه فى اقتضائها ، والمحاسن التى تظهر به ، والصور التى تحدث للمعانى بسببه آنق وأعجب [١] كما كانت هى مستمدة من الاستعارة التى أشاد بها مع التشبيه والتمثيل . [٢]

ذلك تقدير عبد القاهر للاستعارات بهذا الفن (وهو تقدير رجل يتذوق فنون البلاغة ، ويضع كل فن فى مكانه ويدرك قيمة الاستعارة فى رسم الإحساس وتصوير الخاطر . [٣])

ولا ينبغى أن يحمل حديث عبد القاهر هنا على أنه مجرد إطراء على طريقة علمائنا السابقين حين كانوا يقدمون أو يذيلون معظم موضوعات بحوثهم بأمثال تلك العبارات ترغيبا وتشويقا فإن الأمر بالنسبة للاستعارة وبالذات صور المكنية والتخييلية قد يختلف ذلك أن إشادة الجرجانى بتلك الصور إنما ترجع بالاضافة إلى القيمة الفنية لها إلى أنه قد وجد فيها معينا على نصرة كثير من أفكاره وآرائه التى بسطها بعد أن آمن بها وأراد التدليل على صدقها كما سيتضح .

جهود عبد القاهر على طريق التحديد والتقسيم والتمييز :

لم يكتف الجرجانى بمجرد التنويه وإبراز قيمة الاستعارة بل كان وراء ذلك جهود حقيقية تناولت حدودها وضروبها والتمييز بينها فارقا بين التحقيقية والتخييلية مشيرا إلى طريقة المكنية ، دون أن يعنى ذلك استعمال الشيخ لتلك المصطلحات اذ هى لم تعرف — فيما نعلم — قبل الفخر الرازى على ما سيأتى مفصلا فى موضعه إن شاء الله وإنما القصد أن الإمام قد أشار إلى الطريقة ومعنى هذه الاستعارات .

حدود الاستعارة : وهل تتناول المكنية والتخييلية ؟

ورد لعبد القاهر أكثر من تعريف للاستعارة فى الأسرار والدلائل فهو يقول فى الأسرار (اعلم أن الاستعارة فى الجملة أن يكون لفظ الأصل فى الوضع اللغوى

(١) الدلائل ص ٤١٢ (٢) أسرار البلاغة جـ ١ ص ١٢٠
(٣) من أعلام العرب ، عبد القاهر الجرجانى د . أحمد بدوى ص ١٩٤

معروفا . تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلا غير لازم فيكون هناك كالعارية)[1] .
وهذا التعريف لا يختلف عما سبق به الرمانـــي .

فالاستعارة عند الرماني إنما يعرفها بقوله (الاستعارة تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة)[2] فإننا نلاحظ أن هذا التعريف لا يستوعب التخييلية والتي لا يتصور فيها النقل أصلا كما يصرح الجرجانـــي وسنبينه، وأيضا لا تدخل فيه الكنيـــة .

وفي الدلائل يعرف الاستعارة بقوله (فالاستعارة أن تريد تشبيه الشئ بالشئ فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتجئ إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه)[3]

وظاهر أن هذا التعريف أيضا لا يعم أقسام الاستعارة بل لا يشمل سوى التصريحية وهذا ما لاحظه عبد القاهر حين وجد قسما آخر من الاستعارة يختلف عن نحو استعارة الاسد للشجاع مع أن السابقين قد خلطوا بين الضربين ومن هنا دعت الحاجة إلـــى التقسيم وبيان الفروق .

تقسيم الاستعارة إلى تحقيقية وتخييليـــة :

أشار عبد القاهر إلى هذا التقسيم في الدلائل وبسطه في الأسرار فبعد أن ذكر الاستعارة الفيدة وقيمتها البلاغية قسمها قسمة عامية وقال في بيان هذه القسمـــة (ومعنى العامية أنك لا تجد في هذه الاستعارة قسمة إلا أخص من هذه القســـمة وأنها قسمة الاستعارة من حيث المعقول المتعارف في طبقات الناس وأصناف اللغـــات وما تجد وتسمع أبدا تغيره من عوامهم كما تسمع من خواصهم وقد نظر في هذه القسمة إلى اللفظ المستعار لأنه إما أن يكون اسما وإما أن يكون فعلا (فإذا كان اســـما فانه يقع مستعارا على قسمين . أحدهما أن تنقله من مسماه الأصلي إلى شئ آخـــر ثابت معلوم فتجريه عليه وتجعله متنا ولا له تناول الصفة مثلا للموصوف)

---

(١) الاسرار جـ ١ ص ١٢٣
(٢) النكت للرماني ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٨٥
(٣) الدلائل ص ١٠٦

ثم يوضح عبد القاهر القسم الثانى بقوله (أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعا لا يبين فيه شئ يشار إليه ، فيقال هذا هو المراد بالاسم والذى استعير له وجعل حقيقة لاسمه الاصلى وتاليا منابه ومثاله قول لبيد :-

رَغَدَاةُ رِيحٍ قَدْ كَشَفْتُ وَقِرَّةٍ إِذْ أَصْبَحَتْ بِيَدِ الشَّمَالِ زِمَامُهَا

وذلك أنه جعل للشمال يداً ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه يمكن أن تجرى اليد عليه كاجراء الاسد والسيف على الرجل فى قولك : انهى لى أسد يزأر ولأن معك فى هذا كله ذاتا ينص عليها .

وترى مكانها فى النفس إذا لم تجد ذكرها فى اللفظ وليس لك شئ من ذلك فى بيت لبيد بل ليس أكثر من أن تخيل إلى نفسك من غير أن يكون هناك شئ يحس وذات تحصل (١)

وهذا الضرب الثانى ما عرف عند المتأخرين بالتخييلية التى هى قرينة المكنية وإذا كانت الاستعارة تنقسم إلى هذين الضربين فما الفرق بينهما ؟

بذل الإمام عبد القاهر جهدا حقيقيا فى إيجاد الفروق المميزة لكل من الضربين ومنها :-

أولا : (أنك فى الأول تجعل الشئ للشئ ليس به ، وفى الثانى تجعل للشئ الشئ ليس له) يوضح ذلك (أنك إذا قلت رأيت أسدا فقد ادّعيت فى انسان أنه أسد وجعلته أياه ولا يكون الانسان أسدا وإذا قلت : إذ أصبحت بيد الشمال زمامها فقد ادعيت أن للشمال يدا ومعلوم أنه لا يكون للريح يد) (٢)

ويشير أحد الباحثين إلى فكرة الادعاء التى قال بها عبد القاهر هنا مشيدا بها بقوله (وفكرة الادعاء هذه دقيقة لأنه سيترتب عليها فيما بعد أن الاستعارة عمل عقلى وسيمد ذلك فى جميع الصور البيانية) (٣)

---

(١) الاسرار جـ ١ ص ١٣٨
(٢) الدلائل ص ١٠٦
(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٧٤

ثانيا : (أنك إذا رجعت فى القسم الأول إلى التشبيه الذى هو المغزى من كل استعارة تفيد ، وجدته يأتيك عفوا ... وإن ريته فى القسم الثانى وجدته لا يواتيك تلك المواتاة إذ لا وجه لأن تقول : (اذ أصبح شيء مثل اليد للشمال أو حصل شبيه باليد للشمال ، وإنما يتراءى لك التشبيه بعد أن تخرق إليه ستراً ، وتميل تأملا وفكرا وبعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحذو الاول كقولك إذ أصبحت الشمال ولها فى قوة تأثيرها فى الغذاة شبه المالك تصريف الشيء بيده وإجرائه على موافقته وجدته نحو الجهة التى تقتضيها طبيعته وتنحوها إرادته فأنت كما ترى تجد الشبه المنتزع هنا إذا رجعت إلى الحقيقة ووضعت الاسم المستعار فى موضعه الأصلى لا يلفاك شبه المستعار نفسه ، بل ما يضاف اليه ، (١)

ويفهم من هذا الفرق أن الاستعارة التخييلية والمكنية فى نظر عبد القاهر (أبلغ من الاستعارة التصريحية لما فيها من إعمال الفكر وقوة التأمل) (٢)

وبعد أن يجرى هذا الوجه من الفروق على قول زهير :

" وَعُرِّيَ أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَوَاحِلُهُ "

يرى إبقاء الاجراء على التصريحية بأن يقول "إن الأفراس عبارة عن دواعى النفوس وشهواتها وقواها فى ذاتها أو الأسباب التى تفتل فى حبل الصبا وتتمر جانب الهوى) وإن كان عبد القاهر يرجح الاحتمال الأول ، ويرى فى الوجه الثانى شيئا من التكلف بل ربما يجيء مالا يتصور معه الحمل على التصريحية (فانه ربما خرج بك إلى ما يضر المعنى وينبو عنه طبع الشعر وقد يتعاطاه من يخالطه شيء من طابع التصنع فتجده ما يفسد أكثر مما يصلح) (٣)

ويفرع عبد القاهر على هذا الاصل فى الفصل والتمييز خطأ من يصرون دائما على أنه لابد فى كل اسم يستعار

---

(١) الاسرار جـ ١ ص ١٤٠
(٢) الصور البيانية د . خفاجى شرف ص ٢٧٩
(٣) الاسرار جـ ١ ص ١٤١

أن يكون هناك شيء يمكن الإشارة اليه على حد استعارة النور للهدى . مما يوقعهم فى التشبيه . وكأن الجرجانى يرى فى التخييلية خلاصا من هذا الخلط الذى يقدح فى التوحيد وسيأتى من يأخذ هذه الفكرة عن عبد القاهر . (١) أو من يطبقها بتوسع على كثير من آى القرآن الحكيم بحيث تعم آيات اشتهرت على أنها تمثل ألوانا بلاغية أخرى (٢)

ثالثا : ووجه آخر فى التفرقة ذلك أن وجه الشبه يكون موجودا فى المستعار له مع التصريحية دون التخييلية يقول الإمام عبد القاهر (وطريقة أخرى فى بيان الفرق بين القسمين وهو أن الشبه فى القسم الأول : وصف موجود فى الشيء الذى له استعرت واليد ليست توصف بالشبه ولكنه صفة تكسبها اليد صاحبها ، ويحصل له بها هو هى التصرف على وجه مخصوص .

وكذا قولك أفراس الصبا ليس الشبه الذى استعرت له الافراس موجودا فى الأفراس بل هو شيء يحصل لما يضاف إليه الأفراس حيث يراد الحقيقة نحو قولنا عرى أفراس الغزو — واجمعت وذلك ما يوجبه الفعل الواقع على الافراس نحو أن .وقوع الفعل الذى هو عرى على أفراس خيل الجهاد لغزو يوجب الامساك عن الغزو والترك ، وعلى هذا القياس" (٣)

رابعا : يزيد عبد القاهر فى الدلائل أمرا آخر وهو أن التخييلية لا يتصور فيها تقدير النقل مطلقا حيث يقول (واعلم أن فى الاستعارة ما لا يتصور تقدير النقل فيه البتة وذلك مثل قول لبيد عرفت الديار ... ويقول (لا خلاف فى أن اليد استعارة ثم إنك لا تستطيع أن تزعم أن لفظ اليد قد نقل من شيء إلى شيء وذلك أنه ليس المعنى على أنه شبه شيئا باليد فيمكنك أن تزعم أنه نقل لفظ اليد اليه " (٤)

وواضح من تقسيم عبد القاهر والفروق التى أبداها أنه يعنى من الضربين ما عرف بالتصريحية والتخييلية وأن التخييلية عنده أن تجعل الشيء للشيء ليس له

---

(١) نهاية الايجاز ص ١١٢
(٢) بديع القرآن لابن ابى الاصبع ص ٢٣ وما بعدها .
(٣) الاسرار جـ ١ ص ١٤٣
(٤) الدلائل ص ٣٩٤

بخلاف التصريحية اذ هى جعل الشئ الشئ ليس هو (ولعل فى قول عبد القاهر فى حد يشاعن هذا النوع (الضرب الثانى) من الاستعارة وذلك كله لا يتعدى التخييل والتوهم ما سوغ للمتأخرين تسميتها بالتخييلية " (١)

وهذا التقسيم عند الامام يجرى فى الاستعارة إذا كان اللفظ المستعار اسما أما اذا كان اللفظ المستعار فعلا فانه يقول : والذى يجب العمل عليه أن الفعل لا يتصور فيه أن يتناول ذات شئ كما يتصور فى الاسم ولكن شأن الفعل أن يثبت المعنى الذى اشتق منه لشئ فى الزمان الذى تدل صيغته عليه واذا كان الأمر كذلك فاذا استعير الفعل لما ليس له فى الأصل فانه يثبت باستعارته له وصفه هو شبيه المعنى الذى ذاك الفعل مشتق منه " (٢)

وكلام عبد القاهر يعنى أن وصف الفعل بانه مستعار حكم يرجع إلى مصدره الذى اشتق منه . فاذا قلنا فى (تطقت الحال) إن نطق مستعار فالمعنى إن النطق مستعار وإذا كانت الاستعارة تصرف إلى المصدر فإن التشبيه يجرى أولا بين المصدرين ويستعار المصدر المشبه به للمشبه .

ويستخلص من ذلك أن عبد القاهر يجرى الاستعارة فى نحو نطقت الحال — وكلمتنى عيناه فى الفعل استعارة تصريحية تبعية لوجود معنى يستعار له دون أن — يجريها فى القرينة مكنية .

وبهذا يكون عبد القاهر قد أشار إلى الاستعارة التصريحية بنوعيها الأصلية والتبعية كما أشار إلى الاستعارة التخييلية التى هى قرينة المكنية (٣)

إشارات عبد القاهر إلى طريقة المكنية :

وإذا كان الجرجانى قد بسط القول فى أمر الاستعارة التخييلية وأفاض فى التفرقة بينها وبين التصريحية فإن الأمر بالنسبة للمكنية قد يختلف إذ لم يزد الأمر

(١) صور من نثور البيان العربى ص ١٨٧ ، ١٨٨
(٢) الاسرار جـ ١ ص ١٤٤
(٣) البلاغة القرآنية د . ابو موسى ص ١٥٦

معها عن إشارات إلى طريقتها في مواضع من كتابيه ، إن كانت في مجموعها تكاد أن تكون قريبة الشبه مما عرفت به عند أكثر المتأخرين مع أنها جاءت في أحاديث تبدأ ليبان منشأ التخييلية مما أوقع بعض المحدثين في لبس وخلط على ما سيأتي .

ومن إشاراته في الدلائل ما قاله في سياق تدليله على عدم تصور النقل في التخييلية (وذلك أنه ليس المعنى على أنه شبه شيئا باليد فيمكنك أن تزعم أنه نقل لفظ اليد إليه وإنما المعنى على أنه أراد أن يثبت للشمال في تصريفها الغداة على طبيعتها شبه الانسان قد أخذ الشيء بيده يقلبه ويصرفه كيف يريد فلما اثبت لها مثل فعل الانسان باليد استعار لها اليد . (١)

ومن إشاراته أيضا ما قاله وهو بصدد اثبات أن من الاستعارات ما لا يكون المستعار فيه اللفظ ابدا من مثل يد الشمال لعدم وجود ما يستعار له . يقول عبد القاهر (وإنما المعنى على أنه شبه الشمال في تصريفها الغداة على طبيعتها بالانسان يكون زمام البعير في يده ، فهو يصرفه على إرادته ولما اراد ذلك جعل للشمال يدا . (٢)

هذا ما أشار به الجرجاني، أو بعضا منه إلى التخييلية في الدلائل وقد لاحظنا أن عباراته ولو بشيء من التعديل تلتقي مع مفهوم التخييلية على الشهور فيها .

وفي الأسرار يذكر عبد القاهر أن جعل الشيء للشيء ليس له يكون نتيجة تشبيه ما صار الشيء له بالذي كان له على الحقيقة . أي تشبيه الشمال التي جعلت لها اليد بالمدبر المتصرف يقول الجرجاني (ليس لك أكثر من أن تخيل إلى نفسك أن الشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدبر المصرف لما زمامه بيده ومقادته في كفه . وذلك كله لا يتعدى التخييل والوهم والتقدير في النفس من غير أن يكون هناك شيء يحس وذات تحصل . (٣)

ولعل الخطيب وجد في هذا الكلام مستندا لرأيه الذي قال به في التخييلية ومنه الفرق بينها وبين التخييلية حين يقول في حديثه عن بيت لبيد وغداة الريح إلى آخره

---

(١) الدلائل ص ٣٩٤ (٢) السابق ص ٤١٣ (٣) الاسرار ج ١ ص ١٣٩

وإنما يتراءى لك التشبيه بعد أن تخرق اليه سترا وتعمل تأملا وفكرا ويبعد أن تغير الطريقة وتخرج عن الحد الأول كقولك إذ اصبحت الشمال ولها فى قوة تأثيرها فـــى الفداد شبه المالك فى تصريفها الشىء بيده .

ويلمح عبد القاهر إلى التمييز بين التخييلية والمكنية بقوله فأنت كما ترى تجـــد الشبه المنتزع ههنا إذا رجعت إلى الحقيقة ووضعت الاسم المستعار فى موضعه الأصلى لا يلفاك من المستعار نفسه بل بما يضاف إليه — الشمال — ألا ترى أنك لم ترد أن تجعل الشمال كاليد كما جعلت الرجل كالاسد . ولكنك أردت أن تجعل الشمال كذى اليد من الأحياء فانت تجعل فى هذا الضرب المستعار وهو نحو الشمال ذو شىء وغرضك أن تثبت له حكم من يكون له ذلك الشىء لا نفس ذلك الشىء فاعرفه . (١)

فعلى كلام عبد القاهر يكون الشمال مستعارا له وهو لم يذكر المستعار لأنـــه محذوف فى الكلام وإن عبّر عنه بقوله كذى اليد (وهذا ما دعا جمهور المتأخريـــن إلى تسميتها بالاستعارة المكنية أو بالكناية لأن لفظ المستعار فيها مخفى أى ملابـــس للخفاء . (٢)

ذلك حديث عبد القاهر عن التخييلية وهذه اشارته الى المكنية وقد وقع بعـــض المحدثين فى خلط حين لم يميزوا بين حديثه عن كل منهما فنقل بعضهم بعـــض كلامه عن التخييلية على أنه دليل على معرفته بالمكنية او اهتدائه إليها .

فقد أشار أحد الباحثين إلى تقسيم عبد القاهر الاستعارة إلى الضربيـــن اللذين تحدثنا عنهما حاملا مراد عبد القاهر من الضرب الثانى على الاستعـــارة المكنية (٣) مع أن كلام عبد القاهر فى هذا الموضع بالذات لا يتصل بالمكنية وليـــس فيه إشارة إليها بل يتناول التخييلية فقـــط . (٤)

---

(١) الاسرار جـ ١ ص ١٤١
(٢) صور من تطور البيان العربى ص ١٨٨
(٣) ينظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٨٤
(٤) ينظر الدلائـــل ص ١٠٦

وباحث آخر يجهد حديث عبد القاهر عن الاستعارة في يد الشمال بما يخصب على الكتبة فقط ثم يعقب بذكر الاستعارة بالكناية ورتب على ذلك حكما خاصا بها[1]

ولشيوع استعارة اليد في الاستعارة المكنية انتبس الأمر على باحث آخر كذلك حين اقتصر على نقل كلام عبد القاهر في استعارة اليد وأنها ليس لها مستعار له ليرتب عليها أن الجرجاني قد اهتدى إلى المكنية[2] دون أن يتعرض للإشارات الخاصة بالمكنية .

وقد بدت عناية عبد القاهر بأمر التقسيم والفصل بين التخييلية والتحقيقية في الأسرار واضح منها في الدلائل مما دفع أحد الباحثين إلى أخذ ذلك دليلا على أسبقية الدلائل للأسرار من حيث التأليف .[3]

وعندي أن اختلاف المعالجة لا يصلح دليلا أو على الأقل لا يجوز أن يكون هو الدليل .

وما نلاحظه من اختلاف في المنهج فمرده في الحقيقة إلى اختلاف الغايات التي عمد إليها في الكتابين (ومعنى ذلك أنه عرض في الدلائل للصور البيانية لا بغرض بحثها بحثا وإنما لإثبات أنه يطبق عليها في النظم ومعانيه الإضافية ما يطبق على العبارات الحقيقية[3]

ونستطيع أن نستخلص من كلام عبد القاهر في التقسيم والتمييز الحقائق التالية :

أولا : أن كلا من الأسد في قولنا : رأيت أسدا واليد في نحو يد الشمال : استعارة أو مستعار .

ثانيا : أن كلمة الأسد منقولة إلى شيء ثابت محقق أجريت عليه وعني بها وهو الرجل الشجاع وأما اليد فلم تنقل إلى شيء محقق حسا أو عقلا في جانب الشمال بحيث يمكن أن ينص عليه أو يشار إليه .

---

(١) ينظر الصور البيانية د. حفني شرف ص ٣٧٩
(٢) عبد القاهر الجرجاني د. أحمد بدوي ص ١٩٨
(٣) المرجع السابق ص ١٩٧ (٤) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٨٣

ثالثـــا : ان كلا من الرجل الشجاع والشمال مستعار له فالرجل الشجاع مستعار لـــه الاسد والشمال مستعار له اليد .

رابعـــا : ان المستعار فى مثل " يد الشمال " لا يوصف بوجه الشبه بل يوصف بـــه ما أضيف إليه ، وهو الشمال .

خامســا : إن ثمرة كلام عبد القاهر وبغزاه أوحى الى بعض المتأخرين تقسيم الاستعارة إلى تحقيقية وهى التى قصدها من الضرب الاول ، وإلى تخييلية وهى التى أرادها بالضرب الثانى لانهـــا تخيل أن الشمال فى تصريف الغداة على حكم طبيعتها — مثلا — شوسها بالصرف الدبر لما زمامه بيده ولما كانت استعارة اليد للشمال لاتتأتى إلا بعد استعارة ذى اليد على الحقيقة للشمال بنى بعض المتأخرين على ذلك ما عرف بالمكنية وجعلوا التخييلية بنزلها (١) كما سيأتى التفصيـــل فى المذاهب المختلفة فى الباب التالى لكنا نشير إلى أن الباحثين يكادون — يجمعون على أن مذهب الخطيب يعد أقربهذاهب المتأخرين إلى فهم كـــلام عبد القاهر وتأويل مراده . (٢) على تفصيل ومناقشة ومقارنة نرجئها إلى حيـــث الحديث عن مذهب الخطيب .

" المكنية والتمثيـــل "

أشار عبد القاهر إلى أن التمثيل الذى يكون على حد الاستعارة قسم من أقسام المجاز (٣) كما أجاز اطلاق التمثيل على الاستعارة فى المفرد اذا كان الشبه فيهـــا عقليا . (٤)

ولكن هل لاساليب التخييلية والمكنية دخل فى هذا الاطلاق ؟

ذكر عبد القاهر فى سياق تدليله على فضل التمثيل وبيان أثره ببيت نصيب :

إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ عَزْمَـــهُ ... وَنَكَّبَ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبًـــا

(١) محاضرات فى البيان أ . د . يوسف البيومى ص ١٧٨ ، ١٧٩
(٢) ينظر البلاغة القرآنية ص ١٦٠ ومحاضرات فى البيان ص ١٧٥ وهامش الاسرار ص ٣٣٤ جـ١ وصور من تطور البيان العربى ص ١٨٩
(٣) الدلائل ص ٤٦ (٤) المرجع السابق ص ٤٣

وقد أفاد أن المزية غير عائدة فقط إلى الإيجاز فيه (بل لأن أراك العزم واقفا بين العينين وفتح الى مكان المعقول من قلبك بابا من العين . (١)

وعبارة الإمام فيها من الاتساع بما لا يقطع معه الحمل على وجه معين مع أن الأسلوب فى ذاته يجرى على الكنية وقد علق الاستاذ المحقق بأن فى البيت استعارة بالكناية مبنية على تمثيل (٢) من غير أن يعين مراده بالبناء على التمثيل لكنه سبق وأن أجرى هذا البيت على الكنية كما هى عند المتأخرين فأثناء عرضه للضرب الثانى من التمثيل الذى يبرز المعنى فيه باختصار ملاحظا أن اعتبار هذا الوجه فى التمثيل يتناقض مع ما سبق من جعل عبد القاهر التمثيل قسما من التشبيه ثم يحاول الناس بعض العذر بان الجرجانى كان فى بدء تدوين البلاغة فلم تكن أصولها قد تقررت كما تقررت بعده وخلص من ذلك إلى أن التمثيل لا يكون أخص مطلقا من التشبيه كما ذكر عبد القاهر أولا بل يكون بينهما العموم والخصوص الوجهى (٣)

ويتصل بذكر التمثيل رأى أبداه الاستاذ المحقق حيث ذهب إلى أن عبد القاهر قد تكلم عن الكنية فى الأسرار وحلل أساليبها لكنه يرى ردها إلى التمثيل موضحا وجهته ومدللا بما يفتقر إلى بسط ومناقشة تعرض لها تفصيلا فى موضعها الأنسب ولنجتزئ منه هنا بما له اتصال مباشر بأمر عبد القاهر فمما استدل به أن الشبه فى الكنية لا يمكن أن يكون ذاتا أو شبه ذات ينص عليه أو يشار إليه وأن الشبه به فى مثل: يد الشمال ليس هو اليد التى ذكرها لليد فى بيته بل هو ما أضيف إليه اليد . (٤)

ومما استدل به كذلك أن فى رد هذا الاسلوب إلى الاستعارة الكنية تكلفا كثيرا مما وقع فيه عبد القاهر ومن تبعه . (٥)

ونود هنا أن نشير إلى أن هذا الرأى ليس جديدا كل الجدة بل له أصل فى التراث البلاغى وسنقف عليه فى موضعه من هذا البحث ثم إن هناك أمرا لا ينبغى

---

(١) الاسرار جـ ١ ص ٢٤٤
(٢) هامش المصدر السابق
(٣) ينظر المصدر السابق ص ٢٣٢ ، ٢٣٣
(٤) الاسرار جـ ١ ص ٥٩
(٥) المصدر السابق جـ ٢ ص ١١٨

اغفاله وهو أن عبد القاهر لم يتناول الكنية كمصطلح على ما سبق، كما أنه لم يبسط القول على نحو محدد وقاطع في الكنية وإلا لما كان هذا الشقاق الذي تولد وكان منشؤه اختلاف المتأخرين في تأويل مراد عبد القاهر.

وربما كان الأستاذ الباحث يقصد التخييلية كما يتبين عن ذلك أدلته فضلا عن كونها هي التي أفاض فيها عبد القاهر ثم إننا وإن كنا لا ننكر أمر التكلف إلا أن مرده في الحقيقة إلى تعسف بعض البلاغيين المتأخرين وتمسكهم الصارم بالقواعد والحدود وانصراف كل منهم إلى تأكيد مذهبه دون مراعاة الجانب الفني للون البلاغي مع أن الرد إلى التمثيل لا يخلو هو الآخر من تكلف لعل منه عدم استيعابه لأفراد أمثلة الكنية كما يقول الأستاذ نفسه.

من قضايا التخييلية والتخييـــــل :

وكما تناول عبد القاهر الاستعارة التخييلية إيضاحا وتميزا أشار إلى طريقتها فقد عرض كذلك لكثير من الأحكام والمسائل المتصلة بها ومنها :

قرب الشبه وخفاء التشبيـــه :

لا يرى عبد القاهر أن كل تشبيه يصلح لأن يحول إلى استعارة (وإنما يجوز ذلك إذا كان الشبه بين الشيئين مما يقرب مأخذه ويسهل تناوله . ويكون في الحال دليل عليه . وفي العرف شاهد له حتى يمكن المخاطب إذا أطلقت له الاسم أن يعرف الغرض ويعلم ما أردت . (١)

ومذهب عبد القاهر هذا هو مذهب العـــرب ..

وعلى ذلك جرى النقاد والبلاغيون قبل عبد القاهر كالآمدي في الموازنة (٢) والقاضي الجرجاني في الوساطة (٣) وأما المرزوقي فقد جعل مناسبة المستعار فيـــه للمستعار له صلب عمود الشعر ومعيار جودته (٤) وكذلك من إستحسن من العلماء

---

(١) الاسرار ج ٢ ص ٩٨، ص ٩٩
(٢) الموازنة ط ١ ص ٢٥٠
(٣) الوساطة ص ٢٧
(٤) الخصومات البلاغية والنقدية ص ١٢٠

الاستعارات البعيدة كان يقبح إشتطاط ألا يوقع في إبهام، فحسن الاستعارة إذن يكون بمقدار ما بين المستعار منه والمستعار له من التقارب والتماثل وحضور الجمع بينهما في الذهن ولذلك كان الأدب العربي الرمزي بعيداً عن البلاغة لأن الالفاظ تستعمل كثيراً في معان يصعب إدراك الصلة بينها وبين المعاني الأولى لهذه الألفاظ . (١)

وإذا كان المقصود من اشتراط القرب في الشبه الوضوح والبعد عن الغموض فينبغي ألا يقصر الوضوح فيها على ما هي عليه في ذات الأمر وإنما ما يحصل ولو بمعونة القرائن الرشدة والدالة كذلك . على أن اشتراط عبد القاهر القرب في الشبه لا يناقض أن الاستعارة كلما ازداد خفاء التشبيه فيها ازداد عمقاً وبلاغة . ولعل هذا يبرر اعجاب عبد القاهر الشديد وتقديره للاستعارات التخيلية والمكنية .

التخيلية والمكنية بين النقل والعقل :

اختلف البيانيون حول عد الاستعارات مجازاً لغوياً بمعنى ان التصرف الذي يحدث فيها يكون بتغيير في دلالة الألفاظ ونقلها من معانيها الأصلية واستعمالها في معنى آخر فيكون تصرفاً في دلالة اللفظ أو هي مجاز عقلي بمعنى أن التصرف الذي يحدث فيها هو تصرف عقلي يحدث لا دخل للغة فيه ولا نقل للالفاظ عن معانيها إلى غيرها . (٢)

واذا اتضح المراد فكيف كان موقف عبد القاهر ؟

كثيراً ما لاحظ الباحثون اختلاف مذهب الجرجاني في الدلائل عنه في الاسرار، فبينما يعبر في الدلائل على اعتبار التجوز في الاستعارة تجوزاً عقلياً ونفي الشبه ويرد على من يخالفه يقرر في الأسرار في وضوح أن التجوز في الاستعارة عن طريق اللغة والنقل الأمر الذي اخذ على أنه نوع من التضارب او التناقض او التراجع وان لاحظ بعض الباحثين محاولة عبد القاهر التوفيق (٣)

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٥
(٢) ينظر الايضاح ص ١٥٣
(٣) ينظر البلاغة تطور وتاريخ ص ١٨٤ ص ١٩٣ ، ص ٢١٧

ولكن صح أمر الغارب عند عبد القاهر أو اتسع عقلنا لفهم محاولته في التوفيق فستبقى التخييلية بمنأى عن هذا الاختلاف ، فرأى عبد القاهر الإسلام فيها قاطع لا يقبل الجدل .

يقول عبد القاهر (اعلم أن في الاستعارة مالا يتصور تقدير النقل فيه وبعد أن استشهد ببيت لبيد قال (لا خلاف في أن اليد استعارة ثم إنك لا تستطيع أن تزعم أن لفظ اليد قد نقل من شيء [١] ويقول مثل ذلك في موضع آخر [٢] (فإنا نفى عبد القاهر النقل في أسلوب الاستعارة نفيا باتا مطلقا فهو يعني الاستعارة المصونة أخيرا بالتخييلية) [٣]

ويظهر من هذا أن ما سيأتي من أن السكاكي يعتبر قرينة الكناية استعارة — تصريحية تخييلية قد أخذ عبد القاهر على نفيه واستحالته (ولا يمنع رفض عبد القاهر واعتباره مستحيلا أن يكون السكاكي قد تأثر به) [٤]

وأما عن الكناية فقد أشار أحد الباحثين إلى أن عبد القاهر يرى أن الاستعارة بالكناية لا يظهر فيها النقل [٥] بناء على تعليقه على بيت لبيد في الدلائل وقد نوقش بأن مراد عبد القاهر الاستعارة التخييلية إذ هي التي لا يتصور النقل فيها عنده وأما الكناية فلا يفهم أنه ينفي النقل ألبته عنها بعد أن صرح بان الشمال في يد (الشمال) مستعار له فيها وإنما مراد اللبيب إلى شهرة بيت لبيد في الاستعارة بالكناية ثم إن الاعتماد على نفي النقل على أنه ليس هناك شيء يراد من اليد ولم يقل أحد إن اليد فيها استعارة بالكناية [٦]

وإذا جاز لنا أن نعتبر ما ذهب إليه الخطيب أقرب المذاهب إلى رأي عبد القاهر وفهم روح كلامه وإشاراته يصبح من الأوفق فيما أرى أن تكون الكناية عند

---

(١) الدلائل ص ٣٩٤
(٢) نفس المصدر ص ٤١٢
(٣) صور من تطور البيان العربي ص ١٩٨
(٤) البلاغة القرآنية ص ١٦٢
(٥) ينظر البيان د . طبانة ص ٢١٦
(٦) ينظر صور من تطور البيان العربي ص ١٨٩

عبد القاهر من التجوز المعنوي على ما هي عليه عند الخطيب [١] شـــأن التخييلية عندهما وسيتضح هذا الأمر أكثر عند تناول مذهب الخطيب في التخييلية والتخييلية تفصيلا إن شاء الله .

بين اللفظ والمعنى ونظـــم :

وقضية اللفظ والمعنى إلى أيهما ترجع المزية قد قتلت بحثا في القديـــم والحديث ليس في الأدب العربي فحسب إنما هي مشكلة الأدب جميعا . وعلى كثرة ما قيل فيها إلا أن ذلك لم يتتج قولا فصلا ، فالبعض يميل إلى اللفظ ويرى فيـــه الحسن والقبح وآخرون يؤثرون المعنى ولا ينظرون إلى غيره وفريق ثالث يـــرى فوق الأمرين شيئا آخر ينبغي ان ينسب اليه الفضل وهو النظم ولكل رأي دوافعـــه وحججه وظياته كذلك وان كان - فيما أقدر - معظم جوانب تلك المسألة مختلفـــة أو مبالغا فيه . ولو قدر لكل ذي رأي التعرف على حقيقة الاتجاه الآخـــر وتبصـــره في موضوعية معتبرا ملابساته ومراميه لحد ذلك كثيرا من الجدل المثار وإن لم يلغـــه تماما لاختلاف الأذواق والعقول والمعارف .

ويبدو أن عصر عبد القاهر كان أكثر ميلا إلى إيثار اللفظ فقد رأينا ابن سنـــان الخفاجي يجعل الاستعارة من أوصاف اللفظ [٢] ومن هنا يفسر موقف عبد القاهـــر على أنه رد فعل منعكس ليثبت بأنه كان يؤثر المعنى تارة أو النظم تارة أخرى علـــى حساب اللفظ .

فما حقيقة موقف عبد القاهر على ضوء معالجته للاستعارة ؟

ألح الجرجاني كثيرا على أن الحسن والقبح في الاستعارة ليس مرده إلى اللفظ فليـــس له في ذلك نصيب [٣] لكنه كان يقصد اللفظ من حيث هو لفظ مفرد [٤] وانما مـــرد الفصاحة فيها إلى المعنى . (نفس الملحوظة كما قال الدكتور جلال)

---

(١) ينظر مختصر السعد على التلخيص ص ٢٨٨
(٢) سر الفصاحة ص ١٠٨
(٣) اسرار البلاغة جـ ١ ص ١١٢
(٤) ينظر الدلائل ص ٩٠ ، ٣١٠

وعبد القاهر وإن طبق رأيه هذا على بعض أمثلة التصريحية إلا أنه قد يجسد بغيته في شواهد المكنية والتخييلية فقد أخذ يتناول عديدا من شواهد هذا الضرب مؤكدا على عدم تصور الفصاحة معه إلا باعتبار المعنى .

يقول عبد القاهر : ثم إن (من الاستعارة قبيلا لا يصح أن يكون المستعار فيه اللفظ البتة ولا يصح أن تقع الاستعارة فيه إلا على المعنى) وبعد أن أوضح مراده على استعارة ليبد ذكر أن هذا الضرب لا يقل شأنا عن الضرب الأول : (التصريحية) بل هذا أقوى في اقتضاء الفصاحة ثم قال : (وإن أردت أن تزداد علما بالذي ذكرت لك من أمره فانظر إلى قوله : (سقته كف الليل اكؤس الكرى) وذلك أنه ليس يخفى على عاقل أنه لم يرد أن يشبه شيئا بالكف ولا أراد ذلك في الاكؤس ولكن لما كان يقال . سكر الكرى وسكر النوم استعار الكرى للأكؤس كما استعار الآخر التأس في قوله (وقد سقى القوم كأس النعمة السهر) ثم إنه لما كان الكرى يكون في الليل جعل الليل ساقيا ولما جعله ساقيا جعل له كما إذ كان الساقي يتناول التأس بالكف) .

ثم أتى بمثال آخر قال إنه من النادر اللطيف في هذا الباب ليشرحه بمثل ما مر . (١)

وعبد القاهر وإن أثبت البهرة للاستعارة من حيث معناها لكنه لا يقصد المعنى المفرد إذ لا قيمة له عنده إلا من خلال النظم (٢) الذي شرح مراده منه مرارا (٣) ومطبقا على بعض شواهد الاستعارة في بعض آي القرآن ونماذج من الأدب .

يقول عبد القاهر تعليقا على بيت المتنبي :

غَصَبَ الدَّهْرُ وَالْمُلُوكَ عَلَيْهَا فَبَنَاهَا فِي وَجْنَةِ الدَّهْرِ خَالاً

---

(١) ينظر السابق ص ٤١٣ وما بعدها .
(٢) ينظر الدلائل ص ٣٥٩ وما بعدها .
(٣) المصدر السابق ص ٩٣

قد ترى في أول الأمر أن حسنه اجتمع في ان جعل للدهر وجنتة وجعل البنية خالا في الوجنة . وليس الأمر على ذلك فإن موضع الأعجوبة في أن أخرج الكلام بخرجه الذي ترى وأن أتى بالخال منصوبا على الحال من قوله (بهناها) أفلا ترى أنك لو قلت وهي خال في وجنة الدهر لوجدت الصورة غير ما ترى (١)

فالاستعارة عند عبد القاهر جزء من النظم وليس سر جماله بل النظم في الواقع سر جمالها ولذلك فهو يرفض أن تجعل الاستعارة الاصل في الأعجاز لأن هذا يؤدي إلى أن يكون الاعجاز محصورا في آي معدودة في مواضع من السور الطوال وإذا امتنع ذلك لم يبق إلا أن يكون في النظم . (٢)

ولعل من أبرز الاسباب التي كانت وراء الحاح عبد القاهر الدائم على أمر النظم أنه كان يهدف إلى إيجاد حد من التوازن أمام نظريتين متقابلتين نظرية اللفظ ونظرية المعنى فبذل جهده ليقف الأمرين وليثبت لنا رأيه مدار الفضيلة وإنه لوحظ أحيانا ميله إلى المعنى لكن ليس إلى الحد الذي يصوره بعض المحدثين (٣)

فهو لم يجعل اللفظ تابعا فهو يقول مثلا: إن تفضيل الكلام بالنظر لمعناه يبطل قضية الإعجاز والنظم الذي رد إليه عبد القاهر الاعجاز لا يكون باللفظ فقط ولا بالمعنى فقط وإنما يكون بهما معا . فهو يقول: لو كان النظم وصفا للفظ وحده دون المعنى لكان ينبغي ألا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم ؛ فعبد القاهر لا يخالف الجاحظ وعبد القاهر لا يشذ جانب المعنى وحده (٤)

وعلى كل حال فإن عبد القاهر بمحاولته الجادة تلك قد ملأ فراغا حقيقيا كثيرا ما أوخذ النقد العربي بفقدانه حين اتهم بعض المحدثين رجال النقد العربي والبلاغيين العرب بأنهم قد انصرفوا تماما إلى الجزئيات دون أن يعنوا بالصور الكلية (٥)

---

(١) السابق ص ١٣٥
(٢) ينظر الدلائل ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ ط. المنار
(٣) ينظر البيان العربي ص ٢٢٤
(٤) ينظر صور من تطور البيان العربي ص ٢٠٨
(٥) ينظر التصوير الفني في القرآن سيد قطب ص ٣٠ وما بعدها

وإن كان هذا الاتهام يمثل حقيقة إلا أنه يهمل طبيعة النوذج المعالج وخصائصه كما انه يغفل بعض الجهود التي بذلت من عبد القاهر ومن أسلافه الذين أخذ عنهم وبنى على إشاراتهم إلى أن جاء الزمخشري فأحسن التطبيق وأجاد فيه على آي القرآن الكريم إلى أن جدت مرحلة أخرى خالفت في المنهج بدأت بعصر السكاكي وشاعت عند تلاميذه وعصور الشروح والحواشي حيث أهملت فكرة عبد القاهر وانصرفت الجهود إلى ناحية التدقيق العلمي والتقعيد ووضع الاصطلاحات والحدود الجامعة إلى إن كان العصر الحديث وتهما لعوامل كثيرة ومختلفة بدأ النقد يتجه إلى ما سبق أن نادى به الإمام [1]

تأثر عبد القاهر بالسابقين :

لا ريب في أن عبد القاهر قد اطلع على التراث العربي وأفاد منه إفادات واضحة، وفي باب الاستعارة خاصة تشهد معالجته لكثير من نصوصها باطلاعه على ما كتب السابقون إلى حد النقل عن بعضهم أحيانا كالآمدي والقاضي الجرجاني . وعلى هذا فلم تكن القيمة الحقيقية لأثر الجرجاني في الاستعارة في أنه ابتكر ضروبها واقسامها وطرق الفصل بينهما على ما قيل [2] إذ أن هناك فيما سبق اشارات ولو على وجه ما، وانما الفضل الحقيق في أنه بسط وأفاض في أمر هذا التقسيم والتمييز مع التحليل العلمي الأدبي بما لم يسبق إليه وبين هنا (لم ترجع عظمة جهود عبد القاهر في دراساته البلاغية إلى إشاراته الى اصول التقسيمات والتعليلات فحسب وإنما ترجع أيضا إلى هذه التحليلات العالية التي يبسط فيها وجه التجوز ويتحدث فيها عن العلاقات بين الاشياء وكل ما ذكره عبد القاهر في دراسة الاستعارة يصلح شاهدا على قدرته البالغة في فهم النصوص وتذوقه وتحليله .

وعلى كل حال فتأثر الجرجاني بالسابقين عليه او المعاصرين له واضح سواء أكان بطريق مباشر أم غير مباشر إيجابا أو سلبا .

---

(١) ينظر الميزان الجديد د . مندور ص ١١٧ والديوان للعقاد والمازني جـ ٢ ص ٣٣

(٢) ينظر صور من تطور البيان العربي ص ٢٠٤

فقد ضاق النقاد برأى ابن سنان الذى أوردناه وهو أن بناء الاستعارة على غيرها مما يجعلها بعيدة مطرحة أو على الأقل يجعلها دون الجيدة البليغة[١]

أما عبد القاهر المعاصر لابن سنان فقد عرض لتلك الصورة التى هوّن أمرها ابن سنان وهى وصف امرئ القيس لطول الليل واصفا لها بالحسن .

يقول عبد القاهر (وما هو أصل فى شرف الاستعارة أن ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات قصدا إلى أن يلحق الشكل بالشكل وأن يتم المعنى والشبه فيما يريد مثل قول امرئ القيس فقلت له لما تمطى الليل ليجعل الليل صلبا قد تمطى به بنى على ذلك فجعل له أعجازا قد أردف بها الصلب . وثلث فجعل له كلكلا . قد جاء به فاستوفى جملة أركان الشخص وراعى ما يراه الناظر من سواده إذا نظر قدامه وإذا نظر الى خلفه وأذا رفع البصر وبعده فى عرض الجو[٢]

فما عده ابن سنان عيبا عده عبد القاهر من دواعى الحسن والروعة ولم يقتصر على دعواه بل عللها بما يقربها إلى الأذهان والقلوب وبمقارنة ما قاله عبد القاهر تعليقا على تلك الاستعارة وما قاله الآمدى قبله ما يظهر التشابه فى المعالجة بينهما (فى التنزع والروح وإن لم يكن تقليدا ولا محاكاة)[٣]

وقد سبق أن تحدثنا عن بعض جهود ابن رشيق قبل الكتبة بما اتضح معه أنه لم يكف فيها بالمثال كما يرى أحد الباحثين[٤] وإن افتقدنا معه التحديد التام والتمييز الدقيق والتحليل المستفيض الذى عرضنا طرفا منه عند عبد القاهر مما صوره وكما أن ابن رشيق جعل الاستعارة أصل المجاز وأول أبواب البديع[٥] جعلها عبد القاهر كذلك من أبرز ألوان المجاز كما هى عنده من البديع .

---

(١) ينظر سر الفصاحة ص ١١٢ وما بعدها
(٢) الدلائل ص ١١٦
(٣) البلاغة القرآنية ص ١٦٣ ، ١٦٤
(٤) ينظر عبد القاهر وأثره ص ٣٨١
(٥) ينظر العمدة جـ ١ ص ٢٦٨

الاستعارة من البديع عند الإمام :

جعل عبد القاهر الاستعارة من البديع فارقا إياها بالتطبيق [١] ليلتقى وعموم سلفه لكن على اعتبار خاص إذ شرط أن تكون مفيدة مبنية على التشبيه مع رده الحسن فيها وألوان البديع الأخرى إلى المعنى .

هل تأثر عبد القاهر فى درس الاستعارة بالثقافات الوافدة ؟؟

وقضية تأثر عبد القاهر بالثقافة غير العربية وعلى وجه أخص بالفلسفات الإغريقية قضية مثارة وقد توارد عليها الباحثون وتجاذبوها بين مثبت ونافٍ مع ذهاب البعض إلى محاولة التوفيق .

على أن هناك أمرا ينبغى التنبيه إليه وهو التفرقة بين إطلاع عبد القاهر على تلك الثقافات وتأثره بها أيا كان وجه ذلك التأثر وبين النقل بما ينفى الأصالة عن البيان العربى ، فنحن لا نستطيع بل ولا ينبغى الزعم بعدم اطلاع عبد القاهر على ألوان الثقافة الوافدة ومنها الفلسفة الاغريقية إذ ليس لنا من دليل قاطع على ذلك ومن هنا فلا أرى ضرورة تدعو إلى التخوف وتستجلب الإصرار على النص بل الأجدى افتراض اطلاع الجرجانى على شتى المعارف المتاحة فى عصره مع الإفادة منها وإن لم يكن فى صورة مباشرة بما لا يعنى حتما النقل عن بلاغات أخرى تتنافى معه أصالة البلاغة العربية ولكن رجح بعض الباحثين النقل عن ارسطو فى الاستعارة [٢] أو قطع البعض بذلك [٣] وإن لم يكن هناك دليل حاسم على الترجيح فضلا عن القطع بالأخذ عن أرسطو مما دعا باحثا آخر إلى ترجيح عدم انتفاع عبد القاهر بما كتبه ارسطو بل وعدم اتصاله بما كتبه أصلا . [٤]

والموازنة بين بعض ما كتبه ارسطو فى الاستعارة وما كتبه الجرجانى يكشف عن بعض التشابه بينهما بما مرده فى الحقيقة إلى تماثل العمل الفنى قبل بعض الخصائص

---

(١) الاسرار جـ ١ ص ١١٢
(٢) من الوجهة النفسية أ . د خلف الله احمد ص ١٠٩
(٣) مقدمة نقد النثر طه حسين ص : ٣
(٤) عبد القاهر الجرجانى د . احمد بدوى ص ٣١٢ وما بعدها .

فمن ملامح منهجه أنه يريد أن يصل إلى وضع القوانين الشاملة وبيان الأقسام في كل شيء وذكر الفروق بين العبارات ويرى في ذلك فائدة لا تنكر وسار على هذا النهج في الاستعارة فذكر منها لونين مبينا في إيضاح الفرق بين هذين اللونين من أساليب التعبير ونهجه في دراسته للاستعارة يتضح أيضا في إبراز الذوق الأدبي وتنميته عند القارىء (١) والدارس نتيجة لكثرة مثله وتحليله الذوق لها .

والواقع ان البيان العربي لم يظفر بمثل هذا الأسلوب التحليلي الذي فيه مثل هذا البحث العميق والاستقصاء الدقيق فيما يخص موضوع الاستعارة في أية مرحلة من مراحل حياتها الممتدة دون أن يجعل القاعدة أساسا للدراسة فقد أتفق عبد القاهر جهودا كبيرا في محاولته الاقناع بأن أمر الاستعارة إنما يفهم على وجهه الصحيح من خلال النظم والتركيب وكذا محاولته إثبات أن طريق الاستعارة العقل وبالذات التخييلية . وأيضا سحب المزية والحسن أو القبح عن اللفظ .

وهنا ملاحظة لابد من إبدائها ذلك أن بعض الاستعارات لابد وأن يظهر في الحكم فيها إلى اعتبار اللفظ وإلا فبماذا نفسر قبح استعارة مثل رجل البين ورتاب الوصل وباغي الهوى مع أن لتلك الاستعارات معاني عميقة ويلاحظ أيضا تفريق عبد القاهر أحاديث التخييلية والمكنية بين الدلائل والأسرار الأمر الذي كان وراءه صعوبة حقيقية في إيجاد رباط دقيق يجمع أطراف هذا البحث على نحو متكامل وأيضا تكريره للضوابط والحدود وعدم الأخذ بالتحديدات الجامعة المانعة ما مهد الطريق أمام تعدد التأويلات والتفاوت في حمل مراده حين قعد البلاغيون المتأخرون إلى التحديدات ووضع المصطلحات الفاصلة . وكان من نتائج ذلك الاضطراب الواضح في معالجة المكنية والتخييلية كما سنفصل في الباب الثاني .

كما نلحظ أنه خص التصريحية ببعض مباحثه العميقة مثل الفصل الذي عقده لبيان كون الاستعارة تعتمد التشبيه أبدا (٢)

---

(١) محاضرات في تاريخ البلاغة العربية د . عبد الرحمن الكردي ص ٣٤
(٢) الاسرار ص ١٤٨

التي تشترك فيها اللغات بطبيعتها (فليس من ينكر أثر الصياغة وخاصة الاستعارة في استقرار المعنى في الأنفس استقرارا اكثر منه بدون الاستعارة .

وإذا رجعت إلى ما ذكره عبد القاهر من أسباب جمال الاستعارة وجدته قد ذكر كثيرا من هذه الأسباب من غير أن يذكر بينها الاستغراب والتعجب والهيبة والاستعظام) على ما يقول به أرسطو [1] ولو أنه نقل عن أرسطو لأضاف تلك الأسباب إلى ما ذكره وأشار إلى مصدرها كما هو دأبه مع من يأخذ عنهم وليس في ذلك ما يضيره .

ومما يرجح عدم النقل أن ضروب الاستعارة عند عبد القاهر وتقسيمها إلى تخييلية وتحقيقية يخالف ما عند أرسطو . ثم إن هناك أمرا أساسيا سبقت الاشارة إليه كثيرا وهو أن ارسطو قد أخرج صور الكتابة من الاستعارة وأدخلها تحت وضع الشيء تحت العين، أو نصب العين .

ومما سبق يظهر أن القول بعدم اتصال عبد القاهر أو اطلاعه على ما كتب أرسطو مبالغ فيه وفي ذات الوقت فإن القول بتأثره إلى حد النقل أكثر مبالغة وبعدا عن الموضوعية وإنما الأمثل أنه لا مانع من اطلاع عبد القاهر لكن بعيدا عن كل تقليد أو محاكاة .

خصائص منهج عبد القاهر في معالجة أساليب الكتابة :

لا ريب أن عبد القاهر كان صاحب منهج خاص ومتميز وقد بدت ملامحه واضحة في معالجته لموضوع الاستعارة .

وكل ذي طريقة في البحث متفردة لابد أن يكون للناظر عليها ملاحظات لكنها لا تؤثر قط في كون عبد القاهر إماما للبيان العربي غير منازع .

---

(١) السابق ص ١١٧ ومن الوجهة النفسية د . خلف الله احمد ص ١١٣

هذا بالاضافة إلى ما نلحظه من أن عبد القاهر لم يحن العناية الكافيـــة فيما أرى بالشاهد القرآني في مجال الاستعارات التخييلية والمكنية ، إذ نراه يغفل جملة من أجَلّ شواهدها وانشغاله الدائم باثبات أمر النظم واقتصاره في التطبيق غالبا على نماذج أدبية سبق وأن توارد على محفظها السابقون .

واما انتفاع الجرجاني بأبواب النحو والاستعانة بها في إثبات أمر النظم فـــلا أرى فيه مأخـــذا . (١)

إذ لم يكن من اليسير أن يشرح عبد القاهر نظريته من غير اعتبار لموضوعـــات النحو وهي في حقيقتها قائمة عليها ، بل ربما كان صنيع عبد القاهر واستخدامـــه النحو والتوفيق بينه وبين مسائل البلاغة من أبرز حسناته التي ضيعها من بعـــده المتأخرون حين فصلوا بين مسائل العلمين فصلا مصطنعا (فصار النحـو جافـا لا روح فيه) على النقيض مما كان عند عبد القاهر ولم تكن البلاغة هي الأخـــرى أحسن حالا .

ومما سبق يتضح أن تناول الشيخ عبد القاهر للاستعارة لم يكن تناولا نظريـــا تقريريا كما ذكر أحد الباحثين المعاصرين . (٢)

فقد عرض لها الشيخ على ضوء ثقافاته وعلى هدى من ذوقه وحسه مستعينا بفكره الناقد فهو يحلل الأساليب ويصل الى الفروق في التصوير بين أسلوب وأسلـــوب ومن هنا رأيناه يبين الفرق بين طريق الاستعارة التي عرفت بعده بالتصريحيـــة وبين طريق الاستعارة التي عرفت بالتخييلية بيانا شافيا ووجدنا بعض الإشـــارات إلى طريق الاستعارة المكنية كما عرض لكثير من المسائل والقضايا المهمة التي تتصل بهذا الفن وهذا يصح دون ريب ما سبقت الإشارة إليه من أن دراسات عبد القاهر لتلـــك الأساليب يعد في ذاته مرحلة مهمة هذا فضلا عن الآثار الحقيقية لتلك الجهود والتي بدت في دراسات العلماء بعده فقد ذهبوا في تفهم كلامه وتحاويل مراده مذاهب شتى ومن هنا تعددت الآراء واختلفت المذاهب .

---

(١) ينظر اثر القرآن د . كامل الخولي ص ١٧٩ ، ١٨٠

(٢) الصور الادبية د . مصطفى ناصف ص ١١٧

الفصـــــل الثانى
المكنة على طريق التشبيق والتحديد الاصـــــــلاحـــــى

البحـــــــــث الاول :

فـــــــــى الكشـــــــــاف للفرخشـــــــــرى

البحـــــــــث الثانى :

مـــــــــــع الفخـــــــــــر الـــــــــــرازى

الفصل الثانـــــــــــى

المكنية على طريق التطبيق والتحديد الاصطـــلاحـــــــــى

خرجنا من دراسة المكنية والتخييلية عند عبد القاهر بجملة ملاحظات لعل من أبرزها انصراف الجرجاني إلى التنظير اكثر منه إلى جانب أن جهوده فى التحديـــد والتمييز على أهميتها لم تكن من الحسم بحيث تبعد التأويل وتنفى الاحتمال ومن هنا كانت تلك الدراسة فى حاجة إلى جهود أخرى متممة وهذا ما قام به كل من الزمخشرى والرازى ومن هنا افردنا لهما فصلا خاصا عقب عبد القاهر وإن كان هناك اختلاف بين صاحب الكشاف وبين الفخر الرازى

إذ عنى الزمخشرى اكثر بامر التطبيق على آى القرآن الكريم على حين صرف الرازى عنايته إلى التحديد ووضع المصطلحات . لذلك أتناول كلا منهما فى مبحث خاص .

جهود الزمخشرى فى مجال التطبيق والتحديـــــد :

يكاد يجمع الباحثون على تأثر الزمخشرى بدراسات عبد القاهر إلى حد التشـل لآرائه التى يبسطها فى الدلائل والاسرار وخاصة آراءه فى النظم [1] . فقد رأى الزمخشرى فيها خير وسيلة لتصوير البلاغة القرآنية فأقبل عليها يطبقها فى إفاضـــة واتساع وهذا يبرز توفيقه فى إبراز مسائل المعانى لكنه مضى أيضا فى تطبيق نظريـــة البيان مستندا إلى قوة إحساسه وإدراكه الواعى لخفايا النص وذخائره المكنونـــة مهديا إعجابه بالمجاز إلى حد أن جعل الكلام الجارى على سننه الحقيقة عريانا [2]

وكان من الطبعى اذا أن يتوسع الزمخشرى فى تطبيقاته على الاستعـــارة بصورها وضروبها المختلفة من تصريحية ومكنية وأصلية وتبعية متناولا ما يتعلق بهـــا من قوانين وأحوال .

---

(١) راجع فى ذلك البلاغة القرآنية ص ١٨٨ والبلاغة تطور وتاريخ ص ٢٢٠

(٢) الكشاف جـ٢ ص ٢٧٧ ط الاستقامة .

ومن ابرز ما اهتم به الزمخشري في الاستعارة ما عرف بالمكنية (وإذا كان اصطلاح الاستعارة بالكناية لم يعرف إلا في كتاب نهاية الإيجاز وهو كتاب كتب بعد الكشاف بما يقرب من قرن فليس لنا أن نقول إن الزمخشري يريد الاستعارة بالكناية إلا على معنى أنه يريد مسمى الاستعارة بالكناية . وحقيقتها لان تسميتها الاصطلاحيه كما قلت لم تكن معروفة في زمانه وقد قلت هذا الان كثيرا من المحققين على عبارات الزمخشري يفسرونها في ضوء التقسيمات التي تحددت حقائقها واصولها في عصره وتحددت مصطلحات لذلك وجب التنبيه أولا السعي هذا اصطلا في فهم هذه التعليقات . (١)

ولكن قبل أن نقف على اتجاه الزمخشري قبل تلك الصورية من التفصيل تشير إلى أنه كثيرا ما أشاد بهذا النوع الذي هو من أسرار البلاغة ولطائفها كما يقول وهو يدرك ما في هذه الاستعارة من القدرة على التشخيص والتصوير ويظهر ذلك في شرحه لأساليبها تطبيقا (وعلينا أن نذكر أن التطبيقات في الدرس البلاغي ليست أمرا هنيا لأنها هي حياته وناره وتتركز فيها قدرة البليغ ومهارته) (٢)

وقد وقع من صاحب الكشاف في أثناء تطبيقاته إشارات وآراء تصلح في مجموعها مضافا إليها ما أثاره من تعليقات وشروح لأن تكون مذهبا معينا لكن في غير التزام دقيق بالمصطلحات ما جعله يدرس بعض أساليب المكنية تحت مصطلحات عديده مازجا بين اكثر من مصطلح أحيانا كما جاءت عبارته محتملة الاجراء على المكنية أو غيرها أحيانا أخرى .

تصوير لمذهب الزمخشري في المكنية :

وربما كانت أبرز تعليقاته تصويرا لمذهبه واستحواذا على مناقشات العلماء بعد ما ذكره بيانا للاستعارة في قوله تعالى " الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ " فان قلت من أين ساغ استعمال النقض في إبطال العهد ؟ قلت من حيث تسيتهم العهد

(١) البلاغة القرآنية ص ٤١٦
(٢) المصدر السابق ص ٥

فى ان اعتبار قرينة الكنية مرادا بها معنى مجازيا لا ينهض قرينة على الحذوق (فاذا كان النقض مرادا به ابطال العهد فليس هناك ما يدعو إلى اعتبار العهد مشبها بالحبل لأن الكلام حينئذ يكون كلاما مستقيما . إذ التقدير يبطلون عهد الله .

ولذلك فقد حاول بعض العلماء نقض هذا الإشكال فالعلامة السيد الشريف يرى (أن هذه الاستعارات من حيث إنها متفرعة على الاستعارات الأخرى صارت كنايات عنها وأن النقض إنما شاع استعماله فى إبطال العهد من حيث تسميتهم العهد بالحبل فلما تنزل العهد منزلة الحبل وسمى باسمه تنزل إبطاله منزلة نقضه فلولا استعارة الحبل للعهد لم يحسن بل لم يصح استعارة النقض للابطال . وقس على ذلك استعارة الافتراس والاغتراف فانها تابعة لاستعارة الاسد للشجاع والبحر للعالم فلو لم تكن هذه الاستعارات تابعة لتلك الاستعارات الاخرى ولم تكن مقصودة فى أنفسها بل قصد بها الدلالة على تلك الاستعارات الأخرى كانت كناية عنها وذلك لا ينافى كونها فى أنفسها استعارات على قياس ما عرفت من أن الكناية لا تنافى ارادة الحقيقة فالافتراس مع كونه استعارة مصرحا بها كناية عن استعارة الاسد للشجاع (١)

ويقول السيد موضحا رأى الزمخشرى فى أن الرادف المذكور لا يشترط فيه إرادة المعنى الحقيقى يقول (فان قلت : لو كان النقض مثلا مستعملا فى إبطال العهد لم يكن شيء من روادف المستعار المسكوت عنه أعنى الحبل مذكورا فلا يصح قوله ثم يعمدون إليه بذكر شيء من روادفه فوجب أن يكون النقض وحظائره من قرائن الاستعارة بالكناية مستعملة فى معانيها الحقيقية التى هى من روادف المستعار المسكوت عنه وحينئذ يكون إثباتها للمستعار له على سبيل التخييل فيصح أن الاستعارة المكنية تستلزم التخييلية ؟ قلت لما صرح باستعمال النقض فى إبطال العهد علم أنه أراد بذكر الروادف ما هو أعم من أن يراد به معناه الأصلى الذى هو الرادف الحقيقى او يراد به ما هو شبيه بذلك المعنى نُزّل منزلته فإن النقض من روادف الحبل

---

(١) حاشية السيد الشريف ص ٢٠٣

أما إذا أريد به معناه الحقيقي فظاهر وأما إذا أريد به معناه المجازي فلأنه إذا نزل منزلة المعنى الحقيقي وعبر عنه باسمه صار رادفا للمحمل أيضا فالرادف على الاول مذكور لفظا ومعنى حقيقة ومعنى ادعاء وكلاهما يصلحان قرينة الاستعارة بالكناية (١)

وعلى ذلك فقرينة المكنية يجوز أن تكون استعارة تخييلية كما يجوز أن تكون تحقيقية فصاحب الكشاف وإن كان يرى أن قرينة المكنية إثبات لازم المشبه به إلا أنه يقسم اللازم قسمين باعتبار ما اثبت له فالمشبه إما ان يكون له رديف يمكن ان يستعار له رديف المشبه به أولا، والثاني مثل يد الشمال فاثبات اليد للشمال قرينة المكنية واستعارة تخييلية والأول مثل ينقضون عهد الله فللعهد رديف هو الابطال يمكن أن يستعار له النقض الذي هو رديف الحبل استعارة تحقيقية وإلى هذا المعنى اشار السيد الشريف نقلا عن صاحب الكشف الطيبي حيث قال بوعلى هذا تقول إن الرادف الذي به قد يكون مالا يستعمل والغرض منه التنبيه فقط كما في مخالب المنية وقد يكون مما يستعمل . وإن تفرع عن الأول كالنقض والاغتراف .. فهذا ما يدل عليه كلام جار الله من غير تكلف (٢)

ولكن هل يحمل كلام الزمخشري في إجراء قرينة المكنية تحقيقية متى أمكن على الوجوب أو الجواز؟ يشير أحد اساتذتنا إلى الاحتمال الثاني (٣) على حين يصرح الإسبايي بأن صنيع الزمخشري يشعر بأنه متى أمكن اجراء التصريحية في الرادف لا يلتفت إلى غيره فيكون كالواجب كما نقل عن المصنف قوله (كما يجعل التخييل بجعل النقض استعارة تحقيقية لابطال العهد يحصل بإثباته باقيا على معناه . (٤)

ومن صور التعسف في الفهم ما أثاره بعضهم حول اشتراط الشيوع في استعمال رادف المشبه به رادفا للمشبه أو عدم اشتراط ذلك وإن كانت المسألة في ذاتها جديرة بالبحث إلا أن موضع المؤاخذة في بناء المناقشة على أصل غير صحيح ذلك أنهم

---

(١) حاشية السيد الشريف ٣ ٢٠
(٢) المصدر السابق ص ٢٠٤
(٣) محاضرات في البيان د . يوسف البيومي ص ١٨٥
(٤) حاشية الاسبايي على الرسالة البيانية ص ٢٩٥

أداروا مناقشتهم على أن عبارة الزمخشري (من ابن نشأ إلى آخره) مع أن النص في الكشاف (سأغ) وعلى كل فإن الامبابي نفى أن يكون الشيوع شرطا في اعتبار التحقيقية حتى على افتراض وقوع الشيوع في عبارة الكشاف ويحمل القصد على خصوص الشاهد [1] (ومهما يكن من شيء فإن اعتبار الاستعارة في الرادف يضعف التخييل وتصوير الشبه في صورة المشبه به وتمثله في الخيال مصورا بصورته وهذا هو سر بلاغة الكتابة . إذ إنها تكون في أكثر أحوالها مظهرا لتصوير الحياة في الجماد أو تصوير المعاني وتجسيدها . أو تشخيصها كتصوير جهنم وأظفار المنية ويد الشمال وكفّ اليأس وهذا اللون من التصوير له سحره وتأثيره والذي يعين على ذلك كما قلت هو كون هذه الروادف مستعملة في معانيها الحقيقية فالافتراس في قولنا : شجاع يفترس أقرانه يكون أهون على تصويرنا له للشجاع في صورة الأسد وهيئته ما دمنا غير منصرفين عن معناه الحقيقي الذي هو فعل الأسد أما إذا انصرفت نفوسنا إلى معنى مجازي للافتراس أي شدة القتل مثلا فإن التصور حينئذ يكون قد أضعف في نفوسنا من الأول وهذا لا يقره ما يقرره فقهاء هذا الفن من أن اللفظ المستعمل في غير معناه لعلاقة المشابهة لا يتجرد من معناه الأصلي . فلفظ الأسد يصور في النفس صورة الحيوان المفترس وإن كان منقولا إلى الرجل الشجاع) [2]

وهناك مثال آخر يصور اتجاه الزمخشري واجراء الكتابة في آية مريم (واشتعل الرأس شيبا) يوضحها على هذا النحو : (شبه الشيب بشواظ النار في بياضه وإنارته وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه منه كل مأخذ باشتعال النار . ثم أخرجه مخرج الاستعارة ثم أسند الاشتعال إلى مكان الشعر ومنبته وهو الرأس وأخرج الشيب تمييزا فصحت هذه الجملة وشهد لها بالبلاغة [3]

اعتبار الاستعارة في الفعل تبعية :

سيأتي أن السكاكي يخالف البلاغيين في رده التبعية إلى الكتابة واعتباره الكتابة في قرينة التبعية أما الزمخشري فقد يجري الاستعارة في الفعل تصريحية تبعية .

---

(١) حاشية الامبابي على الرسالة البيانية ص ٢٩٦ وينظر حاشية الشهاب جـ٦ ص ٢٠٥
(٢) البلاغة القرآنية ص ٤١٧ ، ٤١٨
(٣) الكشاف جـ٢ ص ٢٢٠

فإنه يصرح على هدى عبد القاهر بأن الاستعارة فى الفعل لا تجرى فيه وإنما تجرى فى المصدر يقول تعليقا على آية الكهف : (فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ) : (استعيرت الإرادة للمداناة والمشارفة كما استعير الهم والعزم لذلك)(١) وواضح انه يجعل الاستعارة فى المصادر .

الحمل على المكنية فيما كانت قرينتها اسما :

وإذا كان صاحب الكشاف قد أجرى الاستعارة المكنية مع مجىء قرينتها فعلا كما فى الأمثلة السابقة فقد يصورها أيضا والقرينة اسما كما فى قوله تعالى " واخفض لهما جناح الذل من الرحمة " فقد أورد فى تأويل الآية احتمالين أولهما : ان يكون المراد بالجناح الجانب وأما الثانى فان يُجْعَل للذلة لهما جناحا خفيضا كما جعل لبيد للشمال يدا وللقرة زماما مبالغة فى التذلل والتواضع لهما)(٢)

وقد شعر بشىء من التقصير فى تحليله لمعنى تلك الاستعارة والتى هى من أبدع ما يصور مواقع كلمة الجناح فى صور الاستعارة (فقد جعل للذل جناحا وخيل بذلك أنه ذل سحاق فهو ذل فيه شموخ وإباء ويرفع صاحبه ولا يضعه ويعلو به ولا يهبط ويحمله على جناحه خفاقا به حول عرش الرحمن حيث يلتقى بالبررة من خلق الله الذين وصلوا أرحامهم ووطئوا للآباء أكنافهم وخفضوا لهم جناحهم)(٣) إلى شىء من ذلك لم يشر الزمخشرى بل ربما أوحى تقديمه للاحتمال الأول تقديم اعتباره ولو صح لفاته من أسرار تهامه هنا .

إدراك الزمخشرى لما فى المكنية من قدرة على التصوير والتشخيص

سبقت الإشارة إلى أن الزمخشرى يولى صور المكنية دون غيرها مزيد عناية واهتمام كاشفا عما انطوت عليه تلك الاستعارة من إيحاء وإثارة وسبنا قدرتها على التصوير والتشخيص ويظهر ذلك فى شرحه العديد من أساليبها يقول فى قوله تعالى

---

(١) الكشاف جـ٢ ص ٥٧٥
(٢) الكشاف جـ١ ص ٥٤٤
(٣) من اسرار التعبير القرآنى د . محمد ابو موسى ص ١٨

(وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا) جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه ، وهي من أحسن الاستعارات وأشهدها على البلاغة " (١)

ويمكن ان يقال بيانا للاستعارة على مقتضى كلام صاحب الكشاف انه قد شبه الملح والعذب بباغيين وقد وجد بينهما ما يمنع مجاوزة أحدهما حد صاحبه ثم حذف المشبه به ودل عليه بلازمه وهو البرزخ هنا

ويقول في قوله تعالى (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ "
(أخذت الارض زخرفها وازينت : كلام فصيح جعلت الارض آخذة زخرفها على التشبيل بالعروس إذا اخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها) (٢)

الاستعارة في الحرف بين المكنية والتبعية والتشيلية :

تحدث صاحب الكشاف عن التجوز في الحرف (وكان من أوائل من أبرزوا في دراساتهم هذا البحث) (٣) مع إفادته من بعض اشارات السابقين على نحو ما لاحظنا عند أمثال سيبويه وابن جني والمبرد . ومعلوم أن الاستعارة في الحرف كانت محل جدل بين المتأخرين فهل يعد التجوز في الحرف ذاته او في متعلقه او في مدخوله ؟

وعلى كل حال فقد كان للمكنية نصيب في الاعتبار كما هو صريح بعض المذاهب أو ما تؤول إليه مذاهب أخرى على ما سيأتي الحديث عنه مفصلا في موضعه .

وأما ما يعنينا الآن فهو الحديث عن موقف الزمخشري وكيفية توجيهه لهذا التجوز وكيف أول العلماء بعده كلامه ونكتفي هنا بمثالين :

الاول : ما ذكره في قوله تعالى " فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا "
قال (اللام في ليكون هي لام كي التي معناها التعليل : كقولك جئتك لتكرمني

(١) الكشاف جـ٣ ص ٢٢٦
(٢) المصدر السابق ص ٤١٩
(٣) البلاغة القرآنية ص ٤١٩

سواء بسواء ولكن معنى التعليل فيهـا وارد على طريق المجاز دون الحقيقة لأنهم لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا ولكن للمحبة والتبنى فجرى ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعى الذى يُفْعَل الفعل لأجلـه وهو الإكـرام الذى هو نتيجة المحبة والتأدب الذى هو ثمرة الضرب فى قولك ضربته ليتأدب .

وتحريره أن هذه اللام حكمها حكم الاسد حيث استعيرت لما يشبه التعليـل كما يستعار الاسد لما يشبه الاسد) (١)

واجراء التشبيه فى العداوة والحزن والمحبة والتبنى يُظْهِر أن الاستعـارة وما بنيت عليه من تشبيه يجريان فى مدخول الحرف على حين .

قوله بعد ذلك : وتحريره ان هذه اللام حكمها حكم الاسد يقطع بان التجوز فى الحرف ذاته على أن له إشارات تفسد اجراء التجوز فى مدخول الحرف فقط ومن هنا يصعب الأخذ بالتسليم وأن يقال مثلا إن الزمخشرى يعد أطناب الاستعارة التبعية إلـى الحرف

فالأمر كما قلت غير قاطع وموضع اختلاف فى تأويل عبارته على نحو يتضح اكثر فـى المثال الثانى وهو قوله تعالـى :

اولئك على هدى من ربهـم) يقول (ومعنى الاستعلاء فى قوله : على هـدى مثل لتمكنهم من الهدى واستقرارهم عليه وتمسكهم به شبهت حالهم بحال مـن امتطى الشىء وركبه وتحوه هو على طريق الحق وعلى الباطل وقد صرحوا بذلك فى قولهم جعل الغواية مركبا وامتطى الجهل واقتعد غارب الهوى) (٢)

وقد كانت تلك الآية وتوجيه كلام الزمخشرى مجال مناظرة مريرة بين السعـد والسيد اذ اخذ السعد حملا على ظاهر قول الكشاف امكان اجتماع التبعية والتمثيلية

---

(١) الكشاف جـ٣ ص ٣٠٦
(٢) الكشاف جـ ١ صـ١٤٤

ويرد السيد مناقشا ومبطلا ما رآه السعد حاملا ما فى الآية على احد ثلاثة اوجه :-

الاول : ان يشبه الهدى بالمركوب الموصل إلى المقصد ويثبت له من لوازمه من الختم على طريق المكنية

وأما الوجه الثاني فالحمل على التبعية والثالث الأخذ على التشبيه على تفصيل .(١)

وإن كان أكثر المحققين على مذهب السعد (٢) وقد رجح عبد الحكيم احتمال التبعية فى كلام السيد إذ المقصود مدح المتقين بأنهم مستقيمون على الهدى ووصفهم بالمبالغة فيه ولا يناسب حمل الآية على المكنية إذ ليس المقصود المبالغة فى الهدى لكونه فردا من المركوب (٣)

المكنية مراد الزمخشري بالمجاز :

قسم صاحب الكشاف المجاز إلى قسمين استعارة وتمثيل ويعرض لبعض الآيات الكريمة المحتملة لكلا النوعين موجها الاستعارة بما يجرى على طريقة المكنية عند المتأخرين يقول جار الله فى قوله تعالى " ختم الله على قلوبهم " فان قلت ما معنى الختم على القلوب والاسماع وتغشية الابصار ؟ قلت : لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة وإنما هو من باب المجاز ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه . وهما الاستعارة والتمثيل أما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم لأن الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرها من قبل اعراضهم عنه واستكبارهم عن قبوله واعتقاده وأسماعهم لأنها تجتنبه وتنبو عن الاصغاء إليه وتعاف استماعه كأنها مستوثق منها بالختم وأبصارهم لأنها لا تجتلى آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة كما تجتليها أعين المعتبرين المستبصرين كانما غطى عليها وحيل بينها وبين الادراك . (٤)

---

(١) حاشية السيد ص ٢١١
(٢) حاشية الخضرى على السمرقندى ص ٨٤
(٣) المصدر السابق ص ٨٥
(٤) الكشاف جـ ١ ص ١٥٥

وواضح أن مراده بالاستعارة هنا ما عرفت عند المتأخرين بالمكنية ، حيث ذكر شبه القلوب والأسماع بأشياء يستوثق منها بالختم فصارت كأنها مستوثق منها كما يقول . وهذا ما جعله السيد أحد الوجوه الثلاثة المحتملة في شرحه على المفتاح ونقله عنه الخضري " [٢] وإن كان السعد لا يرضى بهذا الفهم ويقول إنه يريد تشبيه عدم نفوذ الحق إلى القلوب وتحقق نبو الأسماع عن قبوله بالختم عليها أي بكونها مختوما عليها على ما ينبغي عنه قوله (كأنها مستوثق منها بالختم ويشبه عدم اجتلاء الأبصار للآيات والأدلة بالتغشية عليها ثم يضيف: وقد يتوهم من ظاهر عبارة الكشاف أن المشبه هو القلوب والأسماع ومن هنا ذهب بعضهم في القول الأول إلى أن القلوب استعارة بالكناية والختم تخييل ولا يخفى على من له قدم في علم البيان أن الأولى ما ذكرنا . [٣]

وأن قوله تجعل القلوب إلى آخره بمنزلة قولك يجعل الحال لكونها دالة على كذا كأنها ناطقة به وأن عبارته ظاهرة في أن الختم والتغشية مجاز [٤]

وقول الزمخشري تجعل القلوب لا يصح تنزيله منزلة قولك تجعل الحال لكونها دالة كأنها ناطقة وذلك لأن هذا يكون بعد بيان الاستعارة في تعلقت وحينئذ يكون جعلها كأنها ناطقة تبعا لهذه الاستعارة أما أن تقول ابتداء في تعلقت الحال جعل الحال كأنها ناطقة فإنه لا يفهم منه إلا طريق الاستعارة المكنية فإذا كان كلام الزمخشري خاليا سايدل على أن التشبيه في لفظ الختم فليس ما يدعو إلى جعل كلامه عن القلوب والأسماع بمنزلة القول في تعلقت لأنه يأتي هنا ك تبعا وقد نقل الشهاب الخفاجي كلام سعد الدين وعلق عليه بقوله : "وهو كلام حسن ثم ذكر أصلا يفرق به بين المكنية والتبعية وهو أصل دقيق نحوض اليه في موضعه إن شاء الله .

وإذا كان كلام صاحب الكشاف يفيد الحمل على طريق المكنية فإن هذا لا يمنع القول بأن الأولى أن تكون الآية من قبيل التبعية إلا أن هذا شيء

---

(١) البلاغة القرآنية ص ٤١٣
(٢) حاشية الخضري ص ٩٨
(٣) حاشية السعد ورقة ٣٧
(٤) حاشية سعد الدين ورقة ص ٣٦

بالحيل على سبيل الاستعارة لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين ومنه قول ابن التيهان في بيعة العقبة : يا رسول الله إن بيننا وبين القوم حبالا ونحن قاطعوها فنخشى ان الله عز وجل أعزك وأظهرك أن ترجع إلى قومك ،وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر المستعار ثم المستعار يرمزوا اليه بذكر الشيء من روادفه فينبهوا بتلك الرمزة على مكانه،ونحو قولك شجاع يفترس أقرانه وعالم يغترف منه الناس لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأنهما أسد وبحر) [1] وقد علق السيد الشريف على هذا بقوله : يريد بيان الاستعارة بالكناية [2] على المعنى الذى سبق التنبيه عليه على أن ما فى قول ابن التيهان إنما هو استشهاد لاستعارة الحبل للعهد صريحا ثم القطع للنقض [3] .

- ويفهم من نص الزمخشرى أن المستعار هو لفظ المشبه به المحذوف المرموز إليه بشيء من لوازمه كما قال السعد [4]

وهنا يبدو وجه المخالفة بين الزمخشرى وعبد القاهر والذى يتبين الاستعارة أصلا على ما اعتبره صاحب الكشاف دليلا لها على أن المكنية على اعتبار الزمخشرى تحقيقية لأننا نستعير اسم المشبه به لشيء محقق هو المشبه كاستعارة الحبل للعهد والعهد له تحقق ووجود فى العقل وانما سميت مكنية لحذف المشبه به وعدم التصريح به وثمة مسألة أخرى اثارت جدلا واسعا بين الشراح فقد فهم من كلام الزمخشرى انه يمكن أن تكون قرينة المكنية تحقيقية (والتحقيقية عند صاحب الكشاف ما وقع التجوز فيها بنفس اللفظ وهى التصريحية وهى أعم من تحقيقية السكاكى لصدقها على تخييلية التى هى اللفظ المستعار لأمر متخيل غير محقق لا حسا ولا عقلا " ([5] فقد شبه إبطال العهد بالنقض ثم حذف المشبه واستعير اسم المشبه به له ثم اشتق ينقض بمعنى يبطل على سبيل التصريحية وحينئذ لا تكون قرينة المكنية تخييلية على ما قد يظن البعض إذ أن التصريحية لا تكون تخييلية الا عند صاحب المفتاح [6] كما سنفصله عند الحديث عن مذهبه . ويبقى الاشكال

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٩٠
(٢) البلاغة القرآنية ص ٤١٩
(٣) حاشية الشهاب جـ ٢ ص ١٠٤
(٤) مختصر المعانى للسعد على التلخيص ص ٢٩٠
(٥) حاشية الانبابى على رسالة الصبان ص ٢٩٦
(٦) حاشية الخضرى على شرح الملوى على السمرقندى ص ٢٨ ط الازهرية سنة ١٣٤٩ هـ

والقول بان الزمخشري يفيده شيء آخر، وأما مراده بالتشبيل في الآية فقد بينه سعد الدين وهو مصيب . حيث يقول أما وجه التشبيل فهو أن يشبه حال القلوب والأسماع والأبصار بحال أشياء مخلوقة للانتفاع بها مع المنع من ذلك بطريق الختم والتغطية، ثم استعمل في المشبه اللفظ الدال على المشبه به أي التشبيل هنا استعارة تمثيلية . (١)

وقد تأتي عبارة الكشاف محتملة للمكنية والتشبيلية وان كانت المكنية تحقق أمر التخييل المراد . يقول في قوله تعالى " وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ " هذا مثل كأن الغضب كان يحثه على ما فعل ويقول له : قل لقومك كذا وألق الالواح وجر برأس أخيك إليك فترك النطق بذلك وقطع الاغراء ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستصحها كل ذي طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ولأنه من قبيل شعب البلاغة وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة ولما سكن عن موسى الغضب لا تجد النفس عندها شيئا من تلك الهزة وطرفا من تلك الروعة . (٢)

وقد حمل بعض العلماء كلام الكشاف على أنه يريد الاستعارة التشبيلية وهو تكلف ظاهر . (٣) لأن ما في الآية هو الغضب وليس هو على تصوير الاستعارة شبيها به فحمل الآية على المكنية هو المعتبر . (٤) وهو يحقق التخييل الذي استحسنه الزمخشري .

المكنية والتشبيل والتخييل :

قد يطلق الزمخشري التشبيل أو التخييل على بعض الأمثلة المحتملة في ذاتها للمكنية مازجا بين الاصطلاحين من غير تفرقة بينهما أحيانا أو بناء الأمر على احتمال أيهما مع التفرقة حينا آخر .

---

(١) حاشية السعد على المفتاح ص٣٦
(٢) الكشاف جـ١ ص ٣٥١
(٣) الايضاح للاستاذ احمد الحجار ص١٩٦
(٤) البلاغة القرآنية ص ٤١٨

ولكن وجدناه احيانا يفرق ويجعل الكلام إما تمثيلا وإما تخييلا يقول جار الله الزمخشري في قوله تعالى (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) " يقول في الآية " وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل ويجوز أن يكون تخييلا ويبني الأمر فيه على أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما ائتيا شئتما ذلك أو أبيتما فقالتا أتينا على الطوع لا على الكره والغرض تصوير أثر قدرته في المقدورات لا غير من غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب ونحوه قول القائل قال الجدار للوتد لِمَ تشقني قال الوتد اسأل من يدقني فلم يتركني وراني الحجر الذي وراني " (١)

وكلام الزمخشري واضح في أن هناك فرقا بين تحليل الأسلوب على طريق التمثيل وبين تحليله على طريق التخييل .

فطريقة التمثيل هي طريقة الاستعارة التمثيلية في مفهوم المتأخرين أما طريقة التخييل فهي أقرب إلى غرض الأشياء وتخييلها كالمحاورة بين الجدار والوتد ونداء الأرض وإجابتها وربما دخل في هذا القصص على السنة الحيوان فهو باب الخيال الحر الذي يتسع وزالخيال السدود في صور الاستعارة وقد لاحظ ذلك الشهاب وفي أن يكون المقصود بالتخييل في كلام صاحب الكشاف تخييل الاستعارة بالكناية وقد يرى غير الزمخشري توجيه امثال تلك الآية الكريمة على مقتضى الكنية يقول الدكتور احمد بدوي وقد يجسم القرآن المعنى ويهب للجماد العقل والحياة زيادة في تصوير المعنى وتشخيله للنفس وذلك بعض ما يعبر عنه البلاغيون بالاستعارة الكنية ومن تعقيل الجماد قوله سبحانه (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض الآية) وفي هذا التعبير ما يدل على خضوعها واستسلامها " (٢)

ويقول الدكتور عبد القادر حسين وهو بصدد تناول شواهد الكنية بالتحليل (وفي الحوار الذي يدور بين الخالق وبين السماء والأرض فيلقى عليها السؤال ويتلقى منها الإجابة والسماء والارض من الجمادات التي لا تسمع ولا تعي ولا تجيب فوهب لها فكر الآدميين وعواطفهم الإنسانية فيها يحسان ما حولها ويرهفان السمع وبإنسان بكلام الله فيسرعان إلى تلبية الأمر والانقياد للقدرة الالهية . ترى ذلك في

---

(١) الكشاف جـ ٣ ص ٤٤٥ ، ٤٤٦
(٢) من بلاغة القرآن د . احمد بدوي ص ٢٢١

فى قوله تعالى " ثم استوى الى السماء وهى دخان .فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها قالتا آتينا طائعين " (١)

ولا ريب أن حمل تلك الأساليب ونظائرها على باب التمثيل أولى وأدق وأكثر تأثيرا فى النفس لأن هذا الضرب يقوم على أخذ الزبدة من الكلام غير ملتفت إلى ما عليه حال الكلام مفردا من كونه حقيقة أو مجازا بل يصرف الفكر كله إلى ما وراء هذا التصوير من غرض وقد جعل الزمخشرى فهم التصوير على هذا النحو أدق والطف ابواب علم البيان .

الكنية مراد الزمخشرى بالمثل :

وقد يذكر صاحب الكشاف المثل ويوجه بما يتفق وطريقة الكنية يقول فى قوله تعالى (وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (ونبذوه وراء ظهورهم مثل لتركهم وإعراضهم عنه مثل بما يُنبَذ به وراء الظهر استغناء عنه وقلة التفات إليه) (٢)

وواضح أن شرح الزمخشرى للمثل فى الآية الكريمة يجرى على طريق الكنية فعلى مقتضى كلامه يكون كتاب الله وهو التوراة أو القرآن الكريم قد شبه بشىء يقذف به وراء الظهر والعلاقة عدم الاعتداد وحذف ودل عليه يرد به وهو النبذ .

---

(١) القرآن والصورة البيانية د . عبد القادر حسين ص ١٥٨
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٣٠٠

وهكذا يمكن القول : إن صاحب الكشاف قد خطى بالمكنية خطوة مهمة على طريق الضبط والتحديد بحيث يقال إنه له مذهبا خاصا فيها. فهى عنده عبارة عن لفظ الشبه به السكوت عنه المرموز له بذكر رديفه . وقد أتضح من كلام الزمخشرى . ومناقشات العلماء حوله ان قرينه المكنية قد تأتى استعارة تحقيقية وهذا يعنى أن المكنية ؛ لا تستلزم التخيلية كما هو الحال عند الخطيب والمذهب المنسوب الى الجمهور على ما سياتى . كما ظهر أيضا أن كلامه فى الاستعارة بالحرف غير قاطع فى الحمل على طريق بعينه . فقد اجرى التجوز حينا فى متعلق الحرف كما اجراه فى مدخوله احيانا أخرى بما يتفق وطريقه المكنية . وقد بدى إدراك الزمخشرى الواعى لقيمة هذا الضرب وأثره فى التصوير وما له من قدرة على التشخيص . ولا عليه بعد ذلك أن رأيناه يدرس بعضا من صوره تحت مصطلحات عديدة حسبن كانت مراده بالتمثيل أو المجاز أو المثل . اذ الأهم أنما هو ادراك الخصوصيات التى يمتاز بها كل فن بلاغى على صاحبه عن طريق التحليل الكاشف والمستشرف اسرار الكلام ومراميه . ولاريب ان لصاحب الكشاف القدح المعلى فى كل ذلك .

وعلى كل حال فقد كانت لدراسات الزمخشرى حول هذا الضرب آثار حقيقية على الدراسات البلاغية بعده بدى ذلك واضحا فى تلك المناقشات التى دارت لمحاولة فهم كلامه وتأويل مرادة على ما رأينا عند السعد والسيد والشهاب الخفاجى . وكذلك الفخر الرازى حيث كان تأثره بصاحب الكشاف واضحا فى جوانب عديدة من هذا المبحث الى حد يصل احيانا الى نقل نص كلامه . وسيتداد هذا الامر وضوحا فى المبحث الثانى .

مع الفخر الرازى ت ٦٠٦ هـ [1]

وسيما كان الخلاف حول دراسة الرازى وأثرها على البحث البلاغى فإن الذى لا شك فيه أن ما قام به الفخر يعد ذا قيمة حقيقية يتجاوز وضع الحدود والمصطلحات التى ما زالت مستعملة حتى الآن إلى كثير من الإضافات المهمة فى مباحث بلاغية عديدة وسيظهر ذلك من خلال حديثنا عن الاستعارة المكنية والتخييلية عنده .

الرازى والاستعارة :

خص الرازى الاستعارة بقاعدة مستقلة كما فعل بالتشبيه وهو يراها من البديع كما كان يراها الشيخ عبد القاهر واسامة بن منقذ وابن ابى الاصبع ، وكما كان يراها ايضا ابن المعتز والآمدى من قبل .

حدود الاستعارة عند الرازى :-

يقول العلوى عن الرازى موضحا بعض خصائص منهجه (وكان مولعا بتكثير التقسيم وله شغف به) [2] وهذا حق حيث أورد الرازى كثيرا من التعريفات الخاصة بالاستعارة وناقش وعرض فقد نقل تعريف الرمانى غير محرر [3] وابطله بوجوه منها انه لا يشمل الاستعارة التخييلية [4] مع أن الرازى سبق أن عرف الاستعارة بأنها (عبارة عن نقل الاسم عن أصله إلى غيره للتشبيه بينهما على حد المبالغة) [5] وظاهر أن هذا التعريف لا يشمل التخييلية أيضا لعدم بنائها على نقل أصلا كما هو مذهبه ومذهب استاذه الشيخ فيها لكن الرازى يعود بعد ذلك فيذكر للاستعارة تعريفين :

الأول : أن (الاستعارة ذكر الشىء باسم غيره واثبات ما لغيره له لأجل المبالغة فى التشبيه فذكر الشىء باسم غيره يدخل فيه الاستعارة التصريحية وأما ما يكون باثبات ما لغيره له فيدخل فيه الاستعارة التخييلية ويقول عن التعريف الثانى : (ولك ايضا

---

(١) تاريخ علوم البلاغة ص ١٠٧
(٢) الطراز ليحى بن حمزة العلوى جـ ١ ص ٧٧
(٣) ينظر النكت للرمانى ص ٨٥ ونهاية الايجاز ص ٨١
(٤) نهاية الايجاز ص ٨٢
(٥) السابق ص ٥٥

أن تقول : الاستعارة عبارة عن جعل الشيء الشيء أو جعل الشيء للشيء لأجل المبالغة في التشبيه فجعل الشيء الشيء هو ما تتحقق به التصريحية كما ان جعل الشيء للشيء ما يتحقق به التخييلية كقوله إذا اصبحتيد الشمال زمامها فانك اثبت اليد للشمال وغرضك أن تبالغ في تشبيهه بالقادر في التصرفية) [1] ولو قال الرازي في التعريف الأول أو إثبات إلى آخره وفي التعريف الثاني : أو جعل إلى آخره لكان أولى وأول على التمييز بين النوعين .

الرازي يضع مصطلح الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية :

من الثابت أنه لابد لاكتمال (كل دراسة من اصطلاحات وهذه ليست مسألة ألفاظ أو مسالة ثانوية ففي الاصطلاحات عادة تتركز مبادىء كل علم أو فن ولكم من مرة في التاريخ البشري نشأت علوم جديدة بفضل خلق اسم لها يدل على موضعها ومناهجها . [2]

وإذا كان الأمر كذلك يصبح من الحق علينا الاعتراف للفخر الرازي بالفضل لأنه فيما نعلم أول من وضع اصطلاح الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية بالإضافة إلى كثير من المصطلحات الخاصة بالاستعارة على النحو الذي تعرف به حتى الآن ، فلم يعرف اصطلاح الاستعارة بالكناية إلا في كتاب نهاية الايجاز [3] على خلاف ماقد يُظن من أن السكاكي صاحب الفضل في تلك المسألة وربما كان الرازي أيضا هو الذي وضع مصطلح التجريد وكذلك مصطلح الترشيح على المعنى الذي عرف به عند المتأخرين كما تكلم عن أنواع الاستعارة باعتبار الحسية والعقلية من حيث الطرفين والجامع على نحو تابعه فيه المتأخرون كذلك .

تبقى مسألة أصالة تلك المصطلحات أو نقلها موضع نقاش واختلاف فعلى حين يؤكد أحد الباحثين ان مصطلحات البلاغة العربية لم تنقل عن اليونان [4] يؤكد آخرون كالدكتور مندور على تأثر علمائنا العرب في تلك المسألة أو نقلهم عن اليونان أو الفرس كما يرى الدكتور شوقي ضيف . [5]

---

(١) السابق ص ٨٢
(٢) النقد المنهجي ص ٦١
(٣) البلاغة القرآنية د . ابو موسى ص ٤١٦ والفخر الرازي والبلاغة العربية د . جلال الذهبي القاهرة ص ٠٠
(٤) ينظر البلاغة عند السكاكي احمد مظلوم ص ٢٩
(٥) النقد المنهجي ص ٦١
(٦) البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٧٥

وان صح النقل والتأثر مع بعض المصطلحات البلاغية فإن الأمر بالنسبة للاستعارة بالكناية وكذا الاستعارة التخييلية يختلف بما يؤكد الأصالة فى كل منهما إذ المصطلح المقابل للاستعارة المكنية عند ارسطو إنما هو : وضع الشيء تحت العين أو نصب العين وهو كما قيل قد أخرج هذا اللون عن دائرة الاستعارة وتسميه البلاغة الغربية التشخيص (١) ثم إن الألفاظ التى ركبت منهما هاتين الاستعارتين ذات دلالات مستمدة من أصول لغوية وإذا كان الرازى هو صاحب الفضل فى وضع مصطلح الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية فما مفهومه لكل منهما ؟

الرازى والاستعارة المكنية :

يفهم من كلام الرازى أُنمرى أن الاستعارة بالكناية هو المستعار منه الذى حذف وذكر بعض لوازمه تنبيها به عليه . يقول الرازى بيانا لهذه الاستعارة : (هذا إنما يكون إذا لم يصرح بذكر المستعار بل ذكر بعض لوازمه تنبيها له عليه . ويلاحظ أن ما قاله الرازى هنا يقترب من مفهوم الزمخشرى (٢) لها كما سبق.هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يكاد يتفق والمذهب المنسوب للجمهور ويؤكد ذلك تطبيق الرازى وإيضاحه أمر هذه الاستعارة على بيت أبى ذؤيب المشهور فى المكنية

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ..... البيت

حيث يقول فكأنه حاول استعارة السبع للمنية لكنه لم يصرح بها بل ذكر لوازمها تنبيها بها على المقصود . (٣)

وقد يكون من المفيد فى إيضاح رأيه هنا أن نسمع ما قاله فى تفسير قوله تعالى : "وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ " قال : " فان قيل : كيف أضاف الجناح إلى الذل والذل لا جناح له ؟ قلنا : فيه وجهان : الأول : أنه أضيف الجناح إلى الذل كما يقال حاتم الجود فكذلك أن المراد هناك حاتم الجواد فكذلك المراد هاهنا : واخفض لهما جناحك الذليل وعلى هذا الوجه يكون ـ الجناح ـ مستعارا للجانب وقد ورد كذلك فى قوله تعالى : " وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ "

(١) السابق ص١٦٣ ، والقول ومذاهبه فى الشعر العربى د . شوقى ضيف ص ٢٣٦
(٢) ينظر الكشاف جـ ١ ص ٤٨
(٣) نهاية الايجاز ص ٩٢

الثانى : أن مدار الاستعارة على الخيالات فيها هنا تخيل للذل جناحا ، وأثبت لذلك الجناح خفضا تكميلا لأمر هذه الاستعارة كما قال لبيد : إذ اصبحت بيد الشمال زمامها فاثبت للشمال يدا ووضع زمامها - القرة - فى يد الشمال فكذلك هاهنا) (١)

ويفهم من كلام الرازى فى الوجه الثانى أمور يحسنيا منها هنا أن فى بيت لبيد وغداة ريح ... استعارة مكنية يد الشمال - واخرى فى - زمامها - وأن الثانية جاءت مرشحة للأولى من جهة - وضع الزمام بيد الشمال .

الرازى والاستعارة التخييلية :

عقد الرازى فصلا خاصا بالاستعارة التخييلية وهو وإن لم يذكر فيه تعريفا خاصا بها لكن يؤخذ من كلامه فى اكثر من موضع انه يرى أن الاستعارة التخييلية هى إثبات لازم المشبه به المحذوف للمشبه بدليل قوله السابق فخيل للذل جناحا : وقوله أيضا إثبات الجناح للذل استعارة تخييلية

وعلى ذلك فهذه الاستعارة تعنى عند الرازى ما كانت تعنيه عند عبد القاهر من إثبات الشئ لما ليس له حقيقة على ما مر فى موضعه .

وقد ذكر الرازى أن اكثر الآيات التى يتمسك بها أهل التنبيه من هذا الجنس (التخييلية) ومنها أيضا قوله تعالى "وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ فاثبات الذل استعارة تخييلية (٢) وحمل بعض آيات المتشابه على التخييلية قال به عبد القاهر (٤)

كما أن صاحب الطراز ذهب إلى دخول آيات المتشابه فى هذه الاستعارة لكن على مفهوم آخر يأتى قريبا فى موضعه ان شاء الله .

---

(١) الفخر الرازى والبلاغة العربية د . محمد جلال الذهبى ص ٢٠١ ، ٢٠٢

(٢) نهاية الإيجاز ص ٩٥
(٣) السابق ص ١٠٢
(٤) الاسرار جـ ١ ص ١٤٣

ويقول استاذنا الدكتور جلال الدين الحمزاوي إن الرازي أول من وضح للاستعارة بالكناية اسمها وكذلك أول من أطلق على التخييلية هذا الاسم وأول من أشار إلى التلازم بين المكنية والتخييلية والحق أنه تحدث عن الاستعارة التخييلية حديث القاهر فبين تسميتها للمكنية لأنها — التخييلية — تقوم على إثبات ما به يكمل الوصف — المشبه — للمشبه به مبالغة في إثبات الوصف له) [1] فقد قال في تعليقه على قول لبيد السابق وغداة ريح .. قال : فالشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالحيوان المتصرف إلا أن تصرف الحيوان إنما يكون باليد في أكثر الأمر فتكون — اليد — كالآلة التي بها تكمل القوة على التصرف ، ولما كان الغرض إثبات وصف المتصرفية وذلك مالا يكمل إلا عند ثبوت اليد لاجرم اثبت اليد للريح تحقيقا للغرض ( ) [1]

ومن هنا نفهم اننا نرى عدم الانفكاك بين الاستعارات المكنية والتخييلية لأن الغرض الوصول إلى الكمال في الوصف وهذا لا يكمل إلا عند إثبات لازم المشبه به للمشبه وهذا الإثبات هو التخييلية وهذا يشير من جانب آخر إلى أن الاستعارة التخييلية ليست مجرد قرينة للمكنية ، شأنها في ذلك شأن لفظ — غدى — في قولنا : غدى أسد بل إن لها مهمة أخرى بجانب كونها تشير إلى المحذوف وهي أن إثباتها تحقق الغرض من المكنية وهو المبالغة في تصوير المشبه بصورة المشبه به [2]

بين النقل والعقل :

والراجح عند الرازي اختيار الاستعارة من قبيل التجوز مراعيا اللغوي مورداً ما اختاره تضارباً عند عبد القاهر آخذاً بما قال به في الأسرار ومعللا لما اختاره [3] دون ان يقف الاشكال الموارد على التخييلية والتي أصر عبد القاهر على عدم إمكان النقل فيها وتابعه في ذلك فكان الواجب أن يميز بين التخييلية وغيرها من هذه الناحية ما دام قد أخذ على عاتقه هذا التحديد والتمييز .

---

(١) الرازي والبلاغة العربية ص ٢٥٢
(٢) الرازي والبلاغة العربية ص ٢٠٢ ، ٢٠٣
(٣) نهاية الايجاز ص ٨٢

والمهم أن الرازى يصرح بانه لا مجال فى التخييلية للبحث عن شىء تنقل إليه اللفظ واستعمل فيه فليس للشمال شىء ينتقل اليه اسم اليد . (١)

(وكأنه يشير بذلك إلى أن اللفظ فى الاستعارة التخييلية ـ الملائم للمشبه به مستعمل فى موضعه وليس منقولا عنه واذا كان لا نقل فى اللفظ فانه لا مجاز فيه ومن ثم فإن الاستعارة هنا فى الإثبات وليست فى اللفظ) (٢)

بين الرازى وعبد القاهر والزمخشرى :

ولا ريب أن الرازى يرجع إليه الفضل فى إحكام بناء هذا اللون من الاستعارة ولا يمنع ذلك أن يكون الشيخ عبد القاهر قد تكلم عنها من حيث قيمتها الجمالية ومن حيث التمييز بينها وبين الضرب الاخر ـ التصريحية " وكما تحدث عنها الإمام عبد القاهر تحدث عنها صاحب الكشاف فى أكثر من موضع على ما سبق تفصيله إلا أن الزمخشرى لم يضع تسمية لهذا الفن مميزة له كما أنه لم يبين على وجه القطع مدى الصلة بين الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية ثم إنه لم يتعرض لهذه الأخيرة تعرضا يكشف عن حقيقتها ، فظل الفضل فى ذلك كله فى الحقيقة يرجع إلى الرازى) (٣)

التمييز بين ضربى الاستعارة :

ولم يقتصر جهد الرازى فقط على وضع المصطلحات وإنما حاول التمييز بين ضروب الاستعارة وخاصة فيما تفرق به المكنية والتخييلية عن التصريحية فبالاضافة الى التمايز الذى أوقفنا عليه على ضوء تعريفاته يذكر فرقا آخر فى الباب الذى عقده لأقسام الاستعارة والذى بدأه بقوله (اعلم أن الاستعارة تارة تعتمد نفس التشبيه وتارة لوازمه (فالأولى ما إذا اشترك شيئان فى وصف وأحدهما أنقص من الآخر فيعطى الناقص اسم الزائد مبالغة فى تحقيق ذلك الوصف كقولك ٠٠ غصت لنا ظبية ، وأنت تريد امرأة (وأما الثانى) فعندما تكون جهة الاشتراك وصفا إنما يثبت كما له فى المستعار منه بواسطة شىء آخر فيثبت ذلك الشىء للمستعار له مبالغة فى إثبات ذلك المشترك كقوله :

(١) السابق ص ٩٥
(٢) الرازى والبلاغة العربية ص ٢٠٣
(٣) السابق ص ٢٠٣ ، ٢٠٤

وغداة ريح قد كشفت وقرة اذ اصبحت يد الشمال زمامها

فالشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالحيوان المتصرف إلا أن تصرف الحيوان إنما يكون باليد في اكثر الأمر فتكون اليد كالالة التي بها تكمل القوة على التصرف - ولما كان الغرض إثبات وصف المتصرفية وذلك ما لا يكمل إلا عند ثبوت اليد لا جرم أثبت اليد للريح تحقيقا للغرض ... والدليل على ما قلناه إنه ليس للشمال شيء ينتقل إليه اسم اليد - ومن هذا الباب قولهم .. فلان مرخى العنان ملقى الزمام فانه ليس هناك شيء يجرى اسم العنان عليه بل المقصود انتزاع النسبة في حال مايرخى هاته فتأمل ما ذكرناه في الفرق فإنهم طولوا فيه وأدركوا كثيرا واعلم أن اكثر الآيات التي يتعلق بها أهل التشبيه من هذا الجنس مثل قوله وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي» وقوله «وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا - وفي معرفة هذا الاصل خلاص من تلك الإشكالات . (١)

ويظهر من هذا العرض والتحليل والتوجيه أن الرازي قد أفاد كثيرا مما ذكره عبد القاهر في تلك الاستعارة - التخييلية - كما أفاد كثيرا أيضا مما ذكره صاحب الكشاف ليخرج رأي الرازي في تلك الاستعارة على نحو لا يكاد يختلف نسب إلى الجمهور من مذهب في المكنية وسيزداد هذا الامر وضوحا عند الحديث عن هذا المذهب مفصلا في موضعه ان شاء الله.

المكنية في تطبيقات الرازي على اقسام الاستعارة :

عد الرازي باباً لتطبيق الأصول التي تختص بالاستعارة باعتبار الحسية والعقلية على آي القرآن ومن خلال تحليله لكثير من الاستعارات وتصويره لها يتضح ان تلك الاقسام الستة التي ذكرها مما تجرى على المكنية . وتحت دواعي البعد عن الاطالة نكتفي بايراد مثال واحد بقصد التدليل . فقد جعل قوله تعالى «وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا» من قبيل استعارة المحسوس للمحسوس بوجه محسوس مبينا الاستعارة بقوله : (فالمستعار منه النار والمستعار له الشيب والجامع هو الانبساط ولكنه في النار أقوى) (٢) فالاستعارة هذه ليست في الفعل : (اشتعل) كما هو الوجه الآخر

(١) نهاية الايجاز ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦
(٢) نهاية الايجاز ص ٩٩

وانما هي في الشبيه المشبه بالنار المحذوفة مدلولا عليها بالاشتعال ثم يلخص الرازي ما سبق أن قرره عبد القاهر في جعل الحسن في تلك الاستعارة مرجعه إلى النظم وإن كانت عبارة الرازي أكثر دلالة في جعله للاستعارة مدخلا في أمر التحسين وإن كان أكمل وأتم في الاسناد على مقتضيات النظم . (١)

ويلاحظ أن تحليل الرازي لتلك الاستعارة يقترب وما سبق أن ذكره صاحب الكشاف مع إختلاف يسير في العبارة على ما سبق بيانه عند الحديث عن الزمخشري

معايير حسن الاستعارة :-

عرض الرازي لهذه القضية لكن يلاحظ أنه كان متابعا في كثير من جوانبها لذلك تتناول اهم ما ذكره الرازي متصلا بالنكتة في إيجاز .. تمذكر الرازي في التفريق بين التشبيه والاستعارة من حيث القرب والبعد في الشبه وبالجملة فكلما كان وضع الشبه أخفى كان التصريح بالشبه أحسن ويخرج منه أن الاستعارة لا تحسن إلا حيث كان التشبيه متقررا بين الناس ظاهرا فأما أن يكون خفيا يستخرجه الشاعر أو غيره بذهنه فلابد فيه من التصريح بالتشبيه وإلا كان تكليفا بعلم الغيب .

واذا كان هذا هو الوضع الذي ينبغي أن تأتي فيه الاستعارة فإنه ليس معنى ذلك تساوى درجات الاستعارة إذا كان الشبه ظاهراً بيناً بل هناك بعد ذلك معيار لحسن الاستعارة عنده وهو وفاؤها بالغرض الذي سيقت له أي المبالغة في التشبيه والإيجاز والبيان .

وعلى هدى من هذا المقياس حكم الرازي على الاستعارة في قول أبي تمام (لا تسقني ماء الملام .... البيت) الاستعارة فيه لا تسقني ماء الملام - قبيحة لأنها ليس فيها فضل بيان ولا إيجاز لأن حقيقتها وهي " لا تلمني أوجز فيها وأبين (٢)

---

(١) السابق نفس المرجع والموضع
(٢) نهاية الايجاز ص ٩٤

وإذا كان معيار حسن الاستعارة في وفائها بتلك الأمور الثلاثة السابقة فانها تزداد حسنا بأمور أخرى منها إخفاء التشبيه وذلك بتأليف الكلام تأليفا يتعذر معه الافصاح بالتشبيه) (١)

وقد فهم أحد المعاصرين كلام الرازي على أنه يعني (ان الاستعارة التصريحية التي صرح فيها بالمشبه به أقل بلاغة وحسنا من الاستعارة بالكناية التي حذف منها المشبه به ورمز إليه بشيء من خصائصه لأن التشبيه في الاخيرة أكثر خفاء من الأولى فيكون بناء الاستعارة البليغة على تناسي التشبيه) (٢)

وعندي أن ما قال به الرازي لا يخص الكنية وحدها بل التصريحية أيضا ما دامت على شرطه بدليل أن ما استشهد به ينصرف إلى التصريحية على إيضاحه إذ قال تعليقا على بيت الشاعر :

أشارت أظبيةُ الكثيبِ بجيدٍ ... لجُناةِ الحُسنِ عنابا

فلو أردت أن تظهر التشبيه احتجت إلى أن تقول أشرت أصابع يده التي هي كالاغصان لطالبي الحسن فيه العناب من أطرافها المخصوصة) (٣) .

٢ ـ ضم استعارة إلى أخرى ليتم الحاق الكل بالكل كما فعل امرؤ القيس حين قال :ـ

فقلتُ له لما تمطّى بصلبه .... البيت

جعل الليل صلبا قد تمطى به ثم ثنى ذلك فجعل له أعجازا قد أردف بها الصلب وثلث فجعل له كلكلا قد ناء به فاستوفى جملة أوصاف الشخص) (٤) والرازي في ذلك متابع لما سبق أن قال به عبد القاهر في تلك المسألة وهو رأي أكثر النقاد والبلاغيين وإن خالف ابن سنان على تفصيل سبق في مواضعه .

٣ ـ ترشيح الاستعارة (يعد الرازي صاحب الفضل في إضافة هذا البحث بهذه التسمية إلى فن البلاغة ولا يخفى من هذا أن يكون لفظ الترشيح قد ورد على لسان الزمخشري) (٥)

---

(١) السابق ص ٩١ (٢) الصور البيانية د . مختار شرف ص ٢٨٤
(٣) نهاية الايجاز ص ٩١ (٤) السابق نفس الصفحة .
(٥) الرازي والبلاغة العربية د . جلال الدهبي ص ٢٠٧

ولكن كلام الرازى اكثر دقة وشمولا والمهم أن الرازى يرى جريان الترشيح فى الاستعارة بالكناية بدليل قوله : واثبت لذلك الجناح خفضا تكميلا لأمر هذه الاستعارة (وإذا جرى فيها الترشيح جرى كذلك الاطلاق والتجريد فيها) (١)

كما مثل الرازى لترشيح الاستعارة بقول النابغة :(وَصَدْرٍ أَرَاحَ اللَّيْلُ عَازِبَ هَمِّهِ ... البيت يضاف (فالمستعار هو : الإراحة ، ورشح بلفظ - عازب - لانه يلائم الاراحة (٢)

ومن كل ما مر يمكن ان نقرر فى اطمئنان أن دراسة الرازى للاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية وما يتصل بهما من أصول وأحكام تعد ذا أهمية خاصة ويمكن إيجاز ما قام به الرازى فيما يأتى :-

أولا : أن الرازى هو صاحب مصطلح الاستعارة بالكناية .

ثانيا : أن الرازى هو صاحب مصطلح - الاستعارة التخييلية .

ثالثا : أن الرازى يرى أن الاستعارة التخييلية هى قرينة المكنية .

رابعا : أنه يرى أن الاستعارة التخييلية تكون بإثبات اللازم .

خامسا : أنه يرى كذلك التلازم بين التخييلية والمكنية فلا توجد إحداهما منفردة .

سادسا : أن الاستعارة التخييلية ليس فيها نقل إذ هى حاصلة فى الاثبات فقط .

سابعا : يرى الرازى أن هذا اللازم واثباته للمشبه يؤدى إلى كمال الوصف فيه .

ثامنا : أنه يرى جريان الترشيح فى الاستعارة المكنية وإذا جرى الترشيح فيها جرى الاطلاق والتجريد فيها كذلك .

تاسعا : أن رأى الرازى فى كل من الاستعارة المكنية والتخييلية - يكاد يتفق والمذهب المنسوب الى الجمهور فى المكنية على ما سيتضح اكثر عند الحديث المفصل عن هذا المذهب .

---

(١) الرازى والبلاغة العربية ص ٢٠٢

(٢) نهاية الايجاز ص ٩٢

الفصل الثالث

الرجوع بصور المكتبة الى روح الدرس الأدبي

اولا : عند ابن الأثير

ثانيا : عند ابى الاصبع

ثالثا : عند العلوى

الرجوع بصور الكناية إلى روح الدرس الأدبي

أشرنا إلى أن منزع الرازي في معالجة الاستعارة بالكناية والتخييلية كان له تأثير عميق على ساحة البحث البلاغي بعده بحيث كاد أن يلغي المناهج الأخرى لولا أن بعضا من العلماء الأدباء النقاد مالوا إلى مراعاة طابع البحث الادبي بحيث أضحى لهم مواقف معينة تتصل بالكناية والتخييلية جديرة بالتناول .

مع ابن الاثير ت ٦٣٧ هـ [1]

يعد ابن الأثير من أكبر البلاغيين والنقاد المتأخرين تحررا وبعدا عن التقليد والسآمة ومن أكثرهم رغبة في التجديد مع إعجاب شديد بالنفس الأدبي الذي كان من ورائه ما نلحظه كثيرا عنده من إنكار لجهود السابقين أو تجاهل ما قالوه ربما بجحود المقر والمستعارف .

لكن الأمر الذي لا شك فيه (إن كتاب المثل السائر يعد من أعظم الكتب التي تناولت شئون البلاغة والنقد بعد عصر الزمخشري وأنه أثار كثيرا من القضايا) [2] وهو في طليعة كتب البلاغة التي تجمع التبويب إلى الفروق والتحليل) [3] والشيء الذي يمكن تأكيده هنا أن ابن الأثير لم يفدنا في معالجته لصور الكناية من رجال المدرسة الخوارزمية البارزة الملامح بمقدار ما أفاد من غيرها [4] لكن لا يصل بنا الأمر إلى القطع بكونه لم يطلع على ما كتب عبد القاهر أو أنه لم يلتق بدراسة السكاكي على ما يراه بعض أساتذتنا . [5]

نفرق بين نفي الصلة والتأثر أصلا إيجابا أو سلبا وعدم الإفادة وهو ما نميل إليه لما يدل عليه الاتجاه العام لابن الاثير والنوازع التي حكمت دراسته والتي كانت تدعوه إلى المخالفة حتى يظهر وكأنه يأتي بكل جديد ويبدو ذلك نحاما في بحثه لصور

---

(١) ينظر وفيات الاعيان لابن خلكان جـ٢ ص ٢٠٨
(٢) البلاغة القرآنية د . ابو موسى ص ٥٣٩
(٣) تاريخ النقد العربي د . زغلول سلام ص ٢٦٤
(٤) البلاغة القرآنية ص ٤٣٩
(٥) صور من تطور البيان العربي ص ٢٠٨

الكتية فهي مجاز عنده ولكن ليست باستعارة وإنما هي توسع .

وموضع الطرافة هنا أنه يعود بنا إلى عهود ماضية كما قد يُرى في ذلك لأول النظر ما يرضي بعض المحدثين حين يجدون فيه خروجا على كثير من المشكلات التي صاحبت دراسة الكتية لونا استعاريا ... وإن لم يكن الأمر في حقيقته سوى استبدال توهم لمشكلات الكتية وهذا يستدعي شيئا من التفصيل نبدؤه بالإشارة الى موقفه من المجاز

في الحق أن ابن الاثير قد امتاز موقفه بقبل المجاز بالاتزان في مقابل اتجاهي التطرف، فقد أخذ بالوسطية كما قد تجلى اعتداله في اعتباره إمكان التجديد في المجازات على سبيل الاستعارة وعدم الوقوف بها عند حد المنقول وإن أصاب موقفه شيء من التخلف حين لم يجز التجوز في مثل سؤال الجمادات وما لا يسأل إذا أمكن تقدير ما يسأل على الحقيقة) (١)

ابن الاثير والاستعارة :

وموقف ابن الاثير قاطع في أن مراده بالاستعارة إنما ينصرف إلى التصريحية خاصة دون الكتية ويظهر ذلك واضحا في تعريفه لها وكذا في تمثيله وتحليله ومع ذلك فقد وقع كلام له في أثناء تفريقه بين التشبيه والاستعارة ملبس مع التسليم بسلامته من التحريف إذ لا ينصرف لغير الكتية، فقد عرف الاستعارة بقوله : (حد الاستعارة نقل المعنى من لفظ إلى لفظ لمشاركة بينهما مع طي ذكر المنقول إليه) (٢)

وظاهر من هذا التعريف أنه لا يشمل الكتية كما لا يتناول التخييلية لعدم تصور النقل فيها أصلا على المشهور لكن سبق أن فرق بين التشبيه والاستعارة بقوله : (والذي انكشف لي بالنظر الصحيح أن المجاز منقسم قسمين، توسع في الكلام وتشبيه . والتشبيه ضربان تشبيه تام وتشبيه محذوف، فالتشبيه التام : أن يذكر الشبه والمشبه به، والتشبيه المحذوف أن يذكر المشبه دون المشبه به ويسمى استعارة، وهذا الاسم وضع للفرق بينه وبين التشبيه التام) (٣)

(١) المثل السائر لابن الاثير ص ٣٨ طبعة بولاق .
(٢) السابق ص ٢٢٠
(٣) السابق ص ٢١٧

ومن الغريب يعتبر الاستاذ الدكتور طبانة على كلام ابن الاثير هذا بأنه يتصرف إلى الكتية دون التصريحية . (١) وهذا يؤدى إلى تضارب واضح لا نعتقد أن يقع ابن الاثير فى مثله ، والأقرب أن كلام ابن الأثير قد وقع فيه تصحيف واصله : أن يذكر المشبه به دون المشبه ويسمى استعارة ويؤكد ذلك مفهوم ابن الاثير للاستعارة الذى ألح عليه كثيرا بما يفيد أن مقصوده الاستعارة التصريحية . (٢)

ابن الاثير والكتية :

والحق أن ابن الاثير وإن تجاهل الكتية كمصطلح، وهو وإن أخرجها عن حد الاستعارة إلا أنه لم يتجاهل دراستها كفن أدبى على ما تشهد به دراسته . وحقيقة الأمر أنه يشترط فى الاستعارة الملائمة بين المنقول عنه والمنقول إليه وعدم التباعد بينهما لأن الاستعارة يطوى فيها المنقول إليه فإذا كان هناك تباعد لم يبن المراد . (٣)

ومن هنا فما لم يجئ على شرطه أو يتصوره هو على غير شرطه لم يعتد به فى الاستعارة وإنما هو من التوسع .

صور الكتية لونا من ألوان التوسع :-

ومعنى التوسع عنده ما يذكر للتصرف فى اللغة لا لفائدة أخرى مع أنه قسيم التشبيه فى المجاز . وكذا الاستعارة مع جعلها قسما مستقلا منه .

وبمراجعة ما حمله على التوسع من أمثلة نلحظ أن أغلبها يعود إلى الكتية فقد رأى فى صورها تباعدا وهو ما نقره عليه بالمقارنة إلى التصريحية وإن كنا ننازعه فى تسليم هذا الحكم على ما استشهد به ثم فى تورطه فى أن التوسع لا يكون لفائدة فكيف يكون التوسع مجازا ولا مشاركة أصلا ؟ ثم كيف يكون التجوز لغير فائدة ؟

---

(١) علم البيان د . بدوى طبانة هامش ص ٢٠٢
(٢) المثل السائر ص ٢١٨
(٣) السابق ص ٢١٤

مع ان ذلك من شروط المجاز البعيدة (١) وإن حاول التراجع قليلا حين وجد أن القرآن والحديث يشتملان على ألوان مما اعتبره توسعا . اذا فقد قسمه إلى قبيح وإلى حسن فالأول ما ورد على وجه الإضافة ويستشهد له بأمثلة سبق أن عدها البيانيون والنقاد من الاستعارات البعيدة من نحو قول أبي نواس : بيّ صَوْتُ المالِ .... البيت ويعقب بأن (قوله بي صوت المال من الكلام النازل بالبرة ومراده من ذلك أن المال يتظلم من إهانتك إياه بالتفريق فالمعنى حسن والتعبير قبيح) وكذلك يعيب قول ابن نواس :

ما لِرَجُلِ المالِ امسَتْ تَشتكي منكَ الكَلالا .

فإضافة الرجل إلى المال أقبح من إضافة الصوت .. ومن هذا الضرب أيضا قول أبي تمام :-

وكم أحرزتْ منكم على قُبحِ عدّها صُرُوفُ النوَى من مُرْهَفٍ حسنِ الغِدِّ

فإضافة القد إلى النوى من التشبيه البعيد البعيد وإنما أوقعه في المماثلة بين القد والقد وهذا رأي الرجل في تتبع المماثلة تارة والتجنيس أخرى حتى إنه يخرج إلى بناء يعاب به أقبح عيب وأفحشه)

ولكن ابن الأثير يستحسن بل يتعجب من حسن قول مسلم

تظلمَ المالُ والاعداءُ من يدِه لا زالَ للمالِ والاعداءِ ظَلّامَا

من غير أن يعقب بما يبين وجه الحسن فيه .

وقد أرجع ابن الاثير عيب ذلك الضرب إلى (بعد ما بين المضاف والمضاف إليه ذلك لأنه ملحق بالتشبيه المضمر الأداة وإذ ورد التشبيه لمناسبة بين الشبه والشبه بمكان ذلك قبيح ولا يستعمل هذا الضرب من التوسع إلا جاهل بأسرار الفصاحة والبلاغة أو ساه غافل يذهب به خاطره إلى استعمال مالا يجوز ولا يحسن (٢)

---

(١) الطراز جـ ١ ص ٤٤ ـ ٨٣
(٢) المثل السائر ص ٢١٨ ، ٢١٩

ومع التسليم لابن الاثير بعدم الشبه أو فقدانه أصلا فى صور ذلك الضرب إلا أننا لا نقره فى اشتراط التناسب بين المضاف والمضاف إليه هنا إذ لو وجد تشابه بينهما لكان من باب التشبيه الذى أضيف فيه المشبه به إلى المشبه وخرج بذلك عن باب التوسع على ما يقول به أو الاستعارة كما هو الحال عند غيره .

و نحن لا ننكر ما فى هذه الشواهد من بعد وما فى بعضها من اتصال بالملاءمة ولكن ما نتوقف عنده ما نحس به من اضطراب حينما يعد أحد ضربى التوسع الذى هو عنده — ليس بتشبيه ولا باستعارة كما سبق ملحقا بالتشبيه ويشترط وجود التناسب وإلا حكم بقبحه وقد صرح قبل بأن العدول من الحقيقة إلى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول إليه لا يكون إلا لقصد التوسع وأضاف (وهو سبب صالح إذ التوسع فى الكلام مطلوب [1]

ثم إن جماعة النقاد . والآمدى . من بينهم وهو ممن يعترف لهم ابن الاثير بالفضل قد درس تلك الشواهد فى باب الاستعارات . [2]

وأما الضرب الثانى من ضربى التوسع والموصوف عنده بالحسن فقد نقل فيه بعضا من آى القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وكذا بعض النماذج الأدبية مما يعود إلى الكتابة أو على الأقل تحتملها .

فمما مثل به قوله تعالى : " ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) ثم ذكر (فنسبة القول إلى السماء والارض من باب التوسع لأنها جماد والنطق إنما هو يكون للانسان لا للجماد ولا مشاكلة هنا بين المنقول والمنقول إليه) .

وقد يرى البعض الميل بتلك الآية إلى الكتابة [3] وإن كان الشهور حملها

---

(١) السابق ص ٢١٨

(٢) ينظر ما كتب عن الكتابة عند الآمدى فى الفصل الخاص بالكتابة فى دراسات النقد .

(٣) القرآن والصورة البيانية د . عبد القادر حسين ص ١٠٧

على التشبيه أو التخييل.(١) ولنا أن نتساءل هنا هل المناسبة مفقودة فى الآية والأهم هل ابن الاثير ما زال مصرا على رأيه فى أن التوسع لا يكون لفائدة ؟؟.

وقد مر أن الشريف الرضى يحمل قوله صلى الله عليه وسلم : (هذا جبل يحبنا ونحبه) على المجاز (٢) ، واما ابن الأثير فيعده من التوسع إذ لا مشاركة بينه وبين الجبل الذى هو جماد وعلى هذا ورد محافظة الطلول ومساءلة الأحجار كقول أبى تمام :—

أمِيدانَ لهوىً من أتاحَ لك البِلَى فأُصبحتَ ميدان الصَّبا والخبائرِ

فأبو تمام يسائل ربوعا عافية و أحجارا دارسة ولا وجه لها هنا إلا مساءلة الأهل كالذى فى قوله تعالى "وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ" أى أهل القرية وكل هذا توسع فى العبارة إذ لا مشاركة بين رسوم الديار وبين فهم السؤال والجواب (٣) (وموضع الغرابة فى رأى ابن الاثير هذا أن كلمة التوسع بالنسبة للمجاز كلمة جاءت فى طفولة البلاغة الأولى على لسان سيبويه فى الكتاب) إذ حمل بعض صور المجاز على اتساع الكلام واختفت بعد ذلك إلى أن جاء ابن الاثير وجعل التوسع نوعا من المجاز ومثل له بمثل لها شهرة فى الاستعارة منذ القرن الثالث) (٤)

ومعلوم أن فى كل تجوز باستعارة أو بغيرها توسعا إذ التوسع (اسم يقع على جميع الأنواع المجازية كلها) (٥)

وابن الأثير نفسه يقر بذلك مع محاولته التفريق بجعل ما فى الاستعارة والتشبيه من توسع ضمنا وتبعا.(٦) ثم إن ما مثل به أو على الأقل كثيرا منه لا يفتقد شرط البلاغة وإن دقت كما لا يفتقد شرط الفائدة وإن خفيت، وموقف ابن الاثير هذا وأشباهه جعل بعض المحدثين يقول عنه إنه : (ظل يضطرب اضطرابا شديدا فى تصوير المسائل البيانية الخالصة ونضد التشبيه والمجاز والاستعارة والكناية) (٧)

---

(١) الكشاف جـ٢ ص ٣٢٦ (٢) المجازات النبوية ص ١٠
(٣) المثل السائر ص ٢١٨ ، ٢١٩ (٤) صور من تطور البيان العربى ص ٢٠٩
(٥) الطراز جـ ١ ص ١٩٧
(٦) المثل السائر ص ٢١٠
(٧) البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٣٤

بين ابن الاثير وابن جنى :

سبق أن أشرنا عند الحديث عن الكتية عند ابن جنى إلى أن ابن الأثير قد تعقب أقواله . ووعدنا بالتفصيل هنا .

وقد نقل ابن الاثير رأى ابن جنى فى المجاز متعقبا له ومفندا أوجه الخطأ فى كل معنى من المعانى الثلاثة التى رأى ابن جنى أنها لازمة لكل مجاز . وهى الاتساع والتشبيه والتأكيد . (١)

وأما ابن الاثير فيحصل المجاز عنده بأحد تلك الوجوه دون اشتراط اجتماعها هذا من ناحية كما أن التشبيه والتأكيد عنده شىء واحد وهذا وجه آخر . وأما الاعتراض الثالث الذى لاحظه ابن الاثير فيتعلق بقول ابن جنى . اما الاتساع فهو أنه زاد فى اسماء الجهات والمحال ..... وهذا القول مضطرب شديد الاضطراب لانه ينبغى على قياسه أن يكون جناح الذل فى قوله تعالى: واخفض لهما جناح الذل من زيادة فى اسماء الطيور وذلك أنه زاد فى اسماء الطيور اسما هو الذل . وهكذا يجرى الحكم فى الاقوال الشعرية كقول أبى تمام :

لَيستْ سواءً أقواماً فكانوا كما أغْنَى التميمُ بالصعيد

فزاد فى اسماء اللباس اسماً هو الأدميّ . وهذا مما يضحك منه نعوذ بالله من الخطل والاتساع فى المجاز لا يقال فيه كذا وانما يقال هو أن تجرى صفة من الصفات على موصوف ليس أهلا لأن تجرى عليه لبعد ما بينه وبينها كقول أبى الطيب المتنبى :

أَتَلِفْتَ فَانَّا أَيُّهَا الطَّلَلُ نَبْكِي وَتَرْثِمُ تَحْتَنَا الإِبِلُ

فإنه أجرى الكلام على ذلك وإنما يستعمل طلبا للاتساع فى أساليب الكلام لا لمناسبة بين الصفة والموصوف إذ لو كان لمناسبة لما كان ذلك اتساعا وإنما كان ضربا من القياس فى حمل الشىء على ما يناسبه ويشاكله وحينئذ يكون ذلك تشبيها أو استعارة على ما أشرت إليه من قبل) (٢)

---

(١) ينظر الخصائص جـ ٢ ص ٤٤٢

(٢) المثل السائر ص ٢٢٢

ونحن نسلم لابن الاثير اعتراضه الأول والثاني على شيء من التحفظ . أما الاعتراض الثالث وهو ما يمتاز بالذات نرى فيه لونا من التعسف الذي يطغى أحيانا على نظرة ابن الاثير لأن ابن جني لم يقصد بالتوسع زيادة الاسماء اسماء في جميع الحالات بل أحيانا يعمد إلى هذه الزيادة وأحيانا لا يراها ابن جني نفسه فلا يقول بها كما رأيناه يوضح ذلك في السمة في قولهم بنو فلان يطؤهم الطريق . فيقول : فيه من السمة اخبارك عما لا يصح وطؤه بما يصح وطؤه [1] (فالاتساع عند ابن جني ليس مقصورا ابدا على زيادة الاسماء اسما بل يرى أيضا في استعمال الشيء على ما لا يصح أن يستعمل معه وبهذا يصح قوله ويسلم من الاعتراض ففي قوله تعالى (جناح الذل) الذي اعترض به ابن الاثير على ابن جني نراه استعمل لفظ الجناح على ما لا يصح أن يستعمل معه وهو الذل فيكون هذا مشيرا موافقا لرأي ابن جني في المجاز) [2]

بين ابن الاثير وابن سنان :

يوافق ابن الاثير غيره من النقاد والبلاغيين في رد ما ذهب إليه ابن سنان من عدم استحسان الاستعارة المبنية على استعارة أخرى وإن كان ابن الاثير يخالف الجميع حيث يرى أن مافي مثل قول امرئ القيس :

فَقُلتُ لَهُ لما تَمَطى ..... البيت

من قبيل التشبيه المضمر — الأداة وليس من قبيل الاستعارة ولا يخفى أن هذا وأشباهه يجري على الكنية كما جرى على ذلك البلاغيون والباحثون . [3]

وقد سبق أن أشرنا إلى أن ابن سنان يعيب الاستعارة المبنية على غيرها ، ثم يحكم على قول امرئ القيس بأنه من الاستعارات المتوسطة .. وقد لاحظ ابن الاثير هذا التعارض مضيفا إلى ذلك أن تلك الاستعارة على اعتبارها استعارة من قبيل المرضي لوجود التناسب ولا اعتبار لإفراد الاستعارة أو بنائها في الحكم بالحسن أو بغيره ما دام هناك التلاؤم . [4]

---

(١) الخصائص جـ٢ ص ٤٤٧
(٢) اثر النحاة في البحث البلاغي ص ٣١٧
(٣) الافصاح الاستاذ — احمد الحجازي ص ١٧٥ ، التصوير البياني د . ابو موسى ص ١٨٨
(٤) ينظر المثل السائر ص ٢٢٠ وما بعدها .

وقد ظهر من كل ما سبق أن ما ذكره ابن الاثير في تعريف الاستعارة وكذا تشبيهه وتحليله المستفيض ينصرف إلى التصريحية خاصة. وهو وإن أخرج صور الكنية من الاستعارة إلا أنه تناولها في الاتساع بضربيه دون أن يكون في اتجاهه السعة لمشكلات الكنية مع الاستعارة إذ أن التوسع عنده مع كونه مجازا لكنه عراه عن كل فائدة بخلاف التشبيه والاستعارة ومحاولته وصف بعض أمثلته بالحسن لا يفيد ما دام قد جرد التوسع من كل غرض أصلا ولو أن ابن الاثير قد رد له الإفادة من جهود المدرسة الخوارزمية إلى جانب ما تتمتع به من دقة في الاحساس ورهافة في الذوق لأخرج لنا بحثا متكاملا.

مع ابن ابي الاصبع ت: ٦٥٤ هـ[1]

ولئن مضت أساليب الكنية على ما أوضحناه لدى ابن الاثير فان الأمر معها قد يختلف عند ابن ابي الاصبع مع اتفاقها في بعض الملامح وخاصة فيما يتصل بمراعاة جانب الدراسة الأدبية. وإن أفاد ابن أبي الاصبع من مدرسة عبد القاهر والرازي بالذات على نحو واضح دون أن يلتزم في معالجة صور الكنية بحدود الرازي ومصطلحاته فكيف كانت إذن معالجة ابن أبي الأصبع للكنية والتخييلية؟ وهل عنده من جديد؟

حد الاستعارة:

بعد أن أورد تعريف الرماني للاستعارة وذكر اعتراضات الرازي والتي منها عدم اشتماله على التخييلية نقل تعريفي الرازي اللذين سبق إيرادهما[2] وكأنه لم يرض بما قاله الرازي تمام الرضا فعرفها بقوله: (الاستعارة تسمية المرجوح الخفي باسم الراجح الجلي)[3]

---

(١) ينظر مقدمة كتاب بديع القرآن ص ٥٧ وما بعدها.
(٢) نهاية الايجاز ص ٨٢
(٣) بديع القرآن لابن ابي الاصبع تحقيق د. حفني شرف ص ١٩ ط. نهضة مصر.

وصرح بان هذا المعنى وإن كان غير قول فخر الدين - فالعبارة الثانية أرشق ، وهى أيضا أوجز مع أن تعريف الرازى أدق وأعم لتناوله التخييلية صراحة حتى إنه لم يعتقد أن تعريف ابن أبى الأصبع لا يدل إلا على التصريحية ويؤكد هذا المعنى ما أعقب به تعريفه من أنه وإن أدى معنى جعل الشىء للشىء للمبالغة فى التشبيه إلى آخره .. وجعل الشىء الشىء هو مقتضى التصريحية [1] .

صور المكنية بين أقسام الاستعارة ومصطلحاتها :

قسم ابن أبى الاصبع الاستعارة إلى أضرب عديدة وباعتبارات مختلفة أدار بعضا منها على شواهد المكنية كما تدل عليه عبارته وإن لم يرد لهذا المصطلح عنده ذكر مع أنه اطلع عليه عند الرازى .

وعلى كل حال فقد قسمها أولا إلى مرشحة ومجردة وإن لوحظ اقتصاره فى التمثيل هنا على التصريحية دون ذكر لهذا المصطلح أيضا لكن عبارته تفيد معناها بما يشمل الأصلية والتى سماها الكثيفة والتبعية والتى عرفت لديه باللطيفة [2] ثم قسم كلا من المجردة والمرشحة إلى ما لا تفيد سوى الظهور فقط وإلى ما تفيده مع المبالغة والإيجاز وهذه مطلوبات الاستعارة عنده ويمثل للنوع الثانى بقوله تعالى " وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا " من غير أن يوضح كيفية إجراء الاستعارة منصرفا إلى إثبات اشتمال الآية على المعانى السابقة بما لا يخرج عن روح ما نسبه إليه عبد القاهر من أن جمال وحسن تلك الاستعارة لمجيئها وفق مقتضيات النظم . [3]

وقد رأينا أبن أبى الأصبع يبين وجه الاستعارة فى قوله تعالى " بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) [4] فيقول : (فالقذف والدمغ مستعاران وهما محسوسان والحق والباطل مستعار لهما وهما معقولان [5] وكذلك فى قوله تعالى

---

(١) بديع القرآن نفس الموضع السابق
(٢) ينظر تحرير التحبير لابن ابى الاصبع تحقيق د حفنى شرف ص ١٠٠ ط نهضة مصر
(٣) يقارن بين الدلائل ص ١٣٢ والبديع ص ٢٠
(٤) سورة الانبياء آية ١٨
(٥) بديع القرآن ص ٢١ ، ٢٢

« إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ » [1] يقول : (المستعار الطغى وهو الاستعلاء والمستعار منه كل مستعل متكبر متجبر هو والمستعار له الماء ..) [2]

وأيضا في قوله تعالى : « وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ » [3] يقول : (فالمستعار السكوت والمستعار له الغضب والمستعار منه الساكت . [4]

وواضح من بيان ابن أبي الاصبع لوجه الاستعارة في الآيات الكريمة أنها ليست من التصريحية إذ المستعار له على بيانه مذكور وهو الحق والباطل في الآية الأولى والماء في الآية الثانية والغضب في الثالثة . وعلى ذلك تكون هذه الآيات الكريمة على إجرائه من التخييلية حيث استعير القذف للحق والدمغ للباطل والطغى للماء والسكوت للغضب ويؤكد ذلك قول ابن أبي الاصبع في تعقيبه في الآية الثالثة (ولما زال الكلام الدال على الغضب حسنت استعارة السكوت للغضب) [5]

ومع هذا وجدنا محقق الكتاب يعلق على إيضاح ابن ابي الاصبع للاستعارة في الآية الثالثة فيجريها على التصريحية التبعية . ولعل ذلك يمثل وجهة نظره هو على الاحتمال الآخر الجائز في أمثال تلك الاستعارات .

الاستعارة التخييلية :

ذكر ابن أبي الاصبع أن هناك نوعا من الاستعارات يسمى بالتخييلية ولكن لم يورد لها تعريفا خاصا وتبدو إفادته الواضحة هنا ما أشار إليه عبد القاهر وتناوله من بعده الرازي في حمل بعض التشابه على تلك الاستعارة وإن امتاز بالإكثار من الأمثلة والتطبيق على آي القرآن بما يفيد أن مراده من التخييلية ما يعرف بغير الكنية عند السكاكي . وقد أجرى التخييلية على بعض الشواهد التي اشتهر اعتبارها من قبيل ألوان بلاغية أخرى من مثل قوله تعالى (بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ) يقول :

---

(١) سورة الحاقة اية ١١
(٢) بديع القرآن ص ٢٣
(٣) سورة الاعراف اية ١٥٠
(٤) بديع القرآن ص ٢٣
(٥) السابق نفس الصفحة .

ر فالمستعار البسط والمستعار منه يد الخلق والمستعار له يد الحق سبحانه وتعالى اللتان يراد بهما هنا : التصرف فى تلك الارزاق . وذلك تخييل للسامع عند سماع ذلك أن ثم يدين مبسوطتين بالإنفاق ولا يدان فى الحقيقة ، ولا بسط على ما يدل عليه الظاهر ... ومن هذا النوع من الاستعارة قوله تعالى "وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ" فإن إثبات الجناح للذل تخييل للسامع أن ثم جناحا يخفض والمراد (والله اعلم) أَلِنْ لهما جانبك و تواضع لهما تواضعا يلصقك بالتراب والجامع بين هذه الاستعارة والحقيقة أن الجناح الحقيقى فى أحد جانبى الطائر وأن الطائر إذا خفض جناحه انحط إلى الارض ولصق بالتراب . (١)

وإذا كانت الآية الثانية قد اشتهر اعتبارها فى الكناية فإن الأولى قد اعتد بها فى الكناية على ما يفهم من كلام صاحب الكشاف (٢) وربما اعتد بمثلها فى باب التورية على ما يفهم من كلام السكاكى (٣)

وهكذا يتضح كيف استطاع ابن ابى الأصبع أن يزاوج بين المنهج العلمى والمنهج الأدبى فقد أكثر من التقسيمات على عكس ما يرى البعض (٤) لكنه لم يتركن إليها بل استند إلى الاستشهاد مع التحليل والكشف عن مواطن الجمال فقد بدا استقلاله حين لم يأخذ بالمصطلحات الخاصة بالاستعارة والتى عرفت عند الرازى وركن إليها السكاكى معاصره . فقد استعمل بعض مصطلحات لم تعهد عند غيره وهو وإن أهمل البكنية كمصطلح لكنه أجرى بعضا من أساليب الاستعارة على مقتضياتها كما أفاض فى بيان الاستعارة التخييلية على ألوان من آى الذكر الحكيم مؤسسا على فكرة عبد القاهر والرازى ولكنه توسع فى التطبيق مع أمثلة اشتهر الحمل فيها على غير التخييلية .

عند العلوى ت ٧٤٩ هـ (٥)

ومع أن العلوى قد جاء بعد السكاكى وفى العهد الذى شغل البلاغيون بما أثاره السكاكى متابعين له فيى منهجه وفكره غير أنه يعد من بين البلاغيين القلائل الذين

---

(١) بديع القرآن ص ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٥٠٩
(٣) ينظر المفتاح ص ٢٢٦
(٤) الصور البيانية د . حفنى شرف ص ٣٠٤
(٥) تاريخ علوم البلاغة ص ١٣٨

استطاعوا المزج بين الاسلوب العلمى بمقتضياته وأصوله والطريقة الأدبية بخصائصها فجاء الطراز ساطعا لابن الاثير فى المثل السائر عرضا وتحليلا وللسكاكى فى مفتاحه وللأصوليين تقعيدا وتقسيما .

وإذا كان القصد هو البحث عن الكيفية التى عالج بها العلوى أسلوب الكنية فعلينا أن نذكر أن كتاب الطراز إنما أراد به صاحبه أن يكون مقدمة ومدخلا لفهم بلاغة الكشاف والوقوف على أسراره وأغواره (١)

فهل استطاع العلوى أن ينهض بعبء الكشف والبيان لما تضمنه الكشاف من أصول تتصل بالكنية ؟

والحق أن العلوى قد شغل نفسه كثيرا بالتحديد والتقسيم والتفريع وانفق جهدا غير قليل فى مناقشة البلاغيين والاعتراض عليهم فى تعاريف الاستعارة عندهم لأنها كما يرى لم يتوافر فيها أصول التعريفات وقيوده ولا غرابة فهو عالم أصولى تمثلت قبل أن يكون بلاغيا وإن كنا نشعر أن مراعاته لهذا الجانب لم تعنه على تبصرنا فى الكشاف من تحليلات أدبية عالية ولمحات بلاغية بل ربما أدى به ذلك الحرص الشديد على التقسيم والتقعيد والتفريع إلى ما نلاحظه كثيرا من تكرار يصل أحيانا إلى حد التضارب فى مواقفه بحيث يصعب على الباحث الوصول على جهة اليقين إلى حقيقة مراده.

فقد تناول أسلوب الكنية فى كلا القسمين اللذين يشتمل عليهما كتابه وهما القسم المتضمن لأسرار البلاغة والآخر المتضمن لأسرار الإعجاز ، كما تناوله أيضا فى مواضع عديدة فى كل منهما تحت تقسيمات عدة وألوان مختلفة كذلك وقد قرر العلوى وقوع المجاز فى القرآن والحديث وفصيح الكلام رادا على المنكرين ومستشهدا بما يرجع بعضه إلى الكنية (٢) ودون أن يذكر هذا المصطلح أصلا مع أن السكاكى قد استخدمه أخذا عن أستاذه الرازى وهو من غير شك قد اطلع على نهاية الإيجاز ونقل عنه

---

(١) ينظر الطراز للعلوى جـ٢ ص ٥ ، والبلاغة القرآنية ص ٥٩٤

(٢) ينظر الطراز جـ١ ص ٤٤ ، ٥ ص ٣٨

ولكن العلوى يستخدم مصطلح الاستعارة التخييلية أو الخيالية أو التخييل .

تعريف الاستعارة التخييلية :-

والاستعارة عند العلوى من أشرف ما يعتد في القواعد البلاغية وأرسخها عرقا فيه [١] وقد أورد لها خمس تعريفات بدأها بتعريف الرماني مبطلا له بما سبق أن أبطله به الرازي غير أنه لم يشر إلى ما سبق به الرازي من عدم شموله للتخييلية [٢] ثم نقل تعريفين لابن الأثير نقضهما أيضا لانه ذكر في أحدهما ضرورة على المنقول إليه وهذا عنده فاسد لأن بعض أنواع الاستعارات لا يقدر فيها منوى ولا يتوهم عليه وإن ذكر المنوي خرج بإظهاره الكلام عن رتبة البلاغة مستشهدا لكلامه بقوله تعالى (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ) [٣] (فأنت لو أبرزت ههنا ذكر المستعار له وقلت : واخفض لهما جانبك الذي يشبه الجناح لاخرجت الكلام عن ديباجة الفصاحة فظهر بما ذكرناه أن اعتبار المنوي يخرج بعض الاستعارة عن كونها استعارة) ثم نقل تعريف الرازي معترضا عليه بأمور تعود إلى انتقاده بعض أحكام التعريفات [٣]

وبعد ذلك يذكر تعريفا يرى أنه الصواب(والمختار أن يقال : تصيير الشيء الشيء وليس به - وجعلك الشيء للشيء وليس له بحيث لا يلحظ فيه معنى التشبيه [٤]) .

وهذا التعريف لا يفترق عن تعريف الرازي سوى القيد الاخير وإن افتقد شروط المبالغة في التشبيه .

وقد فسر العلوى تعريفه مبينا أنه يشمل نوعي الاستعارة التصريحية والتخييلية كما يشهد لذلك تمثيله وإن لم يرد للتصريحية ذكر وقد استشهد للنوع الثاني بقوله : انشبت اظافري بفلان [٤]

---

(١) ينظر السابق جـ٢ ص ٣٣٤
(٢) ينظر نهاية الايجاز ص ٨٢ والطراز جـ ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩
(٣) ينظر الطراز جـ ١ ص ٢٠٠ ، ٢٠١
(٤) ينظر السابق ص ٢٠٢ وما بعد .

تقسيم الاستعارة إلى حقيقة وخيالية :

قسم السكاكي الاستعارة إلى حقيقية وخيالية وأراد بالأولى ما عرف بالتصريحية وبالثانية التخييلية على معنى يكاد يتفق مع ما أراده السكاكي بها [١] على ما سيأتي تفصيلا .

يقول العلوي : (وأما الاستعارة الخيالية الوهمية ، (فهي) أن تستعير لفظا دالا على حقيقة خيالية تقدرها في الوهم ثم ترد فيها بذكر المستعار له إيضاحا لها وتعريفا لحالها) كقول أبي ذؤيب المشهور لأنه لما شبه المنية بالسبع في عدوانها على الانسان جعل لها مخالب ليزداد أمر التخييل ويكثر .

ثم ذكر أن من الاستعارة التخييلية الآيات الدالة على التشبيه كقوله تعالى " يد الله مبسوطتان " وقوله "ويبقى وجه ربك " وعقب بقوله ومن أجل ذلك زل كثير من الفرق في اعتقادها جواز الأعضاء على الله تعالى : وحلول المكان والجهة وغير ذلك من الظواهر التقلية التي تشعر ظواهرها بذلك فإنهم لما لم يفهموا هذه الاستعارة وجهلوا حالها ، وقعوا في أودية التهويس من إعتقاد التشبيه ، وتوهم كل ضلالة في ذات الله تعالى فمن ههنا كان السبب في ضلال الشبهة فأما النزهة فلهم فيها تأويلات ركيكة بعيدة) [٢]

والحق أن هذه المسألة كانت مثار جدل ونقاش حيث اختلفت وجوه التأويل عند علماء البيان وكذا علماء الكلام .

فقد سبق أن ذكر عبد القاهر والرازي وابن أبي الاصبع دخول بعض آيات المتشابه في التخييلية على اختلاف بينهم في مفهومها [٣] وأما السكاكي فقد رأيناه يحمل أكثرها على التورية [٤]

---

(١) ينظر المفتاح ص ١٧٨
(٢) الطراز جـ ١ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣
(٣) ينظر دلائل الاعجاز ص ٥٣ ونهاية الايجاز ص ١٥٢ ، بديع القرآن ص ٢٣ ، ٢٤٥
(٤) المفتاح ص ٢٠٢

وأما السلف ومن يسلكون طريقتهم فقد رأوا ان هذه الألفاظ من نحو العين والوجه والاستواء إذا أضيفت إلى الله تعالى تكون حقيقة في المعنى المراد وصف الله تعالى به لا مجازا وهذه الحقيقة لا يشاركه فيها تعالى غيره لأنها خاصة به كما أنها إذا أضيفت إلى الانسان تكون حقيقة فيه لا مجازا وخاصة به فالحقيقتان مختلفتان لاختلاف الذاتين الموصوفين بهما لأنه تعالى "ليس كمثله شيء" فعلى هذا التأويل لا مانع من أن يكون لله جل جلاله يد وعين واستواء لكن على معنى مناسب لكمال ذاته وتستحق هذه الصفات من الجلال والكمال ما وجب لذاته تعالى (١)

ومع كثرة تلك الآراء واختلاف وجوه التأويل إلا إنه لم يسلم وجه من نقاش ومعارضة الأمر الذي لا يعنينا الوقوف عنده تفصيلا وقد كتبت فيه بحوث ودراسات فليرجع إليها من أراد) (٢)

لكن الذي يهمنا ما قال به صاحب الطراز فإذا كان الظاهر والصريح من كلامه حمل جميع آيات التشابه على التخييلية بمفهومها عنده فلنا أن نتساءل ؟ كيف يمكن إجراء الاستعارة وما بنيت عليه من تشبيه في تلك الآيات الكريمة ونظائرها اللهم إلا على ضرب من التكلف لا يقره عليه كل ذي ذوق سليم وعقيدة صحيحة ولا ندري كيف غفل العلوي عن هذا الأمر ؟

التخييل والتخييلية :

وقد ذكر العلوي التخييل في دراسة البديع وقد أشار إلى أهمية هذا الفن وضرورته لأن كثيرا من آيات القرآن دائرة على طريقته وقد جهل بعض الناس هذه الطريقة فوقعوا في التشبيه وهاموا في أودية الضلال (٣)

وقد ذكر فيه تقريرين الأول في بيان معناه والثاني في بيان أمثلته ، وأورد تعريف صاحب التبيان ثم تعريف المطرزي ثم قال والتعريف الثالث أن يقال هو اللفظ الدال بظاهره على معناه والمراد غيره على جهة التصوير ثم شرح التعريف ٠

(١) ينظر ابن تيمية وموقفه من التأويل ص ٤٧٦
(٢) انظر ابن تيمية وموقفه من التأويل عوض تيمية ليس سلفيا للشيخ منصور عويس
(٣) الطراز جـ٢ ص ٤ ٥٥

وبعد ذلك ذكر أمثلة التخييل ويلاحظ أن العلوى نقل هنا بعض الأمثلة القرآنية من باب المتشابه الذى سبق أن تناوله على أنه من قبيل الاستعارة التخييلية .

وباقى الأمثلة التى أتى بها هنا تعود إلى باب المتشابه أيضا وقد ذكر أن للعلماء فى مثل ذلك تأويلين الأول لعلماء الكلام من الزيدية والمعتزلة فانهم يؤولون هذه الظواهر تأويلات وإن تعددت . حذراً من مخالفة العقل ويعتمدون تأويلاتهم بأمور لغوية . وأما البيانيون فانهم فهموها على معانيها اللغوية فى كونها دالة على هذه الجوارح لكنهم قالوا إن الجارحة خيالية غير محققة .

(وإذا كان البيانيون قد أطلقوا هذه الكلمات على معانيها اللغوية إلا أنهم قالوا إن الجارحة هنا خيالية غير متحققة فكيف يكون اللفظ هنا دالا بظاهره على معنى والمراد غيره على جهة التصوير كما ذكر فى التعريف؟ وهل يكون إطلاق لفظ الرجل على رجل متخيل غير حقيقى إطلاقا له على غير معناه ؟

ولو سلمنا له بهذا فهل يمكن أن يكون ذلك مراد البيانيين بالتخييل [1] والحق أن العلوى مع تنبيهه على أهمية التخييل ومع أن كلامه قريب من كلام الزمخشرى إذ هو متأثر به لكنه لم يفهم حقيقة مراده .

وعلماء البيان إنما يقع فهمهم أول شىء وأخره على الزيدة والخلاصة من هذه الأساليب دون أن يذهبوا بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو مجاز . فليس الذى ذكره العلوى فى تفسيره مراد علماء البيان بالتخييل هو ما فهمه من كلام الزمخشرى على ما مر بشىء من التفصيل عند الحديث عن صاحب الكشاف .

وقد ذكر الخفاجى أن للتخييل عند علماء البلاغة ثلاثة معان . وليس شىء فيها منطبقا على ما ذكره العلوى : وإنما هو أشبه ما يكون برأى السكاكى فى قرينة المكنية [2] وربما اتضح ذلك أكثر من تمييزه بين التحقيق والتخييل فى الاستعارة وجواز الجمع بينهما فى مثال واحد .

---

(١) البلاغة القرآنية د . ابو موسى ص ٦٢٤
(٢) البلاغة القرآنية ص ٦٢٥

وقد ذكر العلوى أنه ربما اجتمع التحقيق والتخييل بحيث يمكن إجراء المثال على أيهما . وذكر من شواهد ذلك قوله تعالى "وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ" فإذا جعلته من باب التخييل فتقريره هو أن الله تعالى أمر الولد بتذليل لهما جانبه . ويتواضع لهما فاستعار لفظ الجناح مشبها به على التخييل فى الاستعارة بطريق المبالغة فى طلب أن يكون الولد لأبويه كالطائر لفرخه فى فرط حنوه عليه وتعطفه على محبته فجعل الذل طائرا ثم أخذ الوهم فى تصوير ما للمستعار من الآلات والجوارح ثم أضاف اسم الجناح إلى الذل رعاية لمزيد البيان وافراطا فى تحصيل البلاغة . وإذا جعلناه من باب التحقيق فتقريره : أنه لما أراد المبالغة فى لين الجانب للأبوين من جهة الولد استعار لفظ الجناح للتذلل والتواضع ونزله منزلة الجناح فى التصاقه بالتراب وإسباله فى التغطية للفرخ . مبالغة فى لين العريكة وحسن التذلل للوالدين)[1]

ولاريب أن تحليل العلوى قائم على أساس ذوقى يدل على لمحة أدبية صادقة وإن كنا نلاحظ أن تحليله على التخييل يجرى على طريقة السكاكى فى التخييلية كما أشرنا من قبل .

وتشعر بشىء من التراجع من العلوى عما سبق أن أخذ به ابن الاثير حيث جعل من حق الاستعارة وأحكامها الملائمة أن يطوى ذكر المستعار له وعلى هذا فلا مدخل للمكنية فى الاستعارة عنده أصلا .

وهو وإن تابع ابن الاثير فى إخراج المكنية من الاستعارة - إن صح هذا الفهم - يكون غير معتد بما قال به السكاكى وجمهور المتأخرين فضلا عما سبق به الكشاف كما يجوز فقدان الدقة عنده أيضا حين نقل عن ابن الاثير بيانه للاستعارات فى قوله تعالى " فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ" حيث ذكر أن فى الآية أربع استعارات وبناء على إيضاحه لا يكون هناك استعارات أصلا إما لعدم وجود مشابهة أو لوجود الطرفين

---

(١) الطراز جـ ١ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢١٠ ، ٢١١

الفرق بين الحقيقة والخيالية :-

يفرق العلوى بين الاستعارة الحقيقية والخيالية بأن الحقيقة مالا يفهم منها معنى التشبيه لا على قرب ولا على بعد ، وأما الخيالية فهى التى يفهم منها معنى التشبيه الذى لا يكاد يدرك فى الوجود ويكون مقصورا فى الخيال [١]

ويلاحظ أن العلوى كثيرا ما يجرى الشواهد على طريق التصريحية فى حين أن الظاهر فيها الإجراء على المكنية [٢] كما أنه ربما آل إجراؤه لبعض الصور إلى المكنية [٣] وحسن الاستعارة عنده تابع لخفاء التشبيه وقيمتها لتنافى ما بين طرفيها ويكاد أن ينقل ذلك بأمثلته عن ابن الاثير .

ويتضح مما سبق أن العلوى لم يستعمل مصطلح المكنية كما لم يجر عليها فى وضوح ، وإن استخدم التخييلية على معنى يقترب ومفهوم السكاكى كما أنه حمل آيات التشابه عليها مخالفا فى طريقته منهج المتأخرين حيث لم يكن متابعا طريقتهم فى البحث .

---

(١) ينظر الطراز جـ١ ص ٢٢٨ ، ٢٥٩

(٢) ينظر الطراز جـ١ ص ٢١٤ وما بعدها .

(٣) ينظر السابق جـ١ ص٢٢٧ ، جـ٣ ص٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧

الباب الثالث

مذاهب المكنية وصورها

الفصل الاول :
مع السكاكي في المكنية والتخييلية •
الفصل الثاني :
مذاهب المكنية بعد السكاكي •
الفصل الثالث:
صور المكنية

الفصـــــــــل الاول
مع السكاكى فـــــــــى المكنة والتخيليـــــــة

==========

تمهيد :

نحن نعلم أن عبد القاهر قد أشار إلى طريقة الكناية وهو يبسط القول فـــي أسلوبها بيانا لما عرف بعده بالتخييلية •

كما أنه عرض للاستعارة التبعية وبحث المجاز العقلي على أنهما لونان متمايزان عن أسلوب الكنايـــة •

ثم جاء الزمخشري متابعا لعبد القاهر في التبعية والمجاز العقلي مع اختلافـــه معه في الكناية على ما بينا ، حتى أتى الفخر الرازي فخص لكل فن فصلا أو فصـــولا وكان له الفضل في مصطلح الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية ، وغيرهما مـــن مصطلحات الاستعارة •

فلما جاء السكاكي وقد اطلع على كل تلك الجهود ، وقرأها قراءة تدبـــر وإمعـــــان لم يكتف بأن يتناولها عرضا وتحليلا أمينا بل أراد أن يكون له فهمـــه الخاص والمتميز لكل من الكناية والتخييلية ثم رأيه في رد كل من التبعية والمجاز العقلي إلى الكنايـــة •

" مع السكاكي في الكناية والتخييلية "

ومحاولة البحث عن حقيقة مشرع السكاكي في الكناية تستدعي الرجوع إلى رأيه في الحقيقة والمجاز والاستعارة عموما تحديدا أو تقسيما حتى يكون ذلك عونا على فهـــم مراده إلى جانب اعتباره أصلا فيما دار من مناقشات :

الحقيقـــة :

عرف السكاكي الحقيقة بثلاث تعريفات ترد إلى أصل واحد ، فالحقيقة عنـــده : هي الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة له من غير تأويل في الوضع ، أو هي الكلمة المستعملة فيما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة ولك أن تقول : الحقيقة هي الكلمة المستعملة فـــي معناها بالتحقيق •

وذكر أنه أخرج بقيد عدم التأويل الاستعارة إذ هي على أصح القولين ، والمختار عنده مجاز لغوي وهي عنده وإن كانت مستعملة فيما وضعت له لكن بتأويل ادعاء دخـــول

المشبه في جنس المشبه به بجعل أفراده قسمين ، متعارف وغير متعارف على تفصيل يأتي فيما بعد .

ومراده بقيد التعريف الأول عين ما قصده في تقييده التعريف الثاني بالدلالة الظاهرة ، وكذا قيده التعريف الثالث بالتحقيق على ما يفهم .

المجاز :

وأما المجاز عندهم فهو الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق استعمالا في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة من إرادة معناها في ذلك النوع .

ولك أن تقول : المجاز هو الكلمة المستعملة في غير ما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة استعمالا في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها مع قرينة مانعة من إرادة ما تدل عليه بنفسها في ذلك النوع .

ولك أن تقول : المجاز هو الكلمة المستعملة في معنى معناها — وعقب بأن تقييده بالتحقيق احتراز حتى لا تخرج الاستعارة التي هي من باب المجاز نظرا لمن دعى استعمالها فيما هي موضوعة له[١] .

وهنا اعتراضات أوردها الخطيب [٢] وناقشها السعد[٣].

تعريف الاستعارة :

أراد السكاكي على طريقته في الضبط أن يأتي بتعريف للاستعارة يستوعب لأقسامها على مفهومه فيها ، فذكر أن الاستعارة " هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعيا دخول المشبه في جنس المشبه به دالا على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به "[٤] .

---

(١) ينظر المفتاح ص ١٦٩ .
(٢) ينظر الايضاح ص ١٧٨ والتلخيص ص ٢٩٢ وما بعدهما .
(٣) المطول ص ٣٨٦ .
(٤) المفتاح ص ١٧٤ .

وظاهر أن هذا التصريف على طوله يجمع أنواع الاستعارة عنده وهى التصريحية بأقسامها الثلاثة التحقيقية مع القطع ، والتخييلية مع القطع أيضا والمحتملة للتحقيق والتخييل إلى جانب القسم الثانى وهو المكنية .

ثم خص لكل من تلك الأنواع حديثا خاصا به ، فالتحقيقية مع القطع هى التى يكون الشبه المتروك شيئا متحققا إما حسا وإما عقلا وهى مراد غيره بالتصريحية وأما التخييلية فهى التى يكون الشبه المتروك أمرا وهميا محضا لا تحقق له إلا فى مجرد الوهم على ما سنفصله عند الحديث عن قرينة المكنية عنده .

وأما المحتملة لكل من التحقيق والتخييل فقد مثل لها بما سبق أن ذكره الإمام عبد القاهر وهو قول زهير بن أبى سلمى .

"وَعَرَّى أَفْرَاسُ الصَّبَا وَرَوَاحِلُهُ"

متأثرا بعبد القاهر فى التحليل وإن اختلف معه فى التوجيه والاصطلاح (١)

" المكنية "

عرف السكاكى الاستعارة بالكناية — بما لم نعهده عند سابقيه — يقوله : هى أن يذكر الشبه وتريد به المشبه به دالا على ذلك بنصب قرينة تنصبها له (٢) وسبق للسكاكى أن أوضحها تمثيلا عقب تعريفه للاستعارة بقوله : كما تقول فى المنية أنشبت أظفارها وأنت تريد بالمنية السبع بادعاء السبعية لها . وانكار أن تكون شيئا غير سبع ، فتثبت لها ما يخص المشبه به وهو الأظفار " (٣) .

إيضاح لمذهب السكاكى :

ولإيضاح ما ذهب إليه السكاكى على ضوء ما مثل به أقول : انه بعد تشبيه معنى المنية - أعنى الموت بالسبع يدعى على طريق المبالغة فى التشبيه أن الموت قد أصبح

(١) المفتاح ص ١٧٧ ، ١٧٨ .
(٢) المصدر السابق ص ١٧٩ .
(٣) المصدر السابق ص ١٧٤ .

هو عين السبع ، وأنه قد صار فردا من أفراد جنسه غير خارج عن حقيقة ذلك الحيوان وعلى هذا الاعتبار يصبح وكأن للسبع فردين وهما الحيوان الحقيقي ثم ادعى الموت ثم يستعار لفظ المنية بمعناه الأصلي ، أي الموت الحقيقي الذي لم يدع أنه سبع يدعى فيه اتحاد مع السبع ولم يدخل فيه تجوز يستعار ذلك للموت الادعائي بدليل تسمية ما للمشبه به الحقيقي وهو الأظفار إلى المشبه الحقيقي .

وبناء على هذا الايضاح يكون لفظ المنية مستعملا في الموت ادعاء فيكون مستعملا في غير ما وضع له بالادعاء .

وبعد هذا الايضاح نشعر وكأن مفهوم السكاكي للمكنية على شيء غير قليل من الغموض والتعقيد كثيرا ما يوقع في اللبس تبرز من ورائه إشكالات . ولذلك نزيد الأمر وضوحا بتقرير مذهبه على مثال آخر . ففي قوله تعالى " وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ " يكون الذل عنده مرادا به الطائر بادعاء أنه عينه بقرينة إضافة الجناح الذي هو من خواص الطائر ولوازمه إليه .

فليس المراد من الذل عنده مجرد الخضوع حتى يكون مستعملا في معناه الحقيقي ، بل الذل المغموض أنه عين الطائر وهو غير الموضوع له ، والجناح استعارة تخييلية على معنى يأتي إيضاحه قريبا .

مناقشات حول مذهب السكاكي :

من الطبيعي أن يثير مذهب السكاكي حوله كثيرا من المناقشات والجدل والمعارضة لمخالفته الواضحة كلام الأئمة كعبد القاهر والزمخشري والفخر الرازي . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى لما في هذا المذهب من تعقيد وغموض . يضاف إلى ذلك أن اختلاف المتأخرين من أصحاب الشروح والحواشي والتقريرات في فهم كلام السكاكي وتأويل مراده قد أدى إلى ظهور هذا المذهب على نحو من التعسف والتكلف الشديد . ومن هنا قيل هذا الرأي بالرفض من البلاغيين والباحثين (١) .

(١) ينظر الايضاح ص ١٨٠ وحاشية البيجوري على السمرقندية ص ٣٢ وعلوم البلاغة للمراغي ص ٢٤٦ والفخر الرازي ، البلاغة العربية ص ٢٢٨ ، والبيان بن عبد القاهر والسكاكي ص ٢١٠ والبلاغة تطور وتاريخ ص ٣٠٦ ، والصور البيانية ص ٣٢٦ .

الاعتراضات التي دفع بها مسلك السكاكي عديدة، لكن لما كان الكثير منها قد بني على أصول جدلية لا تفيد كثيرا في جانب البحث البلاغي الخالص عمدت الى ذكر أهم وأقوى تلك الاعتراضات وهو ما اعترض به الخطيب ٠

اعتراض الخطيب ٠

رد الخطيب مذهب السكاكي في الكتابة بوجه قوي وإن حاول بعض الشراح كالعلامة سعد الدين والعصام وغيرهما مناقشته والجواب عليه وخلاصة هذا الاعتراض : —

أن لفظ الشبه مستعمل فيما وضع له تحقيقا للقطع بأن المراد بالنية هو الموت لا غير، غاية الأمر أنا ادعينا اتحاد الموت بالسبع ٠ والاستعارة ليست كذلك لأن السكاكي فسرها بأن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد الطرف الآخر ٠٠

وفي ذلك يقول الخطيب (وفيه نظر للقطع بأن المراد بالمنية في البيت هو الموت ٠ لا الحيوان المفترس فهو مستعمل فيما هو موضوع له على التحقيق وكذا كل ما هو نحوه ٠ ولا شيء من الاستعارة بمستعمل كذلك ٠ وأما ما ذكره في تفسير قوله من أنا ندعي ها هنا أن اسم المنية ٠ اسم للسبع مرادف للفظ السبع بارتكاب تأويل وهو أن تدخل المنية في جنس السبع للمبالغة في التشبيه ثم تذهب على سبيل التخييل إلى أن الواضع كيف يصح منه أن يضع اسمين لحقيقة واحدة ولا يكونان بمترادفين ٠ فيتجه لنا بهذا الطريق دعوى السبعية للمنية مع التصريح بلفظ المنية ٠ فلا يفيد ٠ أن ذلك لا يقتضي كون اسم المنية غير مستعمل فيما هو موضوع له على التحقيق من غير تأويل، فيدخل في تعريفه للحقيقة ويخرج عن تعريفه للمجاز)[1] ٠

وقد بلغ من اهتمام المتأخرين باعتراض الخطيب هذا أن جاء به بعضهم في صورة قياس مركب من الشكل الثاني ونظمه هكذا : لفظ الشبه مستعمل في معناه ٠ ولا شيء من الاستعارة بمستعمل في معناه ينتج لا شيء من لفظ الشبه باستعارة ٠[2]

---

(١) الايضاح ص ١٨٠ ٠
(٢) ينظر حاشية البيجوري على السمرقندية ص ٣٢ ٠

جـواب الســـعد :ـ

يسلم السعد بكل ما قاله السكاكى فى جوابه غير أنه يوافق الخطيب فى عـدم دفع الاعتراض به ويورد عددا مما يمكن أن يكون جوابا ويحطه ثم يذكر ما يراه الوجـه فى الجواب وإن اعترف بعدم سلامتـه من التكلف .

وخلاصة ما قاله أن قيد الحيثية ملاحظ فى تعريف الحقيقة بالكلمة المستعملة فيما وضعت له من حيث إنه موضوع له بالتحقيق . فلفظ المنية هنا مستعمل فى الموت من حيث إنه عين السبع لا من حيث إنه موضوع له بالتحقيق كقولك : نشبت منية فلان[١] .

وظاهر أن فى هذا الجواب تعقيداً وغموضاً إذ وإن خرج باعتباره لفظ المنيـة (المشبه) من الحقيقة إلا أن تحقيق كونه مجازاً عن الطرف الآخر (المشبه به) غـير ظاهر[٢] .

جـواب العصـام :ـ

وقد أجاب العصام على أصل الاعتراض السابق بأن التقسـيم إلى الاستعـارة بالكناية والاستعارة المصرحة ليس استعارة من قسم المجاز بل ما يطلق عليه الاستعـارة فلتكن الاستعارة بالكناية حقيقة . وهذا التقسيم منه كتقسيمه المجاز إلى المجاز العقلى والمجاز اللغوى بعد تعريفه المجاز بالكلمة المستعملة فى غير ما وضعت له بالتحقيق فـى اصطلاح التخاطب ـ ولا شبهة أن المنقسم ما يطلق عليه المجاز لا المجاز بالمعـنى المشهور[٣] .

وأما وجه تسميتها استعارة على ذلك : فلأن الكلمة قد استعملت فى المشبه به المدعى وأما وجه كونها مكنية . فلكونها حين استعملت فيما وضعت له وأضيف إليهـا اللازم . كان فى ذلك نوع خفاء . والكناية خفاء[٤] .

---

(١) ينظر المطول ص ٤٠٠ ، ٤٠١ .
(٢) ينظر حاشية الخضرى ص ١٠٠ .
(٣) الاطول ص البيانية ص ٢٧٦ .
(٤) ينظر حاشية الامبابى على رسالة الصبان ص ٣٧٤ .

وما أجاب به العصام وإن ساغ قبوله من حيث هو ولو على وجه ما ، الا أننى أرى فيه مخالفة لما عليه المكنية عند السكاكى إذ هى عنده من غير شك من قبيل التجوز اللغوى وذلك واضح من تعبيده حدود كل من الحقيقة والمجاز ثم إن السكاكى صرح بعد تقرير مذهبه فى ردة المجاز العقلى إلى المكنية بقوله: (وإنى بناء على قولى هذا ههنا قولى ذلك فى فصل الاستعارة التبعية ، وقولى فى المجاز الراجع عند الأصحاب إلى حكم الكلمة على ما سبق أجعل المجاز كله لغويا ، وينقسم عندى هكذا إلى مفيد وغير مفيد ، والمفيد إلى استعارة وغير استعارة والاستعارة إلى صرح بها ومكنى عنها)[1] .

فكلام السكاكى هذا قاطع بأن المكنية من المجاز، وأما القياس على المجاز العقلى فقياس مع الفارق ، لأن تناوله لهذا الاسلوب على أنه من قبيل التجوز العقلى إنما كان على رأى الاصحاب كما هو صريح كلامه أيضا .

ويقول أستاذنا الدكتور جلال الذهبى معقبا على مذهب صاحب الفتاح فى المكنية (ورأيى أن هذا مذهب واهٍ لأن السكاكى ، بناء على هذا — استعار لفظ — المنية العام — للمنية المدعى أنها سبع ، والمستعار والمستعار له فى هذا لم يجمع بينهما تشبيه ، فنحن لم نشبه المنية — المدعى أنها سبع بالمنية التى لم يدع فيها ذلك ، هذا إلى أن المستعار وهو — المنية من معناها العام — مذكور فى الكلام ، وعليه فكيف تكون مكنية ؟)[2] .

وأما أستاذنا الدكتور على البدرى فيقول : (ومذهب السكاكى مردود لمخالفته للواقع ، لأن الشاعر حين قال (وإذا المنية أنشبت أظفارها) قد استعمل لفظ المنية فى معناها ولم يستعملها فى المشبه به ، ونقل المنية من مطلق موت إلى موت بأنياب السبع ، يكون مجازا مرسلا لا استعارة مكنية .

وحديثنا هنا فى الاستعارة لا فى المجاز المرسل .

---

(١) الفتاح صـ ١٨٩ .

(٢) الفخر الرازى والبلاغة العربية د . جلال الذهبى صـ ٢٢٨ .

ثم إنه يقول : لفظ الشبه المستعمل فى التشبيه به ثم يصرح بالتشبيه هذا جديد بجعل الاستعارة تصريحية)[1] .

لكن استاذنا الدكتور محمد أبو موسى يعبر عن وجهة نظره تجاه هذا الرأى بقوله : — (وليس هذا فى الحقيقة تكلفا يبعد عن روح الأساليب ومجازاتها . وما يجرى فى خيال الشعراء وأهل الفصيح ، لأن السكاكى نظر إلى ضرب من ضروب الخيال يجرى على ألسنة الناس حينما يقولون هذا ملاك فى صورة إنسان ، أو شيطان فى مسلاخ آدمى ، أو أسد فى إهاب رجل — كما يقول المتنبى :

نَحْنُ قَوْمٌ مِنَ الْجِنِّ فِي زِيِّ نَاسٍ فَوْقَ طَيْرٍ لَهَا شُخُوصُ الْجِمَالِ

وكل هذا مبنى على أساس خيالى هو توزيع الجنس على نوعين . نوع معروف هو الشيطان أو الملاك — ونوع غير معروف هو الملاك الذى فى صورة إنسان ، أو الشيطان الذى فى مسلاخ آدمى ، أو الأسد الذى فى إهاب إنسان . وكأن هؤلاء الأفراد الذين تراهم شياطين مثلا وسّعوا مدى الجنس الشيطانى ، وأضحوا له أفقا جديدا ، فصارت سلكة الشياطين تضم نوعا جديدا هم الشياطين فى صورة الأفراد المذكورين)[2] .

والحق أن مذهب السكاكى على كثرة ما قيل حوله لم يظهر على النحو الذى يبعد عنه التشبيه إلى الحد الذى يمكن معه الاطمئنان إلى قبوله التطبيق على النص الأدبى فى غير عناء ، وذلك مرده فى الحقيقة إلى أن السكاكى لم يبسط مذهبه فيما وضوح ما ساعد على وقوع اللبس فى فهم كلامه وتأويل مراده .

وإذا كان الظاهر والصريح اختلاف مذهب السكاكى فإن ذلك لم يمنع البعض من بذل الجهد ومحاولة إيجاد طريق يمكن به التوفيق بين مذهب السكاكى والمذهب المنسوب إلى الجمهور .

---

(١) البيان بين عبد القاهر والسكاكى د . على البدرى ص ٢١٠ .
(٢) التصوير البيانى د . محمد ابو موسى ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .

ولكن لما لم نكن بعد قد تناولنا مذهب الجمهور آثرنا إرجاء الحديث عن محاولة التوفيق الآن .

وحديثنا عن الكتابة عند السكاكي يستتبع بالضرورة الحديث عن حال قرينتها عنده . فقد كان له فيها آراء واتجاهات خاصة ومتميزة خالف في معظم جوانبها ما عهدناه عند السابقين وخالفه فيها أيضا معظم اللاحقين .

قرينة الكناية عند السكاكي

الكناية نوع استعارة والاستعارة فرع مجاز • وكل مجاز لابد أن يصحبه قرينة دالة على المراد •

ومضى أن عبد القاهر قد بحث ما أسمى بالتخيلية التي جعلت قرينة الكناية مرادا بها إثبات ما ليس للشيء له كإثبات اليد للنوال • فهي من قبيل التجوز في الإسناد • وعلى هذا جرى الزمخشري والرازي وجمهور المتأخرين وإن خالف صاحب الكشاف في تجويزه مجيء قرينة الكناية تصريحية على التفصيل الماضي •

وأما السكاكي فقد خالف فيما تحصل به القرينة إلى جانب تفرده بتفسير له خاص في مفهوم التخيلية وطريقة التجوز فيها • وعلاقتها بالكناية •

فعند صاحب المفتاح أن قرينة الكناية قد تكون استعارة تخييلية أو تحقيقية أو تحقيقيه على نحو يستوجب التفصيل •

أولا قرينة الكناية استعارة تخيلية •

ذكر السكاكي عقب تحديده لمراده من الاستعارة بالكناية مبينا القرينة التي تُنْصَب معها (وهي أن تنسب إليه وتضيف شيئا من لوازم المشبه به المساوية مثل أن تشبه المنية بالسبع ثم تفردها بالذكر مضيفا إليها على سبيل الاستعارة التخيلية من لوازم المشبه به ما لا يكون إلا له ليكون قرينة دالة على المراد فتقول مخالب المنية نشبت بفلان طاويا لذكر المشبه به • وهو قولك الشبه بالسبع) (١) •

وما يعنينا من هذا النص الآن إنما هو مجيء قرينة الكناية تخيلية • وقد سبق للسكاكي أن أوضح أن الاستعارة التخيلية تعد قسما من المصرحة • وبين المراد بها عنده بقوله أن يكون المشبه المتروك شيئا وهميا محضا • لا تحقق له إلا في مجرد الوهم (٢)

---

(١) مفتاح العلوم للسكاكي ص ١٧٩ •
(٢) السابق ص ١٧٦ •

ثم جعل الاستعارة التخيلية قسمين • سمى الأولى تخيلية مع القطع والثانية تخيلية مع الاحتمال • ثم خص كلا منهما بفصل مستقل أبان فيهما مراده من كل منهما •

ولما كان حديث السكاكي عن التخيلية ومفهومها قد أثار جدلا يتصل اتصالا وثيقا بالمكنية احتاج الأمر إلى شيء من التفصيل نبدؤه بإيضاح صاحب المذهب نفسه •

يقول السكاكي : (هي أن تسمي باسم صورة متحققة صورة عندك وهمية محضة تقدرها مشابهة لها مُقيدا في الذكر في ضمن قرينة مانعة عن حمل الاسم على ما يسبق منه إلى الفهم من كون مسماه شيئا متحققا • وذلك مثل أن تشبه المنية بالسبع في اغتيال النفوس وانتزاع أرواحها بالقهر والغلبة من غير تفرقة بين نفاح وضوار ولا رقة لمرحوم ومماس بقيا على ذي فضيلة تشبيها بليغا حتى كأنها سبع من السباع • فيأخذ الوهم في تصويرها في صورة السبع واختراع ما يلازم صورته ويتم بها شكله من ضروب هيئات وفنون جوارح وأعضاء • وعلى الخصوص ما يكون قوام اغتيال السبع للنفوس بها وتمام افتراسه للفرائس بها من الأنياب والمخالب • ثم تطلق على مخترعات الوهم عندك أسامي المتحققة على سبيل الأفراد بالذكر وأن تضيفها إلى المنية قائلا : بمخالب المنية أو أنياب المنية الفيهية بالسبع ليكون إضافتها إليها قرينة مانعة من إجرائها على ما يسبق إلى الفهم منها من تحقق مسمياتها) (١) •

فالتخيلية مع القطع عند صاحب المفتاح ما كان المستعار فيها غير متحقق لا حسا كاستعارة الأسد للشجاع • ولا عقلا كاستعارة النور للبيان • بل هي صورة وهمية خالصة لا يشوبها شيء من التحقق ففي استعارة (جناح الذل) يكون الجناح فيها عنده استعارة تخيلية بمعنى أن لفظ الجناح أستعير لأمر تخيلي وهي • لأنه لما استعمل الذل في الخضوع المتحد مع الطائر ادعاء أخذ الوهم يخترع له صورة مثل صورة الجناح وأستعير لفظ الجناح لذلك استعارة تصريحية تخيلية •

---

(١) السابق ص ١٧٨ •

وجه المناسبة بين هذا المصطلح ومسماه عند السكاكي :

وواضح أن هناك تلاؤما بين كل من أجزاء هذا التركيب : (استعارة تصريحية تخييلية) ومراده منه .

فأما أنها استعارة فلأن اللفظ فيها لم يستخدم في معناه الأصلي مثلما استخدم الجناح مرادا به غير حقيقة معناه بل الصورة التخييلية .

وأما كونها تصريحية فللتصريح فيها بلفظ المشبه به وهو الجناح المحقق بدل المشبه . وهو الصورة الوهمية بقرينه الإضافة إلى الذل[1] .

وأما أنها تخييلية فلأن المستعار له غير محقق لا حسا ولا عقلا ومن هنا يبرز وجه التسمية وان أورد السعد إشكالا مفاده أنه لو كان الأمر على ما ذكره السكاكي لوجب أن تسمى هذه الاستعارة توهمية لا تخييلية لكن السعد يسقط هذا الاعتراض لأنه يكتفي في التسمية بأدنى ملابسة مستشهدا على صحة الإطلاق كما ذكر صاحب الشفا[2].

وعلى كل فإن هناك مناسبة بين كل من أجزاء هذا التركيب ومراده منه كما أنه لابد أن يكون له غاية أو غايات تصد إليها من وراء مذهبه .

الدوافع وراء تفسير السكاكي للتخييلية :ـ

وقبل أن أعرض لما أثاره موقف السكاكي من الاستعارة التخييلية يلوح تساؤل ينبغي الأجابة عليه وهو الدوافع التي حدت بالسكاكي حتى يتجه إلى ماذهب إليه ؟

ويمكن أن يذكر في هذا الصدد أمران :ـ

أولهما : ما ذكره العصام ونقله عنه الخضري في حاشيته على السمرقندية وخلاصته : ـ أنه لايجوز لمسلك السكاكي سوى أنه راعى المناسبة اللفظية بمعنى : أنه فسرها بما قال به حتى يتسنى إطلاق اسم الاستعارة على التخييلية ولا يخفى ما في هذا

(١) ينظر الملوي على السمرقندية بحاشية الخضري ص ١١٠ .
(٢) مختصر المعاني للسعد على تلخيص المفتاح ص ٢٩٨ .

الوجه من تهافت حتى إن العصام نفسه ضعفه لأنه يلزم السكاكى عليه أن يجعل المعنى تابعا للفظ . والطريق الجادة المستقيمة : جعل اللفظ تابعا للمعنى بأن يحفظ جانب المعنى ويطلب له لفظ على طبقه ولو كان فى مناسبته له تكلف كما صنع السلف (١) .

وثانى الأمرين ما ذكره الوسطانى ونقله عنه الأمبابى وخلاصته أنه يمكن التماس وجه آخر وهو الإشعار بكمال المشابهة حيث تجعل من الشبه صورة وهمية مشابهة لما هو من خواص المشبه به (٢) . وهذا الأخير ما أميل إليه وأرتضيه لعدم إمكان ابداء ما أعترض به العصام لكون هذا الوجه مرادا منه أمرا معنويا لا مجرد المناسبة اللفظية فضلا عن أن القول بما علل به العصام هو عين ما قصد إليه السكاكى مناقش فيه .

مناقشة هذا المذهب :—

و مخالفة السكاكى لما عهد عند السابقين فى التخييلية واضحة الأمر الذى كان من آثاره انصراف من أتى بعده عن متابعته إلا فى القليل . واتهام طريقته بالتعقيد والتعسف مما أوجد مجالا رحبا للمناقشة والاعتراض بأمور تتصل فى كثير من جوانبها بالكتبة .

اعتراضات الخطيب :—

وكما كان الخطيب صاحب الاعتراضات المشهورة على مكنية السكاكى كان له اعتراضات على التخييلية ومنها : —

الاعتراض الأول : —

أن تفسير السكاكى للتخييلية بعيد لما فيه من التعسف
وقد أبان السعد وجه التعسف بأنه يلزم على مذهبه (٣) كثرة الاعتبارات

---

(١) ينظر حاشية الخضرى ص ١١٠ .
(٢) حاشية الأمبابى على البيانية ص ٣٠٠ .
(٣) الايضاح ص ١٧٩ والتلخيص ص ٢٩٨ .

التي لا يدل عليها دليل . ولا تحس إليها حاجة[١] . وذلك أن التصوير يحتاج إلى اعتبار وهمي . واعتبار علاقة بينه وبين الأمر الحقيقي . واعتبار قرينة دالة على أن المراد من اللفظ الأمر الوهمي فهذه اعتبارات ثلاث ولغوة اعتراض الخطيب هذا تابعه فيه جمهور المتأخرين وكثير من المعاصرين [٢] لما في مذهب السكاكي من غموض وتعقيد لا يجدي إنكاره وكأن البلاغيين يرون أن إقامة هذه الصورة المجازية في الخيال إنما يكفي فيها وينهض به إثبات اللازم ، وإضافته إلى الشيء ، فحين يضيف المتنبي للجواد أذنا تقوم في خيالنا هذه الصورة ، أعني صورة الجواد وقد ملأت جلبة الجيش اذ منها ضجيجا . وليس هناك ما يدعو إلى القول باختراع شيء يشبهه الأذن ونقل الكلمة إليه على طريقة الاستعارة التصريحية لأن الملكة التخييلية تتم من غير اعتبار أن تكون هناك استعارة في اللفظ وتكفي هذه الاستعارة في التعلق .

الاعتراض الثاني :ـ

أن فهم السكاكي للتخييلية مغاير لما هي عليه عند غيره[٣] . ولا ريب في مخالفة صاحب المفتاح لعبد القاهر إذ أن الجرجاني لا يرى معها مستعارا له ومنقولا إليه بل هي تتحقق عنده بمجرد إثبات ما ليس للشيء له بل إن عبد القاهر قد أشار إلى ما ذهب إليه السكاكي بالرفض والاستحالة كما سبق . (ولا يمنع رفض عبد القاهر له واعتباره مستحيلا أن يكون السكاكي قد تأثر به في ذلك) لأن التأثير كما يكون بالاتباع يكون أيضا بالمخالفة أي أنه قد تأثر تأثرا عكسيا .

وقد سايَر عبدَ القاهر الزمخشري والرازي وجمهور المتأخرين وإن لم يسر صاحب الكشف ما تماما من الأخذ برأي السكاكي على ما نقله عنه السيد .

وعندي أن هذا الاعتراض يمكن دفعه أصلا بما اعتبره السعد إذ قال (إن صاحب المفتاح في هذا الفن خصوصا في مثل هذه الاعتبارات ليس بصدد التقليد لغيره

---

(١) المطول ص ٣٩٥ .
(٢) ينظر علوم البلاغة للمراغي ص ٢٤٦ والصور البيانية ص ٢٣٦ .
(٣) ينظر الايضاح ص ١٧٦ .

حتى يعترض عليه بأن ما ذكره هو خلاف لما ذكره غيره) (١) . على أن الخلاف بين السكاكى هنا وغيره من هوم البلاغيين ليس خلافا لفظيا على ما حققه السعد (٢) .

الاعتراض الثالث :

أن مقتضى كلام السكاكى أن يكون الترشيح تخييليه للزوم مثل ما ذكره فيه ولهذا الوجه ايضاح وعليه مناقشات وأجوبة يرجع إليها من أراد (٣)

الاعتراض الرابع :

أن تفسير السكاكى للتخييلية يفيد أن مراده منها أعم من أن تكون قرينة للمكنية بل قد توجد غير تابعة وعلى استقلال .

يقول الخطيب (فتفسيره للتخييلية أعم من أن تكون تابعة للاستعارة بالكناية كما فى بيت الهزلى، أو غير تابعة بأن يتخيل ابتداء صورة وهمية مشابهة لصورة محققة ويسمى لها اسم الصورة المحققة . والثانية بعيدة جدا) (٤) .

ولا شك أن ما فهمه الخطيب صحيح . وصريح كلام صاحب المفتاح ومنهجه يؤكده فقد عالج السكاكى الاستعارة التخييلية فى الفصل الذى عقده لها على نحو يوحى باستقلالها وقد كانت الأمثلة التى أتى بها للتطبيق غير مصحوبة بالمكنية (٥) . هذا من ناحية . ومن ناحية ثانية فقد ذكر فى أثناء بيان شرط حسن التخييلية أن حسنها يحسب حسن الاستعارة بالكناية متى كانت تابعة لها كما فى قولك فلان يبين أنياب ومخالبها ثم يقول : (وقلما تحسن الحسن البليغ غير تابعة لها ولذلك استهجنت فى قول الطائى :—

---

(١) المختصر ص ٢٩٨ . (٢) ينظر المطول ص ٣٩٦ .
(٣) ينظر المطول ص ٣٩٩ والمختصر ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ وحاشية الايضاح جـ٣ ص٢٦٢ .
(٤) الايضاح ص ١٧٩ ، ١٨٠ .
(٥) ينظر المفتاح ص ١٧٨ .

لَا تَسْقِنِي مَاءَ الْمَلَامِ فَإِنَّنِي صَبٌّ قَدِ اسْتَعْذَبْتُ مَاءَ بُكَائِي

ويمكن تقرير تخييلية السكاكي على بيت أبي تمام بأن يقال توهم للسلام شيئا شبيها بالماء وأطلق اسمه عليه فهو تخييلية بلا مكنية .

وأما الخطيب فيرى إمكان تخريج تلك الاستعارة على أحد احتمالين وذلك بأن تكون تابعة لمكنية أو على تقدير التشبيه المقلوب .

فأما الاحتمال الأول فيحصل بأن يشبه الملام بظرف شراب مكروه على طريق المكنية والماء تخييل وأما الاحتمال الثاني فأن يشبه الملام بالماء المكروه ثم يضاف المشبه به إلى المشبه على حد لجين الماء (١) .

ومع أن رأي السكاكي قد قوبل بالمخالفة فإن تخريجات الخطيب لم تقابل هي الأخرى بالرضا والقبول من قبل الشراح وذلك لأن المشبه به على أحد تفسيري الخطيب هو الشراب المكروه أو ظرفه ، ولا دلالة للفظ عليه (٢) .

بل إن الخطيب نفسه يحكم على كلا الوجهين بالقبح فيقول : (والاستهجان على الوجهين لأنه كان يجب أن يشبه بظرف شراب مكروه أو بشراب مكروه . ولهذا لم يستهجن نحو قولهم: أغلظت لفلان القول وجرعته منه كأسا مرة . وسقيته أمر من العلقم (٣) .

لكن القاضي الحلبي يثيره من القزويني تجويز الاستعارة أو التشبيه بناء على الوجه الذي يجمع بين الطرفين وهو :-

(لأن اللوم قد يسكن حرارة الغرام . كما أن الماء يسكن غليل الأوام) .

وينقل صاحب الكشكول ت (١٠٧٣ هـ) عن القاضي الحلبي اعتراضه على القزويني في تجويزه وجه الشبه السابق . فيقول : " المناسب للعاشق أن يدعي أن

---

(١) ينظر المفتاح ص ١٨٣ .
(٢) ينظر الايضاح ص ١٨٠ .
(٣) ينظر شمه الخضري ص ١١٠ .
(٤) بغية الايضاح جـ ٣ ص ١٦٣ .

حرارة غرامه لا تسكن لا بالملام ولا بشيء آخر . فكيف يجعل ذلك وجه شبه بينه ؟

وقد أجاب بعضهم عن نظر الفاضل في كلام صاحب الإيضاح بأن تشبيه الشاعر الملام بالماء في تسكين نار الغرام إنما هو على وفق معتقد اللوام بأن حرارة غرام العاشق تسكن بورود الملام ، وليس ذلك على وفق معتقده . فلعل معتقده أن نار الغرام تزيد بالملام . قال أبو الشيص :—

أجِدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً حبًّا لذكرك فليلُمْني اللُّوَّمُ

أو أنّ تلك النار لا يؤثر فيها الملام أصلا . كما قال الآخر :

جاءوا بِلَوْمٍ كأنّ اللومَ كلّهمُ مِنَ الحَبيبِ فواحوا حين ما جاءوا

فقول الحلبي : لأن المناسب للعاشق ... الخ غير جيد . فإن صاحب الإيضاح لم يقل إن التشبيه بمعتقد العاشق .

ثم يعلق صاحب الكشكول على هذا بقوله :—

ويقول جامع الكتاب : إن ذكر صاحب الايضاح الكراهة في الشراب صريح بأنه غير راض بهذا الجواب ويحمل البيت على محمل آخر ، فيقول :

وللبيت محمل آخر كنت أظن أني لم أسبق إليه حتى رأيته في التبيان . وهو أن يكون ماء الملام من قبيل المشابهة لذكر ماء البكاء .

ولا تظن أن تأخر ذكر ماء البكاء يمنع المشاكلة ، فإنهم صرحوا في قوله تعالى : (فمنهم مَنْ يمشي على بطنه ، ومنهم مَنْ يمشي على رِجْلين)[1] أن تسمية الزحف على البطن مشيا إنما هي لمشاكلة ما بعده .

وهذا الحمل أولى مما ذكره صاحب الايضاح ، فإن الوجهين اللذين ذكرهما في غاية البعد ، إذ لا دلالة في البيت على أن الماء مكروه ، كما قاله المحقق القطاوني في المطول[2] ، والتشبيه لا يتم بدونه .

---

(١) سورة النور الآية ٤٥ .
(٢) راجع الكشكول ص ٣٩٤ .

وأما ما ذكره صاحب المثل السائر من أن وجه الشبه (أن اللام قول يصف به اللوم وهو مختص بالسمع ، فنقله أبو تمام إلى ما يختص بالحلق ، كأنه قال : لاذقني اللام ولما كان السمع يجرع اللام اولا كتجرع الحلق للماء صار كأنه شبهه به) فهو وجه في غاية البعد أيضا ، والعجيب منه أنه جعله قريبا ، وغاب عنه عدم الملاسة بين الماء واللام) .

وعلى كل فإن بيت أبي تمام مستهجن وغير قريب ، وقد حكي أن رجلا جاء إلى أبي تمام بقصة وقال : اعطني قليلا من ماء اللام ، فقال أبو تمام :—

لاعطيتك حتى تأتيني بريشة من جناح الذل قاصم الرجل .

والحق أنه ليس جعل الجناح للذل كجعل الماء للام وذكر في وجه الفرق بين الاستعارتين أن الطائر إذا وهي أو تعب بسط جناحه وخفضه وألقى نفسه على الأرض ، وللانسان أيضا جناح فإن يديه جناحاه وإذا خضع واستكان حط رأسه وخفض من يديه فحسن عند ذلك جعل الجناح للذل وصارت تشبيها مناسبا[1] ، وبهذا حسن جعل الجناح للذل لما بينهما من المناسبة وهي من أجل ما صورت به الكنيه .

والذي أراه وجها في الفرق ما أشار إليه الراغب الاصبهاني في بيان وجه الاستعارة في الآية الكريمة حيث قال " وذلك أنه لما كان الذل ضربين ، ضرب يضع الانسان ، وضرب يرفعه وقصد في هذا المكان إلى ما يرفعه لا إلى ما يضعه استعار لفظ الجناح فكأنه قيل استعمل الذل الذي يرفعك عند الله تعالى من أجل اكتسابك الرحمة أو من أجل رحمتك لهما "[2] ولم تجد محاولة بعض كبار النقاد العرب كالمرزوقي والآمدي في تخريج معنى البيت على وجه يرضي البلاغيين والنقاد المحدثين ، كما سبق في موضعه .

وأيا كان الشأن فانه لاتلازم عند السكاكي بين التخييلية والمكنية ولو أنه أحسن التطبيق لكان لمذهبه شأن آخر .

---

(١) المثل السائر جـ ٢ صـ ١٥٥ ، بغية الايضاح جـ ٣ صـ ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) المفردات في غريب القرآن للراغب ط . الحلبي صـ ١٠٠ .

قرينة المكنية حقيقة :

وافق السكاكى غيره من البيانيين فى تجويزه مجىء لفظ المكنية حقيقة ويكون التجوز فى الإثبات فقد ذكر عقب تقريره لمذهبه المختار فى المجاز العقلى على ما استعرض له تفصيلا فيما بعد أن المكنى عنها تنقسم إلى (ما قرينتها أمر مقدر وهى كالأنياب فى قولك أنياب المنيه ، وكتطقت الطل بكذا ، أو أمر محقق كالإثبات فى قولك : أنبت الربيع البقل وكالهزم فى قولك هزم الأمير الجند[1] .

وكون القرينة هنا حقيقة لأن الإثبات مثلا مستعمل فى معناه الحقيقى لأنه بعد تشبيه الربيع بالفاعل للإنبات حقيقة أعنى الفاعل القادر والمختار أثبته فرديين أفراده بناء على المبالغة فى التشبيه على سبيل المكنية والقرينة إثبات إليه وهو حقيقة لا تجوز معه ، وإذا كان من المسلم أن الاستعارة تقوم على التشبيه ابدا وفيه يتحقق وجه الشبه فى الطرفين إلا أنه فى المشبه به أتم وأكمل ، فهل يتحقق هذا فى تشبيه الربيع بالقادر المختار سبحانه وتعالى فى مثل أنبت الربيع البقل ونحوه ولئن تابع السكاكى فى تلك المسألة فقد جارى ما أشعر به كلام الكشاف فى جواز وقوع قرينة المكنية تحقيقية .

---

(١) المفتاح ص ١٨٩ .

قرينة المكنيه تحقيقية :—

وقد تقع قرينة المكنية عند السكاكى استعارة تحقيقية المقابلة للتخييلية فى التصريحية عنده بناء على ما ذكره فى قوله تعالى (يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ) من أن البلع استعارة عن غور الماء فى الأرض ، والماء استعارة بالكناية عن الغذاء (١) .

وايضاحا لتلك الاستعارة أقول إنه قد شبه الماء بالغذاء فى أن كلا منهما صيانة للنفس والبعد بها عن الضرر ، ثم بولغ فى هذا التشبيه بحيث أدعى كون الماء من أفراد المشبه به وانكار ان يكون غيره ثم استعير الماء الحقيقى للادعائى على طريق المكنية عنده وكذا شبه غور الأرض بالماء بالبلع بجامع الاختفاء فى كل ، ثم استعير البلع للغور واشتق منه بلع على سبيل الاستعارة التصريحية التهمية .

ويذكر الإمبابى أن هذا التأويل ربما كان مبنيا على اعتبار البلع خاصا بالغذاء دون الماء وهو ما عليه جمهور اللغويين وإن ذكر الرازى وصاحب الصباح ما يفيد عموم معناه أى ان البلع غير مختص بالغذاء وعلى هذا لا يكون قرينة إذ لا مانع حينئذ من اختفاء الماء على حقيقته لكن السيد أفاد أن البلع بمعنى الشرب مجاز وعليه فلا إشكال .

وقد خالف صاحب الكشاف هذا الاعتبار وتبعه غيره على ما حكاه صاحب الكشف إذ جعله الزمخشرى بمعنى النشف واستحسنه صاحب الكشف لما فيه من المبالغة الحاصلة من دلالته على جذب الأرض وكان لها حالة خاصة تمكنها من اجتذاب الماء إليها فهو فعل لها لذا كان أولى من تقرير السكاكى .

واعتبار المكنية ظاهر على صريح مذهبه أو الظاهر منه وأما على تأويل السعد لكلامه ومحاولته التوفيق وبذهب القوم على ما سيأتى فلا يجىء هنا ولذلك قال السمرقندى فى حواشى المطول عند الكلام على هذا التأويل يقال للسكاكى فى قوله تعالى (وقيل يا أرض ابلعى ماءك) استعار الماء للغذاء استعارة بالكناية تشبيها للماء بالغذاء وهو صريح فى أن المستعار هو لفظ المشبه بما لا يتصور معه

(١) ينظر مختصر السعد على التلخيص ص ٣٠٣ — الفتاح ص ١٦٧ .

اعتبار السعد إلا أن يحمل كلام السكاكي على باب القلب أي استعارة الغذاء للماء[١]. ولا يخفى ما فيه من تكليف .

وعلى كل فقد ظهر مما سبق أنه لا تلازم عند السكاكي بين التخييلية والمكنية . ولا بين المكنية والتخييلية فقد توجد كل منهما منفردة عن الأخرى على ذلك فقد تحصل قرينة المكنية بالتخييلية كما هو الشأن عند غيره على تفسير له خاص فيها ، كما تحصل بالتحقيقية على حد ما قال صاحب الكشاف وعلى ذلك يكون الزمخشري غير داخل في مراد السكاكي من الأصحاب الذين ذكر لهم التلازم بين المكنية والتخييلية[٢] .

ويبطل بهذا ما أورده الخطيب من انعقاد الاتفاق حول عدم انفكاك المكنية عن التخييلية[٣] .

ومن هنا فنحن نقابل بشيء من العجب والاستغراب ما صرح به أحد الباحثين ممن نقدر لهم جهودهم في ميدان البحث البلاغي فقد ذكر هذا الباحث أن السكاكي يريد بالتخييلية التي بحثها في الفصل الثاني من فصول الاستعارة قرينة المكنية ثم يقول (وكأنه يجعل في الدنية استعارة مكنية ، وفي قرينتها استعارة أخرى يسميها تصريحية تخييلية ، وكأن كلا منهما تتحول قرينة للأخرى فيهما لا تنفكان)[٤] والحصيلة لكل ما مر أن قرينة المكنية عند السكاكي تكون تخييلية كما تكون حقيقة وأيضا قد تقع تحقيقية ، إذن فقد تأتي التخييلية غير تابعة لمكنية كما قد تأتي المكنية بغير تخييلية على مذهبه فيها فهما غير متلازمتان عنده .

ولعل من الأمور التي يمكن ملاحظتها في سر أن ما ذهب السكاكي إليه أو في بعض جوانبه . نوع تكلف لا داعي إليه وإن أمكن عقلا لندرة شواهده خاصة فيما يتعلق بتجويز انفراد التخييلية عن المكنية ، حيث اضطر إلى أن يفرض علينا فيها خاصا ليصح ما ذهب إليه وأما باقي الأمثلة التي عرض لها فلا تزيد عن كونها مجرد أمثلة فرضية يراد بها فقط إنزال القواعد عليها دون مراعاة للاستعمالات والتي يعول عليها خاصة في جانب البلاغة .

---

(١) ينظر حاشية الأمير على الرسالة البيانية ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
(٢) ينظر الفتاح ص ١٧٩ . (٣) تلخيص السعد على المختصر ص ٣٠٢ .
(٤) البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٠٧ .

وبعد أن انتهينا من محاولة عرض مذهب السكاكى فى الكنية وموقفه من قرينتها بقى أن نبحث عن حقيقة موقفه تجاه كل من الاستعارة التهمية والمجاز العقلى .

موقف السكاكى من التهمية والمجاز العقلى

وإذ قلنا فيما مضى إنه كان للسكاكى فهمه الخاص فى شأن الكنية والتخييلية نقول الآن ان كان له موقف متفرد قبل كل من الاستعارة التهمية والمجاز العقلى كذلك .

فقد خص صاحب المفتاح الفصل السادس من فصول الاستعارة لبحث الاستعارة التهمية . وقد تميز عرضه لها بالتفصيل والتطبيق على الصور التى تتحقق بها بما يشمل الافعال والصفات والحروف مع بيان سر اعتبار التهمية ثم ذكر أن (هذا ما أمكن من تلخيص كلام الأصحاب فى هذا الفصل . ولو أنهم جعلوا قسم الاستعارة التهمية من قسم الاستعارة بالكناية بأن قلبوا فجعلوا فى قولهم نطقت الحال بكذا : الحال التى ذكرها عندهم قرينة الاستعارة بالتصريح استعارة بالكناية عن المتكلم بواسطة المبالغة فى التنبيه على مقتضى اللازم وجعلوا نسبة النطق إليه قرينة الاستعارة . كما تراهم فى قوله : وإذا المنية أنشبت أظفارها) يجعلون المنية استعارة بالكناية عن السبع . ويجعلون إثبات الأظفار لها قرينة الاستعارة . وهكذا لو جعلوا البخل استعارة بالكناية عن حى أبطلت حياته بسيف أو غير سيف فألحق بالعدم . وجعلوا نسبة القتل إليه قرينة (١) . ولو جعلوا أيضا للهذميات استعارة بالكناية عن المطعومات اللطيفة الشهية على سبيل التهكم . وجعلوا نسبة لفظ الكرى إليها قرينة الاستعارة (٢) . لكان أقرب إلى الضبط فتدبره (٣) .

هذا كل ما ذكره السكاكى خاصا بتلك المسألة . وقبل أن نبحث تفصيلا عن الدافع وراء ما قال به وما أثاره من مناقشات نحاول أن نعالج أولا مسألتين مهمتين وهما .

---

(١) يقصد بهذا المثال قول ابن المعتز : قتل البخل وأحيا الساحا .
(٢) يقصد به للقول الشاعر : تقريهم لهذميات ... الى آخرة .
(٣) المفتاح ص ١٨١ .

أولا مذهب السكاكى فى الرد بين الترجيح والوجوب :ـ

لا خلاف فى أنه ليس فى كلام السكاكى هنا ما يقيد القطع بالرد إلى الكنية على الوجه الذى معه احتمال اعتبار التعمية أصلا ولكن قد سرى الخلاف بين بعض البلاغيين تبعا لتأويل عبارة صاحب التلخيص حين ذكر فى اعتراضه الآتى : واختيار السكاكى إلى آخره . فقد فهم العصام والحفيد من تعبير الخطيب بالاختيار أن هذا الرد راجح عند السكاكى لا واجب لأن اختيار الشيء ينبئ عن جواز نقيضه على سبيل المرجوحية . فتكون التعمية جائزة فإذا أمر بإيثار الحمل على الكنية . وإن كان قد نازع البعض فى دلالة لفظ الخطيب على ما ذكر لأنه كثيرا ما تستعمل أمثال هذه العبارات فى الوجوب ومن هنا قيل إن هذا الرد إلى الكنية واجب عند السكاكى ويؤيده أنه أسقط التعمية بالكلية من أقسام المجاز عند ضبطها على رأيه كما أسقط المجاز المرسل(١) وعلى القول بالوجوب فلا تنقسم الاستعارة التصريحية عند السكاكى إلى أصلية وتبعية فيكون هذا التقسيم غير متفق عليه .

والأقرب إلى الصواب عندى ما فهمه العصام وغيره من بناء الأمر على الترجيح فهو لا ينكر التعمية أصلا بل يختار ردها إلى الكنية فهى عنده محتملة . إذ لو كان مراد السكاكى نفى التعمية أصلا لصرح بذلك ولأتى بالأدلة ولأورد الاعتراضات والشبه التى قد ترد على مذهبه على عرفهم .

ثانيا عموم مذهب السكاكى لصور التعمية :

والمفهوم من إطلاق السكاكى شمول مذهبه لصور التعمية كلها وإن قصر التطبيق على التعمية فى الفعل فقط الأمر الذى ربما بنى عليه أحد أساتذتنا قوله بما يفيد اختصاص الرد بالفعل دون غيره(٢) . ولكن صريح عبارة السعد وغيره على عموم المذهب ليشمل المشتق والحرف أيضا فقد ذكر السعد تعقيبا على عبارة المفتاح (وعلى هذا القياس فى سائر الأمثلة) ثم أجرى الاستعارة المكنية على بعض أمثلة الاستعارة التبعية فى الحرف .

---

(١) ينظر حاشية الاسبانى على البيانية ص ٤٠٠ .
(٢) صور من تطور البيان العربى ص ٢٢٢ .

يقول السعد (ففي قوله تعالى : "لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا" يجعل العداوة والحزن استعارة بالكناية عن العلة الغائية للالتقاط . ويجعل نسبة لام التعليل إليه قرينة) (١) .

الدافع وراء اختيار السكاكي :ـ

ويمكن ان يذكر في ذلك أمران .

أولهما : ما ورد في المفتاح من كون هذا الاتجاه أقرب إلى الضبط لما فيه من تقليل الأقسام على ما فسره السعد (٢) . واعترض الإسبايي بوجهين خلاصة الأول : أن التهكمية قد تكون مقصودة للمتكلم قصدا ذاتيا على ما سيأتي تفصيلة في المناقشات . وأما ثاني الوجهين فإن المناسب لعلم البيان هو تكثير الأقسام وتنويعها بما يحصل معه اختلاف طرق الدلالة على المعنى الواحد وهو المقصود الأصيل من هذا العلم . إذ مبناه على أداء المعنى الواحد بطرق مختلفه (٣) .

ولعل مراده التنويع الحاصل من ورائه معنى يفوت بعدم اعتباره . وقد أورد الخضري شبهة اعتراض على هذا الدافع خلاصته : أنه إذا كان المقصود من الرد تقليل الأقسام فما المانع من أن يعتبر العكس بمعنى أنه ترد المكنية إلى التهكمية ، ويجيب بعدم الإمكان لفوات الاطراد لوجود بعض الأمثلة من قبيل الاستعارة المكنية مما لا يصلح لاعتبار التهكمية فيها من مثل المنية أنشبت أظفارها (٤) .

وثاني الامرين : ما قيل من أن المكنية أرجح لعدم كونها تابعة لاستعارة أخرى (٥) . بخلاف التهكمية فإنها تابعة لاستعارة المصدر أو المتعلق .

---

(١) المطول : ص ٤٠٢ .
(٢) السابق نفس الموضع .
(٣) ينظر حاشية الاسبايي على الرسالة البيانية ص ٤٠١ .
(٤) حاشية الخضري على السمرقندية ص ٩٧ .
(٥) الرسالة البيانية الموضع السابق .

مناقشات حول مذهب السكاكى :—

وقد توقش السكاكى واعترض عليه بأمور أبرزها ثلاثة :

أولا : اعتراض الخطيب :—

يرى الخطيب أن رد السكاكى التبعية إلى الكنية لا يغنى عن اعتبار التبعية على مذهبه .

يقول صاحب الايضاح مشيرا إلى رأى السكاكى (وفيه نظر لأن التبعية التى جعلها قرينة لقرينتها التى جعلها استعارة بالكناية كتطقت فى قولنا : تطقت الحال بكذا لا يجوز أن يقدرها حقيقة حينئذ لأنه لو قدرها حقيقة لم تكن استعارة تخييلية لأن الاستعارة التخييلية عنده مجاز كما مر . ولو لم تكن تخييلية لم تكن الاستعارة مستلزمة للتخييلية . واللازم باطل بالاتفاق . فيتعين أن يقدرها مجازا . وإذا قدرها مجازا لزمه أن يقدرها من قبيل الاستعارة تكون العلاقة بين المعنيين هى المشابهة . فلا يكون ما ذهب إليه مغنيا عن قسمة الاستعارة إلى أصلية وتبعية . ولكن يستفاد مما ذكر رد التركيب فى التبعية إلى تركيب الاستعارة بالكناية على ما فسرناها وتصير التبعية حقيقة واستعارة تخييلية . لما سبق أن التخييلية على ما فسرناها حقيقة لا مجاز)[1]

يريد الخطيب من اعتراضه على تعقيد عبارته أنه لا مناص من وقوع التبعية على مذهب السكاكى لأنه لا يمكن اعتبار التبعية التى صارت قرينة للمكنية حقيقة لانعقاد الاتفاق على خلافه . وعليه يتعين اعتبار المجاز بالاستعارة لقصد المبالغة فى التشبيه . والاستعارة فى الفعل لا تكون إلا تبعية فلزمه ما حاول الفرار منه .

ثم يعقب أن السكاكى لو كان يرى فى المكنية والتخييلية ما يراه هو فيهما لأمكنه رد التبعية إليهما . ولا يرد حينئذ الاعتراض مثلا بجعل التشبيه المضمر فى النفس استعارة بالكناية فى نحو تطقت الحال . واثبات النطق للحال استعارة تخييلية ويكون تطقت حقيقة مستعملة فى المعنى الأصلى كما هو مذهبه فلا يلزمه القول بالاستعارة التبعية . وكذا يمكن ذلك على مذهب السلف أيضا .

---

(١) الايضاح ص ١٨١ .

لكون التخييلية عندهم حاصلة بإثبات لازم المشبه به المحذوف إلى المشبه على ما هي عليه عند الخطيب .

وقد ناقش السعد الخطيب وأجاب على اعتراضه العصام بما نوقش فيه .

مناقشة السعد للخطيب :-

ومع تسليم السعد بأصل اعتراض الخطيب لكنه ينازعه فيما ادعاه من الاتفاق حول استلزام المكنية للتخييلية سواء أكان المراد به اتفاق غير السكاكي أم اتفاقه مع غيره لأنه على افتراض إرادة الاحتمال الأول فلا إبطال لكلام صاحب المفتاح لأنه بسبيل الخلاف معهم . ثم إن صاحب الكشاف لا يمنع مجيء المكنية غير تابعة للتخييلية وإن أراد الاحتمال الثاني فهو ظاهر البطلان لأن السكاكي قد صرح بأن عدم انفكاك المكنية عن التخييلية إنما هو ما عليه مساق كلام الاصحاب أما عنده فلا تلازم بينهما أصلا كما اتضح من خلال بحث قرينة المكنية وان كان السعد لا يرى فيما أورده على الخطيب ما يصحح كلام السكاكي إذ أنه صرح بأن تطلقت في (تطلقت الحال) مستعار للأمر الوهمي كاستعارة الأظفار وفيه قول بالاستعارة التهمية (١) .

جواب العصام على اعتراض الخطيب .

وقد نقل البناني عن العصام دفعه اعتراض الخطيب بوجهين :

أحدهما : أنه كما يؤخذ من عبارة المفتاح كلامه مع القوم يعترض عليهم بأنهم لو قبلوا الاعتبار من التهمية بأن جعلوها قرينة للمكنية وجعلوا قرينتها مكنية لاستغنوا عن اعتبارها لأنهم يجعلون قرينة المكنية مستعملة في حقيقتها . والتجوز إنما هو من إثباتها . وهذا الإثبات هو المسمى تخييلية عندهم . فليس اعتبار السكاكي الرد الى المكنية مبنيا على مذهبه في التخييلية .

والوجه الثاني : أن السكاكي جعل التخييلية استعارة للصورة الوهمية لتكون حقيقة باسم الاستعارة استحقاقا لتمام المناسبة قبل رد التهمية ثم عدل عن القول به

(١) ينظر المطول ص ٣٠٢ .

لصلاحة الرد المذكور، لأن النفع فيه اكثر[١] .

ولا يخفى ما فى الوجه الأول من تهافت بما لايمكن الاخذ به حيث ان الظاهر من كلام المفتاح المنشأ على مذهب السكاكى حيث أجرى الاستعارة بالكناية فى قولهم نطقت الحال فى لفظة الشيه وهو الحال المنزل منزلة الشيه به بواسطة المبالغة فى التشبيه على مقتضى مذهبه فيها . ثم إنه قد قال برد المجاز العقلى إلى الكنية على ما سيأتى . فكيف يقول بمذهب غيره فى التخييلية عند رده التبعية إلى الكنية كما اعترض على الوجه الثانى. وحاصله أن السكاكى راعى أولا مناسبة لفظية . ثم عدل عنها لغاية معنوية بأن فيه تلاعبا لايليق بمقام السكاكى وان حاول الوسطانى الجواب بما ينفى ذلك وخلاصته أن قرينة الكنية عند صاحب المفتاح قسمان تخييلية بمعناها عند القوم اذا لزم على اعتبار معناها عنده القول بالتبعية كأن تكون فى العقل . وتخييلية بمعناها عنده إذا لم يلزم ذلك كجناح الذل[٢] .

والحق أن فيما أجاب به العصام بعدا عن مراد صاحب المفتاح . بل وصريح كلامه أيضا . اذ جعل مثل الأظفار تخييلية على مفهومها عنده . ومثل نطقت تخييلية بمعناها عند غيره مخالف لما ذكره فى المجاز العقلى من أن نطقت مستعار للأمر الوهمى[٣]

ثم انه يبعد أن يريد بالتخييلية الاثبات لكونه مجازا عقليا وهو عنده مردود الى الكنية على تفصيل يجىء .

ومع كثرة ما قيل حول اعتراض الخطيب وإن لم تنقل سوى طرف منه إلا أن تلك المناقشات لم تفلح فى أن تخرج بوجه يمكن أن يخرّج عليه اتجاه السكاكى على نحو مرض تماما ليبقى أصل الاعتراض الأول قائما وليقول السعد فى شرحه على المفتاح إن كلام السكاكى مردود ولا بد[٤] .

وكما اعترض الخطيب اعترض كذلك السعد بما أجاب عنه العصام والصبان وغيرهما

---

(١) ينظر تجريد البيانى على المختصر جـ ٢ صـ ٢١٥ .
(٢) ينظر الخضرى على الملوى على السمرقندية صـ ١٠١ .
(٣) ينظر المفتاح صـ ١٨٩ .
(٤) ينظر حاشية الامبابى على رسالة الصبان صـ ٤٠٦ .

ثانيا : اعتراض السعد :-

وقد اعترض السعد في شرحه على المفتاح بما خلاصته : أن ما قال به السكاكي في الرد إلى المكنية غير مطرد لعدم جريانه في بعض الاستعارات ، وهي التي قرينتها غير لفظية (١) .

جواب العصام :-

وقد أجاب العصام بأن اعتبار السكاكي مبني على الغالب في القرينة يقول العصام : (إنه لما كان مدار القرينة في التبعية على الفاعل والمفعول والمجرور على ما صرح به السكاكي بين الرد بجعل قرينة التبعية مكنية . وأما في نحو قتلت زيدا إذا ضربته ضربا شديدا فيجعل زيد مكنيا عنها باستعماله في المقتول ادعاء ، واثبات القتل تخييلية . ولا يجعل القرينة مكنية نعم يتم الرد على السكاكي لو وجد مثال لتبعية قرينتها حالية ولم يكن هناك ما يجعل مكنية . والتبعية قرينتها) (٢) .

ومحصلة كلام العصام أن السكاكي اعتبر الغالب من كون قرينة التبعية لفظية فاقتصر على جعل قرينتها مكنيا عنها فلا يرد عليه نحو قتلت زيدا اذا ضربته ضربا شديدا مما قرينتها فيه حالية وان كان المجعول مكنية فليس قرينة التبعية . وانما يرد عليه مثال تبعية قرينتها حالية وليس هناك ما يصلح لأن يجعل مكنية . ولكن السياق يأبى هذا التخريج لأن الحديث إنما دار حول ضرب شديد تشابه مع القتل .

ولكن لما كان تخريج العصام لنحو قتلت زيدا يتم عليه جعل التبعية قرينة للمكنية إلا أنه ليس فيه جعل قرينة التبعية مكنية على مقتضى كلام المفتاح أقول . لما كان الأمر كذلك حاول الصبان التماس جواب آخر .

جواب الصبان :-

وخلاصة ما أجاب به الصبان أن السكاكي جعل قرينة التبعية مكنية إذا كانت

(١) ينظر الرسالة البيانية للصبان بحاشية الامبابي ص ٤٠١ .
(٢) ينظر حاشية الامبابي على البيانية ص ٤٠ .

لفظية فان لم تكن جعل غيرها وإنما اقتصر صاحب المفتاح على ما ذكره اتكالا على وضوح المراد (١) .

وقد يقال إن كلام السكاكي خاص بما إذا لم يكن هناك ضرورة تدعو إلى القول بالتهمية (٢) ومن هذا العرض الموجز لتلك الشبهة التي أثارها السعد وما دار حولها من مناقشات نرى أنها أيسر في التأمل وجوه الدفع والتخريج بما يمكن معه التماس وجه أو أكثر لتصحيح كلام السكاكي على خلاف الاعتراض السابق وإن كان هناك اعتراض آخر لا يقل عما سبق إن لم يكن هو الأهم .

ثالثا : اعتراض صاحب الكشف :—

وقد أورد السيد نقلا عن صاحب الكشف اعتراضه على إطلاق السكاكي الرد في التهمية إلى المكنية موجزا التفصيل .

يقول السيد (ورد عليه صاحب الكشف بأنه قد يكون تشبيه الصدر هو المقصود الأصلي والدافع الجلي . ويكون ذكر المتعلقات تابعا ومقصودا بالعرض . فلا استعارة حينئذ تكون تهمية كما في قوله :

تُقْرِي الرِّيَاحُ رِيَاضَ الْحَزْنِ مُزْهِرَةً إِذَا سَرَى النَّوْمُ فِي الأَجْفَانِ إِيقَاظَا

فان التشبيه ههنا إنما يحسن أصالة بين هبوب الرياح عليها وبين القرى . ولا يحسن التشبيه ابتداء بين الرياح والضيف ولا بين الرياض والضيف . ولا بين الإيقاظ والطعام . نعم يلاحظ التشبيه بين هذه الأمور تبعا لذلك التشبيه . ولا يصح أن يعكس فيجعل التشبيه بين الهبوب والقرى تبعا لشيء من هذه التشبيهات . فلا يصح هذا رد التهمية إلى المكنية عند من له ذوق سليم .

وقد يكون التشبيه في المتعلق غرضا أصليا وأمرا جليا . ويكون ذكر الفعل واعتبار التشبيه فيه تبعا فحينئذ يحمل على الاستعارة بالكناية كقوله تعالى : ﴿يَنْقُضُونَ

(١) ينظر حاشية الأمير على رسالة الصبان ص ٤٠٢ .
(٢) ينظر السابق نفس الموضع .

عهـد الله) فان تشبيه العهد بالحبل مستفيض مشهور .

وقد يكون بالتشبيه فى مصدر الفعل وفى متعلقه على السويه فحينئذ جـاز أن يجعل استعارة تبعية وأن يجعل استعارة مكنية كما فى قولك : نطقت الحال ، فإن كلا من تشبيه الدلالة بالنطق ، وتشبيه الحال بالمتكلم ابتداء مستحسن . فظهـر أن ما اختاره السكاكى من الرد مطلقا مردود (١) .

وما من شك فى أن هذا التفصيل فى ذاته إنما هو الرضى وينبغى أن يكـون عليه المعول وقد استحسنه السعد فى حواشيه على الكشاف وكذا الشهاب الخفاجـى فى العناية (٢) وإن ذكر وجها فى التفرقه بين المكنية والتبعية قريبا مما سبق ويظـن أن صاحبه الأول السيد الشريف (وخلاصته أنه يصار إلى المكنية إذا كان اللازم المذكور قد اشتهر أنه من لوازم المشبه به . وكان تشبيه المذكور بالمستعار منه المحـذوف تشبيها شائعا . كما فى قوله تعالى :(ينقضون عهد الله) وقولنا عالم يغترف منـه الناس . إذ كون النقض والاغتراف من لوازم الحبل والبحر امرا مشهورا . وتشبيـه العهد بالحبل والعالم بالبحر تشبيه كذلك مستفيض . وليس الأمر كذلك فى تشبيه القلوب بالأوانى فإنه إنما يفهم من إيقاع الختم عليه) أى فى قوله تعالى :(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم) وقيمة ما ذكره صاحب الكشف فى التفصيل ذاك إنما بعد ذلك أن نتفق معه أو نختلف فى التطبيق ما دام هناك مسوغ معنوى يتحقق بالحمل على اعتبار بعينـه بحيث يفوت عند اعتبار غيره ومن هنا فلا يقدح فيما ذكـر مناقشة بعضهم لتمثيل صاحب الكشف إذ يرى هذا البعض أن تمثيله للقسم الثانى بنقضون عهد الله . والثـالث بنطقت الحال غير مرضٍ بل الأولى عنده جعل الآية والمثال من التبعية لأن المقصـود فى الآية تشبيه إبطال العهد بنقض الحبل . لا تشبيه العهد بالحبل لأن المطـلوب اثبات أنه لا يبقى للعهد انعقاد ولا يترتب عليه أثاره المطلوبه سواء كان مثل الحبـل أو غيره فى الاتصال . وكذلك المقصود تشبيه الدلالة بالنطق لا تشبيه الحال بالمتكلـم مطلقا وقد أجاب عليه الصبان (٣) .

---

(١) حاشية السيد على المطول (طبعه منفصـله) ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .
(٢) ينظر حاشية الامبابى على رسالة الصبان ص ١٠٧ .
(٤) ينظر رسالة الصبان ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

وأقول إن إيثار اعتبار بعينه لا يؤدي حتما إلى خطأ غير ضرورة أن يلتزم على ذلك الصادرة على الأفهام والاذواق وهذا ما لا ينسجم وطبيعة الفن البلاغي فليس المهم أن تكون الصورة مكنية أو تبعية بل ولا حتى أن تكون استعارة على الاطلاق وانما الاصل والأساس المعنى المحصل وفق ما يقتضيه الحال بغض النظر عن الاسم الاصطلاحي اذ لا اعتبار له في ذاته .

ويشكل ما تؤول به مذهب السكاكي في القديم لم يرتضه كثير من المحدثين الا في القليل على سنبينه عند الحديث عن المجاز العقلي .

ومما سبق يظهر أن مذهب السكاكي من رد التبعية إلى المكنية ورد على إطلاق يستوعب أنواع التبعية وأن مبناه على الترجيح لغايات قد نوقش فيها كما أوجد مذهبه اعتراضات أقيم بعضها على أسس موضوعية غير أن الكثير منها لم يكن يقصد به سوى الجدل النظري ليظل أهم ما يؤاخذ عليه السكاكي إطلاقه الرد لعدم إطراده لبنا الفن البلاغي على التنوع في الصورة المعبر بها تبعا لاختلاف الاحوال وتفاوت المقاصد .

واذا كان ما سبق يمثل موقف السكاكي في رده التبعية إلى المكنية وما ترتب عليه من مناقشات فإنه يبقى أن نبحث عن موقفه حول المجاز العقلي .

المكنية والمجاز العقلي :—

يبحث صاحب المفتاح هذا الاسلوب أولا تحت فصل المجاز العقلي (١) محددا له ومقسما مع التمثيل والتخريج ، وكذا موردا لبعض الشبه التي قد ترد على اعتباره وردّ عليها مع امتياز تناوله بالدقة والتنظيم وربما الاضافة ايضا في بعض الجوانب الا انه اختتم هذا الفصل بأن ما سبق إنما هو بحسب رأي الاصحاب ولعله يريد بهم هنا : عبد القاهر وصاحب الكشاف (وأما هو فيرى رده الى الاستعارة بالكناية .

---

(١) المفتاح ص ١٨٥ وما بعدها .

يقول السكاكي مبيناً أن ما سبق إنما يمثل رأي الاصحاب لا رأيه هو «وإلا فالذي عندي هو نظم هذا النوع في سلك الاستعارة بالكناية بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبيه على ما عليه مبنى الاستعارة كما عرفت وجعل نسبة الإنبات إليه قرينة الاستعارة وبجعل الأبير المدبر لأسباب هزيمة العدو استعارة بالكناية عن الجند الهازم وجعل نسبة الهزم إليه قرينة الاستعارة»(١).

وقبل أن أبحث عن وجه لما ذهب إليه السكاكي وما دار حول مذهبه من مناقشات نبدي ثلاث ملاحظات :—

أولا : لم يرد في كتاب المفتاح هنا نص صريح يفيد إنكار السكاكي للمجاز العقلي على معنى ينتفي معه عدم اعتباره له أصلا .

ثانيا : أن الظاهر في مذهبه الاطلاق بما يشمل صور المجاز العقلي جميعها .

ثالثا : أنه صرح بأن قرينة المكنية فيما يرد إليها من المجاز العقلي تكون في الإثبات على مذهب غيره فيها وليست هي التخييلية على مفهومه لها بل تحصل هنا بمجرد إثبات نحو الأنبات للربيع كما سبق تفصيله في البحث عن صور قرينة المكنية عنده فلا وجه إذاً للشبهة التي أوردها البناني وغيره على ذلك(٢) فما محل النزاع إذاً ؟ .

تحرير محل النزاع :—

يوافق السكاكي الجمهور في أن هناك تجوزا في إثبات المسند للمسند إليه كما يتفق أيضا في أن المسند حقيقة وإنما الخلاف في أن السكاكي يرى أن التجوز في الإثبات تابع لتجوز آخر في المسند اليه عن طريق تنزيل الربيع في قولنا أنبت الربيع البقل مثلا منزلة الفاعل القادر المختار ادعاء على سبيل المكنية بقرينة اثبات الانبات للربيع .

---

(١) المفتاح ص ١٨٩ .

(٢) ينظر تجريد العلامة البناني على مختصر السعد ص ١٤٢ .

هل لما ذهب اليه السكاكى أصل فى كلام السلف ؟

من المعلوم أن الزمخشرى كان يفرق بين المجاز اللغوى والمجاز العقلى وكان حينما يرد صورة التركيب بين المجازين يقول فى قوله تعالى (إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا) ، ووصف اليوم بالعبوس مجاز على طريقين ، أن يوصف بصفة أهله من الاشقياء كقولهم : نهارك صائم ... وأن يشبهه فى شدته وضرره بالاسد العبوس أو الشجاع الباسل (ولا يبعد أن تكون صحة الوجهين فى هذه الصورة أيضا يعقب السكاكى اختيار التجوز اللغوى على التجوز فى الاسناد وقد جعله من الاستعارة المكنية التى رأينا الزمخشرى يحلل المثال تحليلا يشير اليها ، حيث يشبه اليوم بالأسد العبوس أو الشجاع الباسل ، ثم نرى الذكر وصف الاسد أو الشجاع [1] .

وعلى هذا يكون ما جعله الزمخشرى وجها محتملا قد جعله السكاكى الوجه المختار عنده لغاية أو غرض .

الدافع وراء ما ذهب إليه السكاكى :-

لم يرد فى المفتاح تعليل للرد إلى المكنية هنا ، ويمكن أن يكون حجة السكاكى فى هذا الرد أنه يريد تقليل الاقسام وعلى ذلك ، فإننا لا نستطيع أن نوافقه فى هذه القضية البسيطة ذلك لأن تقليل الأقسام لا يصح أن يكون على حساب البلاغة العقلى بأن يلغى هذا البحث من بلاغة العرب [2] . ومن جهة أخرى فان الرغبة فى تقليل الأقسام هنا وجد عكسها تماما فى بلاغة السكاكى [3] .

وأما إن كان القصد من الرد حصول فائدة معنوية إذ فى المكنية مزيد مبالغة فلا ينبغى أن نتجاهل الخصوصيات الواضحة التى تتميز بها الطرق المختلفة فى أداء المعانى ، والفيصل فى إيثار صورة على أخرى الحال ومقتضياته .

---

(١) الكشاف جـ ٤ صـ ١٦٦ .
(٢) ينظر بحوث المطابقة لمقتضى الحال د . على البدرى صـ ٢٠٨ .
(٣) ينظر المفتاح صـ ١٨٩ .

مناقشة السكاكى :—

ولم يقابل اتجاه السكاكى بالرضا والقبول التام بل توقف فيه واعترض عليه من قبل القدماء والمحدثين الا من القليل ولعل من أبرز ما اعترض به عليه ما كان من الخطيب .

اعتراضات الخطيب :

اعترض الخطيب بأن قوله " عدول فى مجملها على بطلان رأى السكاكى لعدم اطراده لفساد بعض الاساليب عند اعتباره . وان حاول السعد إبطال ما اعترض به .

وتلك الاعتراضات هى :—

أولا : انه لا يمكن جريان ما ذهب إليه فى بعض التراكيب مثل قوله تعالى: "فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ" بناء على مذهبه فى المكنية اذ يقتضيه يكون المراد بعيشة صاحبها وهذا الاعتراض مبنى على أن المراد بعيشة وضمير راضية واحد [١] . اى ان الضمير فى راضية يعود إلى عيشة فيلزم أن يكون بمعنى واحد . وهو باطل اذ لا معنى لقولنا فهو فى صاحب عيشة راضية . لما فيه من ظرفية الشىء فى نفسه .

ثانيا : أنه يلزم عليه أن لا تصح الإضافة فى كل ما أضيف الفاعل المجازى إلى الحقيقى نحو : نهاره صائم . لبطلان إضافة الشىء إلى نفسه اللازمة من كلامه لأن المراد بالنهار حينئذ فلان نفسه ولا شك فى صحة هذه الاضافة لوقوعها فى الكتاب العزيز مثل قوله تعالى "فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ" . وان كان تمثيل الخطيب بنهاره صائم مما يناقش فيه بأن الاستعارة إنما هى فى ضميره المستتر لا فى نهاره [٢] .

ثالثا : أنه يلزم أن لا يكون الأمر بالايقاد على الطين فى قوله تعالى: "فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا" . وبالبناء من قوله تعالى : "يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا" . لهامان بل يكون للصفة الذين شبه هامان بهم مع أن النداء له فيكون الامر له أيضا فلا يلزم تعدد المخاطب فى كلام واحد .

(١) ينظر الايضاح ص ٢١ .
(٢) ينظر مختصر السعد على التلخيص ص ٤٤٣ ، ٤٤٤ (٣) ينظر المطول ص ٦٦ .

رابعا : انه يلزم توقف جواز التركيب من نحو قولهم " أنبت الربيع البقل وسرتني رؤيتك — على الإذن الشرعي ، لأن اسماء الله تعالى توقيفية .

خامسا : ثم يلزم الخطيب اعتراض آخر ربما لأنه رأى فيه ما يكفي لابطال مذهب السكاكي لكونه منقوضا بنحو قولهم " فلان نهاره صائم فإن الاسناد فيه مجاز ولا يجوز أن يكون النهار استعارة بالكناية عن فلان لأن ذكر طرفي التشبيه يمنع من حمل الكلام على الاستعارة ويوجب حمله على التشبيه .

جواب السعد :—

وقد حاول الشراح الرد على اعتراضات الخطيب لكن يبقى جواب السعد اقربها إلى القبول .

وجواب السعد يقوم على أن ما اعترض به الخطيب مؤسس على أن مذهب السكاكي في الاستعارة بالكناية هو ذكر المشبه وارادة المشبه به حقيقة وهذا وهم ظاهر لظهور أن ليس المراد بالمنية من قولنا مخالب المنية نشبت بفلان السبع حقيقة ، بل المراد الموت لكن بادعاء السبعية له على التفصيل الآتي في مذهبه بإن كان السعد يعلق بأن الخطيب لم يطلع عليه[1] . ثم يبدأ السعد الجواب التفصيلي فيدفع الاعتراض الأول بأنه بناء على مراد السكاكي يكون المراد بحيوانية صاحبها بادعاء الصاحبية لها . وعلى الثاني: بأن المراد بالنهار الصائم بادعاء الصائمية له لا بالحقيقة حتى يفسد المعنى ويبطل الاضافة وعلى الثالث بأن المقصود كون الامر بالبناء لها مان كما أن النداء له لكن بادعاء أنه يعي وجعله من جنس العقلاء لفرط المباشرة . وعلى الرابع بأنه لا يكون الربيع مثلا مطلقا على الله تعالى حقيقة حتى يتوقف على السمع إذ المراد به حقيقة هو الربيع لكن بادعاء انه قادر مختار من أجل المبالغة في التشبيه . وأما جواب الاعتراض الخامس فبينه السعد بقوله إنا لا نسلم أن ذكر الطرفين مطلقا ينافي الاستعارة بل إذا كان على وجه ينبيء عن التشبيه سواء كان على جهة الحمل نحو زيد أسد .

---

(١) ينظر مختصر السعد على التلخيص ص ٤٤ .

أو لا تحو لجين الماء يدل على انه جعل تحولها " قد زار وتوارى على القمر " من قبيل الاستعارة مع اشتراك على ذكر الطرفين ، على أن المشبه هنا هو شخص صائم مطلقا والمشبه الفلان نفسه من غير اعتبار كونه صائما أو غير صائم .

ويذكر السعد لا جوبة أخرى لغيره كما يفصل السيد الحديث في هذا الأسلوب والوجه المتصور اعتبارها معه (١) .

والحق أن الصد على جهده هنا يظهر وكأنه يناقش افتراضات الخطيب أكثر منه مؤيدا لا تجاه السكاكي .

موقف المحدثين حول مذهب السكاكي :-

يكاد يجمع المحدثون على رفض اتجاه السكاكي ووصفه بالتكلف مع الاختلاف بينهم في توجيه أسلوب البجاز العقلي في ذاته فقد ذهب كثير من الباحثين إلى أن محل التجوز في الاثبات متابعة لجمهور البلاغيين وعبد القاهر إمام هذا الفن لأنه لا تكلف فيه كما هو شأن مذهب السكاكي ولأن للبجاز العقلي طريقه غير طريق الاستعارة بالكناية لأنها تقوم على علاقة المشابهة كغيرها من الاستعارات بخلافه فلا يصح حمله عليها (٢) .

وذهب أحد الباحثين إلى أن فيما ذهب إليه السكاكي تكلفا واضحا (وكان حقا إما أن يتابع الزمخشري وعبد القاهر في هذا البجاز أو يلغيه إلغاء ، لأنه في حقيقته يعود إلى ضرب من التسامح في التصوير وليس هناك من يفكر حين يقول : أنبت الربيع الزهر في مجازا ولا في استعارة) (٣) .

وإذا كان الاستاذ الباحث يؤثر الغاء البجاز العقلي أصلا على ما يفهم من كلامه فإن هناك باحثا آخر يصرح بعدم الحاجة إلى الاعتداد بهذا التركيب في باب البجاز لأن تلك الملابسات بين المسند إليه من القوة بدرجة لا تخفى ، والكلام

---

(١) ينظر المطول ص ٦٥ وما بعدها .
(٢) ينظر بغية الايضاح جـ١ ص ٧٠ ، ٧١ .
(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ٣١٠ .

فى الحقيقة ليس إلا ضربا من التوايد بين الأثر والمؤثر ، وقد وضحت تعلقه العلائق للذهن وضوحا جائزا إلى حد يمكن معه أن يصير المعنى الحقيقى أولى بكلمة المجاز من هذا المجاز المشهور . بل إن الباحث يقرر أن ليس للمجاز العقلى شيء من الأثر فى صناعة الادب أو من النقد يمكن أن يعتد به ويهتم له . (كان مثل هذا البحث بالذات مظهرا من مظاهر غلبة علم الكلام وتوغله فى الدراسات البيانية وإفساد جوهرها) (١) .

واذا كنا نرتاب كثيرا فى صلاحية النكتة المؤلفة بمقتضيات المجاز العقلى على وجه الاطراد ، فاننا نقابل بارتياب أكثر أمثال تلك الآراء الناشئة باطراح المجاز العقلى أو إخراجه من دائرة المجاز ، لكون تراكيبه عارية عن مضامين يعتد بها فى ميدان الأدب وفنونه . نعم إن هناك قدرا غير قليل من أساليبه تصل بأمور دينية ، وكان ذلك من أكبر العوامل وراء عناية كثير من البلاغيين بحيث صار (فى تفسير الكشاف من أهم البحوث التى عنى بها الزمخشرى) (٢) .

لكن ينبغى أن لا نغفل فى الوقت ذاته أن هناك عددا غير قليل من الشواهد الأدبية لهذا الباب لا تتصل بقضايا دينية اتصالا مباشرا أو غير مباشر .

فالمجاز العقلى وان استند فى جوانب عديدة من أصوله إلى غايات عقدية إلا أنه من غير شك قد جاوز فى التطبيق تلك الحدود بحيث أضحى صالحا لتصوير كثير من خلجات النفوس وخفقات القلوب ، وإلا فكيف نفهم إشادة عبد القاهر بهذا الضرب وأنه (على حداثته كنز من كنوز البلاغة وبادة للشاعر المفلق ، والكاتب البليغ فى الابداع والاحسان والاتساع فى طرق البيان ...) (٣) .

وفى الوسع المناقشة والتدليل على صحة هذا التجوز لولا أن ذلك خارج عن نطاق بحثنا .

---

(١) ينظر على البيان د . بدوى طبانة ص ١١١ ، ١١٢ .
(٢) البلاغة القرآنية . د : ابو موسى ص ٤٤٦ .
(٣) دلائل الاعجاز ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

دفاع عن مذهب السكاكى :

رأينا كيف أن أغلب المحدثين يتكون على صاحب المفتاح مذهبه ولا يرون فيه ما يشجع على الأخذ به • وبرغم ذلك فلم يعدم السكاكى أن يجد من يحاول الدفاع عن موقفه من التبعية والمجاز العقلى •

فقد رأى أحد الباحثين أن رد السكاكى التبعية والمجاز العقلى ليس فيه ضرر وليس هدما لكيان البلاغة (١) •

وواضح أن دفاع الباحث غير مشفوع بتعليل على يستند إلى أساس موضوعى ومن هنا كان إلى الاعجاب بالسكاكى والتحمس أقرب منه إلى المناقشة الموضوعية •

تعقيب :—

وبعد أن عرضنا اتجاه السكاكى فى المجاز العقلى وبعض ما أثاره من مناقشات نرى أن أكثر ما يعاب مسلك السكاكى ما بنى عليه من تعميم وإطلاق لأن التشبيه لأجل المبالغة فى السند إليه إنما يتصور فى بعض ألوان المجاز العقلى دون الآخر فلا مناص من الاعتراف بالمجاز العقلى لونا بيانيا خاصا له أصوله وسماته وغاياته أيضا التى قد لا تتحقق عند الأخذ بتصوير آخر فمثلا يقول الزمخشرى فى قوله تعالى (جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) •• [وإسناد الجرى إلى الأنهار من الإسناد المجازى • كقولهم : بنو فلان يطؤهم الطريق • وصيد عليه يومان] • ويشير إلى الفيمة البلاغية فى هذا النوع من الإسناد • وإلى أن مرجع الحسن فيه هو تخييل أن المكان يقع منه الحدث وفيه من المبالغة وقوة التأثير ما ليس فى غيره) (٢) •

ونخلص إلى أن لكل من المجاز العقلى والكنية ما يسوغ لهما كل على حده والمدار فى إيثار فن على صاحبه انما هو الحال ومقتضياته •

---

(١) البلاغة عند السكاكى د • احمد مطلوب ص ٣٣٣ •
(٢) الكشاف جـ ١ : ص ٢٥٨ •

ومن كل ما سبق يظهر أنه كان للسكاكي جهد لا ينبغي إنكاره وبخاصة على طريق التحديد والضبط والتقسيم كما كانت له آراؤه الخاصة والمتميزة حول مفهومه للكناية وأنها في الشبه المنزل منزلة الشبه به ادعاء بدليل اثبات ما للمشبه به للمشبه وأيضا فالتخييلية عنده تعد من التجوز اللغوي من قبيل الاستعارة التصريحية لأنها لفظ المشبه به المستعار لأمر وهمي محض وأما قرينة الكناية فلم يقصرها على التخييلية حتى على مذهبه بل تحصل عنده بحقيقة أو بتحقيقية كما ظهر كذلك تفرده بورد كل من التبعية والمجاز العقلي إلى الكناية .

وقد أوجدت آراؤه تلك صدى عميقا لدى البلاغيين بعده حيث خلفت كما هائلا من المناقشات وقد وضح كيف أن الخطيب قد شارك بالنصيب الأوفى حيث فتح الطريق باعتراضاته المشهورة لكي يتناولها الشراح وأصحاب الحواشي مناقشة وجدلا على أسلوب تلك المرحلة في البحث البلاغي لتصبح الكناية بحق من أهم وأبرز الفنون البلاغية تناولا وجدلا الأمر الذي دفعهم الى معاودة النظر في كلام السلف يستخلصون منه ما يمكن الاعتداد به مذهبا في الكناية بعد أن أحاطت بمذهب السكاكي الشبهات ومن هنا ظهرت في الكناية مذاهب أخرى .

الفصل الثانى
مذاهب المكنية بعند السكاكى

المبحث الاول :

مذهب الخطيب القزوينى

المبحث الثانى :

مذهب الجمهور

المبحث الثالث :

المذهب المنسوب الى صاحب الكشف ، ومذهب العصام

مذاهب المكنية بعد السكاكي

المبحث الأول

مذهب الخطيب ت ٧٣٩هـ (١)

ذكرت فيما سبق عند الحديث عن الإمام عبد القاهر — طيب الله ثراه — أنه قد حور الفرق بين ضربين من ضروب الاستعارة - وذلك في أكثر من موضع من كتابيه الخالدين - حيث رأى أن هناك فرقا واضحا بين ذلك الضرب الذي ينقل فيه اللفظ عن مسماه الى أمر آخر ثابت معلوم - وضرب آخر : لا نرى فيه اللفظ ينتقل الى شيء يمكن أن ينص عليه فيقال : هذا هو المراد بالاسم وقد طبق ذلك على ما في قول لبيد المشهور (يد الشمال) على ما سبق ايضاحه وهناك .

فلما جاء الخطيب وأضاء يرد ذلك المورد العذب و يبني على كلام الشيخ فيستخلص رأيا آخر في المكنية والتخييلية بعد أن أبطل ما ذهب اليه السكاكي واقام عليه اعتراضاته المشهورة على ما مر .

وأول ما نلاحظه ان الخطيب لم يتناول المكنية والتخييلية ضمن احاديث الاستعارة . بل أفردهما بفصل خاص - لكونهما أمرين معنويين لا مدخل لهما في التجوز اللغوي (٢) .

---

(١) تاريخ علوم البلاغة ص١٣٤

(٢) ينظر المطول ص٣٨١ - والمختصر ص ٢٨٨

وقد بين الخطيب فى هذا الفصل مراده من كل من المكنية والتخيلية مفصلا أنواع اللازم وموضحا بعض الاستعارات المحتملة للتحقيق والتخييل كما سبق له ان فسر التبعية فى الحرف بما يؤول الى المكنية .

المكنية والتخييلية :

والمكنية عند الخطيب هى التشبية المضمر فى النفس المتروك أركانه عدا المشبه المدلول عليه باثبات لازم المشبه به للمشبه . وقرينتها وهى اثبات لازم المشبه به للمشبه تسمى استعارة تخييلية .

ففى قولنا لسان الحال ناطق بكذا استعارة بالكناية حيث شبهت الحال الدالة على المقصود بأنسان متكلم تشبيها مضمرا فى النفس بجامع الدلالة وهذا التشبيه هو المسمى الاستعارة بالكناية واثبات لازم المشبه به وهو اللسان . استعارة تخيلية وهو قرينة المكنية .

وعبارته فى الايضاح (قد يضمر التشبية فى النفس فلا يصرح بشىء من أركانه سوى لفظ المشبه . ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به من غير ان يكون هناك امر ثابت حسا او عقلا . اجرى عليه اسم ذلك الامر فيسمى التشبية استعارة بالكناية او مكنيا عنها واثبات ذلك الامر للمشبه استعارة تخيلية) (١) .

وعلى كلامه يكون المشبه مستعملا فى حقيقته الوضعية خلافا للسكاكى كما سبق .

ولازم المشبه به كذلك فليس فى الجزء بن تجوز لغوى وإنما التجوز فقط فى اثبات لازم المشبه به للمشبه قرينه للمكنية على طريق المجاز العقلى اخذاً من مفهوم له فى موضع آخر (٢) .

---

(١) الايضاح ص١٧٦
(٢) ينظر الايضاح ص١٧٩

وقد اعترض احد المحدثين بأن هذا أمرٌ يصح عند الخطيب اذا كان لازم المشبه به فعلا او ما في معناه بخلاف نحو • انشبت المنية اظفارها بنا • على تعريفه للمجاز العقلي ، على انه قد سبق ان المجاز العقلي لا يقوم على اساس التشبيه والتخيلية عند الخطيب تقوم على اساسه لانها اثبات لازم المشبه به للمشبه • فلا توجد الا ومعها تشبيه قطعاً • (١)

ولا شك ان لذلك وجها وان كنت أرى ان هذا الخلاف قليل الثمرة لان الامر فيه يرجع الى اختلاف في التوجيه تابع لاختلاف في الاعتبارات •

التلازم بين المكنية والتخييلية :—

وكلام الخطيب صريح في اشتراط ان لايكون الامر المختص بالمشبه به مجتنى على امر اخر خاص بالمشبه حسيا أو عقليا وهذا يعني ان قرينة المكنية عنده لاتكون الا تخيلية في الاثبات فقط • خلافا لما عند صاحب الكشاف والسكاكي على ما مر • كما التخيلية عنده لاتوجد غير تابعة للمكنية لكونها قرينة لها •

وأما نحو (أظفار المنية الشبهة بالسبع اهلكت فلانا فبعد تسليم صحة هذا الكلام يعد عند الخطيب ترشيحا للتشبيه كما يعني : أطولكن في قوله عليه السلام (••• اسرعكن لحوقا بي أطولكن يدا) • ترشيحا للمجاز المرسل (٢) • فظهر ان المكنية والتخيلية عند الخطيب متلازمتان • لان التخيلية يجب ان تكون قرينة للمكنية والمكنية يجب ان تكون قرينتها تخييلية •

مناقشة مذهب الخطيب •

واذا كان الخطيب هو الذي فتح باب الجدل حول مذهب السكاكي فان السعد قد يكون أول من اثار الشبه حول رأي الخطيب باعتراضه الذي اورده عليه •

---

(١) ينظر بغية الايضاح • عبد المتعال الصعيدي ج ٣ صـ ١٥٤ •
(٢) ينظر المطول ص ٣٨٢ •

اعتراض السعد :—

يقوم اعتراض السعد على أصلين :

الاول : عدم بناء ما ذهب اليه الخطيب على مناسبة لغوية .
الثاني : مخالفته للمأثور من كلام السلف [١] .

والحق ان حكم السعد هذا فيه من الاطلاق ما يستدعي شيئاً من التفصيل والمناقشة ففيما يتصل بالطرف الاول من اعتراض السعد، نجد ان فهم الخطيب لمعنى الاستعارة بالكناية ، وانه التشبيه الضمني في النفس يؤدي الى ان تكون تسميتها استعارة تسمية خالية من المناسبة، سواء قصد بها المعنى المصدري او الاسمي لان ... التشبية المذكور فعل من افعال النفس وليس لفظا ولا استعمالا بل انها للسبب عينية تخرج عن المجاز اللغوي بعلة . وان حاول بعض من الشرح ايجاد بعض وجوه التناسب بأن يقال ان التشبيه المذكور شبيه بالاستعارة في ادراج المشبه في جنس المشبه به او يقال: هي من تسمية السبب باسم المسبب لان التشبيه سبب للاستعارة والذي صرح به غير واحد انها من المشترك اللفظي عند الخطيب [٢] اي اشتراك المعاني المتعددة في لفظ لوضعه لها بأوضاع متعددة ولكون هذا الاشتراك في اللفظ دون المعنى نسب الى اللفظ . [٣]

وان لم يخل وجه مما ذكر من مناقشات .

واما تسميتها مكنية فله وجه، وهو ان معنى الكناية اللغوي ، وهو الخفاء موجود فيها لعدم التصريح بالمشبه به والدلالة عليه بلازمة .

وأما الاستعارة التخيلية قرينة المكنية فتسميتها استعارة من باب التسامح، لان متعلقها وهو اللازم نفسه قد استعير اي نقل عما يناسبه ويلائمه واستعمل على طريق الاثبات مع ما شبه بما يناسبه فهي استعارة لغوية لا اصطلاحية اما تسميتها تخيلية فله وجه ايضاً لانه ليس للمشبه كالحال في المثال الذي ذكرناه امر له وجود في

(١) ينظر المطول ص ١٨٦ ، والمختصر ص ٢٩٠
(٢) ينظر حاشية الخضري على شرح الملوي على السمرقندية ص ١٠٢
(٣) ينظر حاشية الامبابي على رسالة الصبان ص ٢٧٢

الحس او العقل يصدق عليه النقل،وانما هو بالنسبة الى الحال امر يتخيل لا تحقق له (١)

واما عن الطرف الثانى لاعتراض السعد،فقد أخذه كثير من اصحاب الشروح والمطولات مأخذ التسليم دون تفصيل فى الغالب أو مناقشة قاصرين جهدهم فى البحث عما يمكن ان يلتمس وجها لمخالفة الخطيب ما عند السلف فذكروا فى ذلك امرين :

أحدهما:ان الخطيب قصد المغايرة بين المصرحة والمكنية من جميع الوجوه اى فى اللفظ والتقدير لان السلف لما جعلوا المكنية لفظ المشبه به المستعار ... الى آخره، كان بينها وبين المصرحة اشتباه فى التقدير فعمد الى المغايرة حتى تتميز الاقسام أتم تمييز .

والثانى انه رأى ان اضمار التشبيه فى النفس أقوى مناسبة من اضمار لفظ المشبه به فيها لان التشبيه معنى والمعانى كثيراً ما تضمر فى النفس فالاضمار أنسب بها بخلاف الالفاظ وأما وجه التسمية بأمر يرجع الى اللفظ فلا ضير فى عدم مراعاته لان المقصود تمييز الاقسام الواقعة فى كلام البلغاء . (٢)

وظاهر أن ما ذكر فى المقارنة إنما يمثل رأى بعض السلف كصاحب الكشاف والرازى أما عبد القاهر فغير داخل عند التحقيق فى السلف على ما تفيده خطأ عبارة السعد،اذ أن ما ذهب اليه الخطيب لا يكاد يجاوز كثيراً ما سبق ان قرره عبد القاهر حيث ذكر عبد القاهر ما خلاصته ان فى مثل (يد الشمال) أستعارة بمعنى انه أثبت للشمال ما ليس لها وهى اليد بناء على تشبيهها (أى الشمال) بما له يد وهو الانسان كما ذكر أن معنى جعل الشىء للشىء ليس له يكون ثمرة تشبيهه بما جعل الشىء بما هو له فى الحقيقة - ثم إنه أوضح فى تصويره الفرق بين هذا الضرب والضرب الاخر أن التشبيه هنا لا يدرك الا بعد اعمال الفكر وكأنه تحجبه أستار (٣) فأوحى ذلك للخطيب

---

(١) يقظه الاقصاح الاستاذ احمد الحجار ص٢٠٠ ، ص٢٠١

(٢) ينظر حاشية الامبابى على المبانية ص٢٧١ ، ص٢٧٢

(٣) ينظر الفصل الأول من الباب الثالث

أن يعد الاستعارة بالكناية تشبيهاً خفيا مضمرا في النفس يدل على هذا التشبيه باثبات لازم المشبه به للمشبه وسمى هذا التشبيه استعارة بالكناية كما سمى اثبات اللازم للمشبه استعارة تخيلية ولعله أخذ تلك المصطلحات عن الرازى. لاسكاكى كما يرى بعض من المعاصرين (١) .

ومما يزيد الامر وضوحا وتأكيداً أن معظم تمثيل الخطيب وكذا تحليله يكاد يخرج عما عند عبد القاهر الى حد قد يصل الى نقل عباراته كتحليله لبيت لبيد وبيت زهير المشهورين فى المكنية -

ومن هنا نقول فى ثقة وأطمئنان إن ما رآه عبد القاهر فى الضرب الثانى من ضربى الاستعارة يقاربه كثيرا رأى الخطيب ولا فرق بينهما الا أن عبد القاهر نظر فى الاستعارة الى الموجود فى أساليب هذا الضرب • وهو كلمة (يد) مثلا • وجعل التشبيه المحذوف تبعاً بينما جعل الخطيب التشبيه أصلاً • وجعل قرينه المكنية تبعاً له ويؤثر البعض اتجاه الجرجانى •(٢)

ولكن ربما يكون الخطيب قد انفرد بتقسيم الامر المختص بالمشبه به المثبت للمشبه الى مالا يكمل وجه الشبه فى المشبه بعد ونه كثيت الهزلى المشهور والى ما يكون قوام وجه الشبه فى المشبه به كقول الشاعر :—

ولئن نطقت بشكر برك مفصحا •• فلسان حالى بالشكاية أنطق (٣)

ولعله قد استبان الان وجه خطأ السعد، وكثير من المتأخرين ممن تابعوه وان كان البعض قد ألمح فى غير تفصيل إلى وجه الصواب (٤)

واذا كان الخطيب قد تأثر الى حد كبير بعبد القاهر فى المكنية والتخيلية فلقد تأثر كذلك بالسكاكى حين أجرى التبعية فى الحرف على احدى طريقتيه فى تصويرها بما يؤول الى المكنية

---

(١) ينظر البلاغة التطبيقية د • احمد موسى ص٢٠٥
(٢) ينظر هامش الاسرار • خفاجى جـ١ ص١٤٤ وبقية الايضاح جـ٣ ص١٥٧
(٣) ينظر الايضاح ص١٧٧
(٤) ينظر حاشية الانبابى على البيانية ص٢٧١

تصوير الخطيب للتبعية فى الحرف يؤول الى المكنية :—

والبيانيون يختلفون فى تصوير الاستعارة فى الحرف وتسميتها على مذاهب شتى تبعا لاختلافهم فى تعيين محل التجوز والمراد به،والمهم أن الخطيب يخالف مـــا أورده الفتاح فى الاستعارة التبعية فى الحرف [1] فقد فسر متعلق الحرف الـــذى يجرى فيه التشبيه بالمجرور مدخول الحرف فيجعل متعلق الحرف فى الاية الكريمـــة (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزناً) .. العداوة والحزن والاستعارة فـــى الحرف تابعة لتشبيه مدخول الحرف ، وهو العداوة والحزن بالعلة الغائية التى تدخل عليها اللام حقيقة . وبعد تشبيه العداوة والحزن بالعلة الغائية يستعار اللازم من ترتب العلة الغائية لترتب العداوة والحزن على سبيل الاستعارة التبعية [2] وهـــذا التصوير للاستعارة التبعية فى الحرف يجعلها من اساليب المكنية التى يطوى فيهـــا المشبه به مدلولاً عليه بلازمة ومن ثم فقد رأى الخطيب الاصل فيما ذهب اليه أن يعقب فى عدة الاستعارة فى الحرف استعارة مكنية [3] وقد سبق للسعد ان لاحظ أن رأى الخطيب مأخوذ عن الكشاف وناقشه مبيناً أنه غير جار على مذهبه لان المشبه يجب ان يكون متروكاً فى الاستعارة سواء أكانت اصلية أم تبعية،وأما ما ذكره فلا يصلح الا على الاستعـــارة المكنية [4] ولعلنا نستطيع الان القول إن مذهب الخطيب كان يمكن ان يصبح البديل المعقول لما ذهب اليه السكاكى ليسره وبعده عن التعقيد ولكونه اكثر ملاءمة لطبيعـــة الاساليب العربية وفوق كل ذلك لانه مستقى من امام هذا الفن لولا ان السعد قد .. خسلف لدى المتأخرين شعوراً قوياً بأن هذا المذهب لا يمثل سوى أستنباط الخطـــيب فقط حتى يتأتى لهم البحث عن تصوير اخر فى المكنية ينسبونه الى السلف

ولعل من المناسب هنا ان نذكر ان هناك رأيا لأحد معاصرى الخطيب يتصف بالغرابة والمخالفة واعنى به رأى محمد بن على بن محمد الجرجانى ٧٢٩هـ . حيث نفى الاستعارة التخييلية أصلا ويخرج أمثلتها على مقتضى المنطقه لان الاستعارة علـــى مايرى كلهـــا تحقيقية .

---

(١) ينظر المفتاح ص ١٨٠
(٢) ينظر الايضاح ص ١٧٠
(٣) ينظر مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص جـ ٤ ص ١٢٠ وما بعدها .
(٤) ينظر المطول ص ٣٧٥ ، ص ٣٧٦

يقول محمد بن على الجرجانى : " والتخييلية هو أن يخيل أمر من ضمير ان يكون له وجود ، ثم يستعار له أمر وجدوى كأستعارة اليد للشمال ، والزمام للغداة أو القرة . فانه ليس للشمال شئ يستعار له اسم اليد ويجرى عليه أجراء الاسد على زيد مثلا — اللهم الا فى الخيال . وكأستعارة الاظفار لأمر مخيل للمنية فى قول ابى ذويب . وكاستعارة اللسان لامر مخيل للحال . (١)

وواضح انه يقصد بالتخييلية نفس المعنى الذى سبق ويعقب بقوله : (ولى فى هذا الكلام نظر ، لان الاصل أن تكون الاستعارة تحقيقية ، فلا يعدل عنها الا للتعذر ، ولم يتعذر ، لاحتمال ان تكون اليد مستعارة فى قول لبيد عن طبيعة الشمال الفاعلة للبرد . فان نسبتها اليها كنسبة اليد الى الانسان ، والزمام مستعار فيه عن القوة القابلة لبرد الغداة أى : الهواء الحاصل فى الغداة ، بسبب بعد الشمس عن هوائها ، فتكون تحقيقية وان يكون المراد بالمنية فى قول أبى ذويب : ملك الموت . واطلق المسبب على السبب ، وأنث الضمير ، نظرا الى اللفظ واظفارها تكون مستعارة لقدرة ملك الموت ، كما تستعار لها اليد ، فلا تكون تخييلية .

وان يكون اللسان فى قول الاخر مستعار لنفس الحال لا لأمر مخيل منسوب اليه فأن لكل احد لسانين : مقالة وحالة ، فأضافة الى الحال للتخصيص فتكون الاستعارة تحقيقية .

وهكذا نقول فى كل ما جاء من هذا النوع (٢)

وواضح ان الجرجانى وان قصد بالتخييلية التى نفاها ما جرى عليه السكاكى الا أن مؤدى تخريجاته نفى الكنية ايضا على كل مذهب فيها وهذا يعنى اغفال خصوصية مهمة من خصوصيات الفن البلاغى لها مذاقها وسياقها . وواضح ايضا ما فى هذا الرأى من مخالفة ما عليه أئمة هذا الفن يضاف الى ذلك التكلف الشديد فى تلك التخريجات والتى لا يقره عليها كل صاحب ذوق وطبع .

---

(١) الاشارات والتنبيهات فى علم البلاغة لمحمد بن على بن محمد الجرجانى تحقيق د . عبد القادر حسين .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٩ .

البحث الثانـــى

مذهب الجمهـــور

واذا كان الخطيب قد استطاع ان يجعل معظم علماء البلاغة متابعين له فى نقض مذهب السكاكى فان مذهبه المأخوذ عن عبد القاهر لم يكتب له أن يسود بعد أن شكك السعد فى نسبته الى السلف .

وقد اشرنا فيما سبق الى أنه قد أسىء فهم مراد السعد من السلف وسنرى كيف أنه قد أسىء فهم مراده من السلف مرة اخرى حين أورد ما يشعر به كلامهم فى المكنيه مخالفاً ما قال به الخطيب وكانت النتيجة أختلاط الامر على الكثيرين حتى لدى بعض المعاصرين فيما ذكره السعد منسوباً الى السلف ذكره من بعده منسوبا الى الجمهور تارة والى السلف تارة أو اليهما معاً تارة أخرى دون تحديد دقيق .

والحق أن عبارة الجمهور أو السلف فيها من الاتساع والتعميم بما قد يقع معه البعد عن وجه الصواب .

فاذا سألنا عن المراد من السلف أو الجمهور أصحاب هذا المذهب الذى نحن بصدده وجدنا بعض المصادر تذكر أن المراد بالسلف القدماء إن قيدهم المصام بمن تقدم السكاكى والخطيب (١) .

كما فسر بعض اصحاب الحواشى السلف بصاحب الكشاف ومن قبله ومن بعده (٢) ولعل هذا الخلط يفتقر الى شىء من التحقيق على ان محاولة التأصيل لتلك المسألة يقتضى العودة بها الى أصلها الأول لنرى ماذا قال السعد؟ وما حقيقة مراده؟ وما وجه الصواب ثم ماذا اضاف المتأخرون الى اصول هذا المذهب؟

---

(١) ينظر الملوى على السمرقندية بحاشية الخضرى ص ٩٥

(٢) ينظر شروح التلخيص جـ ٤ حاشية الدسوقى ص ١٥٩

لعل من الأمور التي لا يكاد يخالطها شك أن المطول لسعد الدين يعد من أكثر المصادر البلاغية حتى عهده تأثراً بكشاف الزمخشري وتأثيراً فيه كذلك فقد وجه السعد عنايته لتفسير كلام الزمخشري وتحليل مثله واستنباط الاصول والقواعد البلاغية منها في ضوء الدراسة العلمية المقررة لقواعد الفن في عصره ولذلك يرجع اليه الفضل الاول في ابراز جهود صاحب الكشاف في البلاغة بصورتها العلمية التي استقرت بعد المفتاح .

وقد يكون من أكثر مواقف السعد دلالة على ذلك توضيحه لوجهة الزمخشري في الاستعارة التي أشبهت من الرازي بالاستعارة بالكناية ليرد بها على طريقة الخطيب وليؤكد أن للسلف فهماً آخر مغايرا .

يقول السعد (فان قلت ما ذكره المصنف من تفسير الاستعارة بالكناية شيء لا مستند له في كلام السلف ولا ينبغي على مناسبة لغوية . وكأنه استنباط منه . فما تفسيرها الصحيح ؟ قلنا معناها الصحيح المذكور في كلام السلف هو ألا يصرح بذكر المستعار بل يذكر رديفه ولازمه الدال عليه . فالمقصود بقولنا أظفار المنية .. استعارة السبع للمنية كاستعارة الاسد للرجل الشجاع في قولنا : رأيت أسداً الكنا لم نصرح بذكر المستعار . أعني السبع . بل اقتصرنا على ذكر لازمه لينتقل منه الى المقصود كما هو شأن الكناية فالمستعار هو لفظ السبع المصرح به والمستعار منه هو الحيوان المفترس والمستعار له هو المنية . وبهذا يشعر كلام صاحب الكشاف في قوله تعالى : (ينقضون عهد الله) حيث قال : شاع استعمال النقض في ابطال العهد من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة لما فيه من اثبات الجملة بين المتعاقدين . وهذا من اسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار . ثم يرمزوا اليه بذكر شيء من روادفه فينبهوا بذلك الرمز على مكانه . نحو شجاع يفترس أقرانه . ففيه تنبيه على أن الشجاع أسد هذا كلامه . وهو صريح في أن المستعار هو اسم المشبه به المتروك والمرموز اليه بذكر لازمه . لاكنا قد استفدنا منه ان قرينة الاستعارة بالكناية لا يجب ان تكون استعارة تخييلية بل قد تكون تحقيقيه كاستعارة النقض لابطال العهد . (١)

---

(١) المطول ص٣٨٢ ، ٣٨٣

وهذا استنباط دقيق وفهم واضح يبين فيه رأى الكشاف فى مسألتين الاولى فى معنى الاستعارة المكنية وانها هى المستعار المحذوف المرمز له بذكر لازمه والامر الاخر : ان اللازم قرينة المكنية قد يقع استعارة تحقيقية •

والاهم ان استشهاد بكلام صاحب الكشاف أو استناده اليه يعين مراده من السلف رحتى على افتراض دخول غير الزمخشرى معه كالرازى مثلا وان لم يورد له ذكرا فان عبد القاهر غير معنى هنا بحال وبما يزيد الامر وضوحا وتأكيداً أن السعد نفسه قد صرح بعد ذلك بأن (الشيخ عبد القاهر لم يشعر كلامه بذكر الاستعارة بالكناية • وانما دل على أن فى قولنا أظفار المنية بمعنى انه أثبت للمنية ما ليس لها بناء على تشبيهها بما له الاظفار • وهو السبع وهذا قريب مما ذكره المصنف فى التخييلية) نعم يمكن ان نختلف مع السعد فيما أدعاه بأن كلام عبد القاهر لم يشعر بذكر المكنية على ما مر من تفصيل •(١)

ولعله قد ظهر الان أن ما ذكره السعد فى المكنية مأخوذاً عن السلف انما يمثل رأى صاحب الكشاف كما لا يخرج عما قرره الرازى (٢)

ومن هنا ندرك مدى الخطأ والخلط الذى وقع فيه عموم المتأخرين حيث اعتبروا عبد القاهر من السلف والجمهور• (٣)

قرينة المكنية :—

رأينا السعد يستدرك على الزمخشرى تجويزه مجىء قرينة المكنية تحقيقية ومع محاولة صاحب الكشف التوجيه يبدو أن ذلك لم يقابل بأستجابه من السعد وجملة المتأخرين فقد تابع فيها السعد الخطيب فى عدم جواز مجيئها غير تخيلية على مسماها

---

(١) ينظر المطول ص ٣٨٣ ، ٣٨٤
(٢) ينظر نهاية الايجاز ص ٩٢ ، ص ١٠٢
(٣) ينظر البلاغة التطبيقية د • احمد موسى ص ٢٠٨

عند عبد القاهر أو إثبات نحو اليد للشمال وكون لفظ اليد حقيقة لغوية وانما التجوز في الاثبات على سبيل المقلى . [1] على ما اوضحناه فيما مر بما نعنى عن التكرار . وعلى ذلك فان هناك تلازما بين المكنية والتخييلية والحق ان الرازى هو أول من أشار الى هذا التلازم [2]

وما سبق نستطيع القول أن هذا المذهب المنسوب الى الجمهور أو السكاكى انما هو استخلاص السعد ومن فى عهده فقد . أخذوا تفسير المكنية من صاحب الكشاف على حين أخذوا تفسير التخييلية قرينتها عن عبد القاهر ومن بعده . الخطيب ربما كان تفسير الرازى لكل من المكنية والتخييلية يعد أكثر طرق السلف اقترابا من مذهب الجمهور مع أن معظم المراجع تهمل الاشارة اليه فضلا عن ابراز تلك الناحية .

مايرجح به هذا المذهب :-

وقد ذكروا لنا فى ذلك أمور .

أولا : ان وجه تسميتها استعارة بالكناية أو مكنيا عنها أو مكنية ظاهرة - أما الكناية فلانه لم يصرح بالمستعار بل دل عليه بذكر خواصه ولوازمه والكناية فى اللغة الخفاء .

وأما الاستعارة فلأن لفظ المشبه به قد استعمل فى المشبه الذى هو غير ماوضع له لعلاقة المشابهة . [3]

ثانيا : أنه أقرب الى الضبط لان الاستعارة يأقسامها عليه هى لفظ المشبهة به المستعمل فى المشبه والضبط أمر مستحسن ولا ترد التخييلية على تقديرهم لانها ليست مقصودة لذاتها اذ هى قرينة المكنية وهم معترفون بأن تسميتها استعارة فيه تسامح . [4]

ثالثا : سلامته من الشبه الواردة على غيره من المذاهب .

رابعا : ما عبر عنه الحموى بقوله : وكفى شاهدا لقوته ذهاب صاحب الكشاف اليه [5]

خامسا : ماذكر من ان أكثر كلام السكاكى يحمل الى هذا المذهب على أقالى به السعد ومن ثم حاول صرف كلامه المخالف ولكن الحق أن للسكاكى رأيا خاصا سبق ايضاحه .

---

(١) ينظر المطول ص ٣٨١
(٢) ينظر الايضاح ص ١٧٩ ، والمطول ص ٣٨٢
(٣) ينظر الملوى على السمرقندية ص ٩٦ ، ٩٧
(٤) ينظر حاشية الاجابى على رسالة الصبان ص ٢٧١
(٥) ينظر ضرر المعارات وغرر الاشارات للحموى ص ١١٣

ولكن النظر والتعمق فى هذا المذهب يكشف أن رأيهم فى كون الاستعارة بالكناية هى لفظ المشبه به المستعار فى النفس للمشبه • ان لفظ المشبه به فى الواقع لم يستعمل فى المشبه - بل انه ليس موجودا فى العبارة وتقدير استعارته تفسير لها امر خارج عن الحقيقة والمجاز • وكلاهما لفظ مستعمل غير ان الحقيقة لفظ مستعمل فيما وضع له والمجاز لفظ مستعمل فى غير ماوضع له الامر الذى دفع بعض المتأخرين وبعض الباحثين المعاصرين الى رمى هذا المذهب بالتكلف لان القول باستعارة اللفظ الدال على المشبه به ثم حذفه فيه تعسف ويخالف للواقع •

من اضافات المتأخرين :—

ورد فى كتب المتأخرين من أصحاب الشروح والحواشى والتقريرات كثير من البحوث المتصلة بالمكنية وان كنا نلاحظ أن بعضا مما ذكروا لا يمثل قيمة حقيقية فى جانب الفن البلاغى الخالص لانه لم يستنبط من النماذج العالية ولذلك فهى أقرب ما تكون الى المسائل النظرية أو الافتراضية ومن ثم جاءت الامثلة مصنوعة متكلفة • على أن ذلك كله لا يمنع أن نتناول بعض تلك البحوث لأنها تمثل أحدى المراحل التى مر بها البحث البلاغى •

الاستعارة المكنية التشبيهية (المكنية المركبة)

يذكر الحموى نقلا عن السعد فى حاشيته عن الكشاف وجود هذا النوع على نحو ما فى قوله تعالى " أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من فى النار " ووضح السعد هذه الاستعارة فى الاية الكريمة على هذا النحو :—

المشبه المركب : هو هيئة أو حالة استحقاقهم العذاب • وهم فى الدنيا وهو ما دل عليه قوله تعالى ﴿ فمن حق عليه كلمة العذاب "

والمشبه به المركب المحذوف هو هيئة دخولهم النار فى الآخرة على طريق الاستعارة بالكناية • واما رمز المشبه به الثبيت — القرينة — فهو هيئة انقاذهم من النار الذى هو من ملائمات دخولهم النار •

وقرينة الاستعارة بالكناية هنا استعارة تحقيقية كما فى نقض العهد على ما هو مذهب الزمخشرى فى الكشاف • (١)

---

(١) درر العبارات وغرر الاشارات فى تحقيق معانى الاستعارات لاحمد بن محمد الحموى تحقيق عبد الحليم ابراهيم شادى ص ١٥٩ •
وحاشية الانبابى على رسالة الصبان ص ٤٤٨ ، ٤٤٩

وعلى ذلك فلا وجه لما ذهب اليه ابن كمال باشا حيث قال : ان القوم قد غفلوا عن هذا النوع من التمثيل ومثل هو له بقوله تعالى : " نساؤكم حرث لكم " .

فالمشبه هو هيئة القاء النطفة فى الارحام للتناسل ، والمشبه به هو هيئة القاء البذور فى الارض للزرع وواضح ان رمزه الدال عليه هو كلمة " حرث " ويقول ابن كمال باشا : ولما كان التشبيه المذكور بناء على هذا التمثيل المتروك ترتب اللازم على الملزوم ولم يقصدا ان يبنى تمثيلا على سبيل الكناية . (١)

المكنية التبعية :-

ينقل الحموى عن الفناري انه يمكن تحقق التبعية المكنية كما فى أعجبنى اراقة الشارب زيد ، ويدل على تأييده للفناري أنه استخرج مثالا آخر لهذه الاستعارة وطبقها عليه من الكشاف وحاشية القطب عليه وذلك فى قوله تعالى أفحسبتم انما خلقناكم عبثا الآية ويلاحظ ان الحموى قد ترك المثال الأول دون تعليق لكنه ينقل تفسير الزمخشرى للآية السابقة وهو (فان قلت كيف كان الشيطان آمرا مع قوله : ليس لك عليهم سلطان) قلت: شبه تزيينه وحثه على الشر بأمر الآمر — كما تقول أمرتنى نفسى بكذا ونحته ونزل انكم منه بمنزلة المأمورية لطاعتكم له — ثم ينقل الحموى تعليق القطب " وتحته رمز ونصه : أى استعارة تبعية ، وإذ أمر الشيطان فى اطاعة الانسان فهو بمنزلة المأمور المنقاد . ففى الاستعارة كناية رمزية على مأموريته وانقياده له .

وقد اجرى الاقباني الاستعارة فى المثال الأول حيث قال : شبه فى النفس الضرب الشديد بالقتل فى شدة الايذاء واستعير فى النفس له ورمز له باراقة الدم . وأشتق منه قاتل بمعنى ضارب ضربا شديدا على طريق المكنية التبعية . واراقة الدم تخييل .

ويلاحظ ان الصبان رغم انه نقل هذه الاستعارة عن الحموى الا أنه اهمل التمثيل بالآية الكريمة . كما يلاحظ ان الفناري صاحب الفكرة أصلا قال ولعلهم لم يتعرضوا لها لعدم وجدانهم اياها فى كلام البلغاء . ويؤكد الاقباني هذا بقوله فلا يقال انها متحققة فى ابلغ كلام ومن ثم جاء مثالها مصنوعا .

واذا كانت المكنية التبعية كما يقول هؤلاء العلماء ومنهم صاحب الفكرة أصلا فلا ينص للحموى أن يأخذ بها ويستخرج لها مثالا من القرآن الكريم وهو فى المرتبة العليا من البلاغة وأما كلام صاحب الكشاف والقطب فلم يقصد به التبعية المكنية . مصرح قول الزمخشرى

(١) دور العبارات ص ٢٠٩

يجرى على الاستعارة الاصلية المكنية ٠

وأما تعليق القطب على قول الزمخشرى : وتحته رمز بقوله: أى استعارة تبعية يقصد أنه قرينة الاصلية المكنية استعارة تبعية ٠ " تحقيقية " على ماهو مذهب الزمخشرى المختلف فيه على ما مر ٠

وعلى ذلك فاجراء الاستعارة الاصلية المكنية فى الآية الكريمة بأن يقال شبه من زين لهم الشيطان الشر بالناس المأمورين بالاستجابة والطاعة وحذف المشبه به ورمز له بشئ من لوازمه وهو الامر على طريق الاستعارة الاصلية المكنية والذى أميل اليه اعتبار الاستعارة تبعية فى الفعل (يأمر) لأنه هو مثار سؤال الزمخشرى كيف كان الشيطان آمراً مع قوله ليس لك عليهم سلطان وايضاح تلك الاستعارة انه شبه تزيين الشيطان الشر بالانسان بأمر الامر فى الاستجابة والطاعة ثم اشتق منه يأمر بمعنى يزين الشر ٠

عدم وجوب ذكر لفظ المشبه بلفظه الموضوع له حقيقـــة :ـ

قالوا : إنه ليس بلازم أن يذكر لفظ المشبه فى المكنية بلفظه الموضوع له على الحقيقة بل يجوز بان يذكر بلفظ مجازى على وجه الاستعارة كأن يشبه شئ بأمرين من وجهين مختلفين ويذكر بلفظ احدهما وثبت له لازم من لوازم الآخر من مثل قوله تعالى " فاذاقها الله لباس الجوع والخوف ٠ فقد شبه ماغشى الانسان عند الجوع والخوف من الضر والالم من حيث الاشتمال بالباس واستعير لفظ اللباس على طريق التصريحية وشبه ماغشى الانسان ٠ الـى آخره مرة ثانية بعد أستعمال لفظ اللباس فيه من حيث كراهية النفس بالطعم المر البشع ثم حذف المشبه به على طريق المكنية وابقاع الأذاقة دليل المشبه به استعارة تخيلية ٠

ففى الآية ثلاث استعارات تصريحية ومكنية وتخييلية هذا كله بالبناء على امكـــان بناء الاستعارة على المعنى مجازى وقيل انه الصحيح كما قيل ان الاذاقة مع كونها تخييلية للمكنية فيمكن عدها تجريدا بالنسبة للتصريحية . (١)

---

(١) ينظر رسالة الصبان بحاشية الانبابى ص ٢٩٠ ص ٢٩١

شرط اللازم

ذكر صاحب عروس الافراح انه يشترط أن يكون لازم المشبه به قرينة المكنية مساويا للمشبه به أى أن الذهن ينتقل من اللازم الى المشبه به ولو بحسب العرف العام كذلك ينتقل الذهن من المشبه بد الى لازمه كأظفار المنية فهى مساوية للسبع لان اظفار غيره لاينسب اليها تشبه على التحقيق .

وأما اللازم غير المساوى فهو الذى ينتقل الذهن فيه الى المشبه به ولا عكس على ماذكره الامبابى وفصل له بالاظفار بالنسبة للمجترئ — ينظر حاشية الامبابى على الرسالة البيانيه ص ٣٠٠

وقد سبق للسكاكى فاشترط ذلك وهو بصدد الحديث عن قرينة المكنية وينظر المفتاح ص ١٧٩ .

وقد دفع الصبان هذا الشرط فذكر أن الدلالة فى الجملة كافية فى مثل ذلك الرسالة البيانية ص ٣٣٠ والحق أن المقصود الدلالة على خصوص المشبه به .

الحكم عند وجود اكثر من لازم :—

اذا كان المذكور فى الاسلوب احد لوازم المشبه به فقط كان هو القرينة ولا اشكال ولكن وقع الخلاف عند تعدد اللازم فقيل يجعل اقواها وأبينها دلالة على المحذوف قرينة وقيل بل أسبقها فى الدلالة . وهو اختيار العصام وعلى محلا الاحتمالين يكون غير القرينة ترشيحا للمكنية ولامانع من اعتباره ترشيحا للتخييلية معها ايضا لان الترشيح يكون للمجاز اللغوى بأقسامه بذكر ملائم الموضوع له الحقيقى كما يكون للمجاز العقلى بذكر ملائم المسند اليه الحقيقى . مثلما يكون للتشبيه بذكر ملائم المشبه به (١) .

(١) ينظر رسالة الصبان الموضع السابق .

جريان الترشح والاطلاق والتجريد مع المكنية : —

وذكروا أن الترشح والاطلاق والتجريد كما يكون فى التصريحية يقع كذلك فى المكنية فالترشح يكون عند ذكر ملائم المشبه به المحذوف بعد تمام القرينة ، ومثلوا له بقولهم نطق لسان الحال [1] فذكر اللسان ترشح عند اعتبار النطق قرينة واعتبار العكس صحيح كما سبق .

ومن المكنية المرشحة قول ابى الشطاهة يهنئ المهتدى بالخلافة : —

إن الخلافة مقـــــــادة إليه تجرر أذيـــــــال

فقد استعار القادة الحسناء للخلافة وأضمه اللفظ المستعار . ودل على تلك الاستعارة بإثبات لازم المشبه به للمشبه وهو (أتت) على سبيل المكنية وإثبات الاتيان للخلافة قرينتها تخييلية وقوله مقادة اليه تجر اذياك ترشح لانه مما يلائم المشبه به [2]

والاطلاق يحصل بمجرد المكنية عارية عن ذكر ما يلائمه المستعار منه المحذوف . وكذا المستعار له المذكور حقيقة أو حكما بأن يقع ملائم لهما معا . ويمكن ان نمثل بقول المتنبى : —

ولما قلت الابل امتطينـــــا الى ابن ابى سليمان الخطيـــــا [3]

استعار الابل للخطوب استعارة مكنية قرشها : اثبات الامتطاء . وهو من لوازم الابل للخطوب واثبات الامتطاء المذكور للخطوب استعارة تخييلية وليس فى تركيب الاستعارة ما يلائم ، أيا من المستعار منه . أو المستعار له فالمكنية مطلقة [4]

فان وجد مع المكنية ملائم للمشبه سمى سميت مجردة لتجريدها عما يقويها . ويمكن ان نمثل لها بنحو : (اشرقت حجتك المقبلة) فيكون اثبات الاشراق للحجة قرينة على استعارة الشمس لها لوضوحها . ولفظ المقبلة الملائم بمعنى الاصلى للحجة اى المستعار له فهو تجريد والاستعارة مكنية مجردة

---

(١) السابق ص ٤٢٨

(٢) ينظر محاضرات فى البيان د . يوسف الصوص ص ١٩٠

(٣) ينظر عروس الافراح للسبكى — شروح التلخيص

(٤) ينظر أسرار البيان د — الهاوس . ص ١٠٠ جـ١ ص ١٣٣

مجئ أكثر من مكنية فى لفظ واحـــد :ـ

ولم تعمد هم القوم عن أن يروا أمكان اجتماع مكنيتين فى لفظ واحد بأن يشبه شئ بأمرين ويذكر لفظه ويشبه له لازمهما .

ومثلوا لذلك بقولهم : رفعت عن محاسنك قناعا وغلقا [1] فقد شبهت المعارف تارة بحجبات العرائس ورمز اليه بالقناع . وأخرى بمخزونات النفائس ورمز اليه بالغلق [2] .

(ولو جاريناهم على أمثالهم فى ذلك لقلنا ان ذلك لايظهر الا على مذهب السكاكى والخطيب) لان التشبيهين متعلقان بمشبه واحد .

وقد يجوز لنا القول بعد ما سبق ان المتأخرين من أصحاب الشروح والحواشى كان لهم جهد فى بحوث المكنية والتخييلية حيث انزلوها على كثير من قواعد وتقسيمات الاستعارة مطلقا . وان لم ينتج ماخلفوه كبير اثر فى جانب الفن البيانى الخالص قدر مساوقته طريقتهم فى البحث الدرس عن التمهيد والتحديد لكل سبيل .

وبعد أن عرضنا لاصول هذا المذهب كما قرره السعد ووقفنا على اضافات المتأخرين بعده يبد والخلاف واضحا بين هذا المذهب ورأى الخطيب من جهة فى حين يظهر الخلاف اكثر وضوحا بينه وصريح كلام السكاكى فى كل من المكنية والتخييلية غير ان بعضا من البلاغيين يرى امكان التماس وجه للتقريب ان أو التوفيق .

السعد يقوم بالتوفيق :

وقد بنى السعد رأيه هذا على ان السكاكى يريد بذكر المكنية تارة معناهـــا حيث يصرح بأنها ذكر المشبه مراد به المشبه به كما يريد بها معناها اللفظى تارة . اخرى حين يصرح بأنها لفظ المستعار . ثم يؤول السعد كلام المفتاح فى التمهيـــد والمجاز العقلى الموهم للمخالفـــة .

---

(١) الغلق بفتحين المغلاق وهو مايغلق به الباب
(٢) رسالة الصيان ص ٢٨٨ ، ص ٢٨٩
(٣) ينظر تفصيل هذا الموضوع فى رسالة الصيان بحاشية الانبابى ص ٤٨٦ ، ٤٨٧

يقول السعد بعد محاولته الجواب على اعتراض الخطيب: والحق أن ... الاستعارة بالكناية هو لفظ المشبه المكنى عنه بذكر رديفه الواقع موقع لفظ المشبه به المراد به أو عما**

والمنية مستعار له • والحيوان المفترس مستعار منه على ما سبق • والمكاكى حيث فسر الاستعارة بالكناية بذكر المشبه وأرادة المشبه به اراد بها المعنى المصدرى وحيث جعلها من اقسام المجاز اللغوى اراد بها اللفظ المستعار • وقد صرح بأن المستعار فى الاستعارة بالكناية هو اسم المشبه به المتروك وعلى هذا لا اشكال عليه • الا انه صرح فى اخر بحث الاستعارة التبعية بأن المنية استعارة بالكناية عن السبع • والحال عن المتكلم الى غير ذلك من الامثلة • وفى أخر فصل المجاز العقلى بأن الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقى فجاء الاشكال فالوجه ان يجعل مثل هذا على حزف المضاف اى ذكر المنية استعارة بمعناها المصدرى • اعنى استعمال المشبه فى المشبه به ادعاء فيوافق كلامه فى بحث الاستعارة بالكناية • وحينئذ يندفع الاشكال بحذافيره • (١)

ولكن رأى السعد لم يلق قبولا تاما فقد علق السيد بأن الاولى الحكم على مذهب المكاكى بأنه مختل لتناقض عباراته • (٢)

ومع تقديرنا لرأى السعد وجهده فى الدفاع عن المكاكى ومذهبه الا اننا نعتقد أن الاقرب الى الصواب اخذ المذهب على صريح كلام صاحبه وان لم يخل من التكلف فأن محاولة السعد لم تسلم هى الاخرى من تكلف •

ومرد الامر كله الى ان المكاكى لم يستطع ان يقنعنا برأيه بأيضاح كاشف لاصول مذهبه المخالف بما يدفع عنه الغموض الذى شابه وأدى الى اختلاط الامر على من بعده شأن أختلاط الامر عليهم فى نسبه المذهب الذى قرره السعد وتخلص من كل ما سبق الى ان المذهب الثالث انما هو مذهب جمهور المتأخرين من أصحاب

---

(١) المطول ص٤٠١ ، ٤٠٢

(٢) حاشية السيد على المطول نفس الموضع •

الشروح والحواشي أخذاً من استنباط السعد ببعض علماء عصره مما ورد بشأن المكنية عند الزمخشري والتخييلية عند عبد القاهر ومن الرازي فيهما وان اغفل ذكره . وعلى الرغم من ان ذلك المذهب قد سلم من كثير من الشبه التي اوردت على مذهب السكاكي والخطيب فأنه لم يستطع ان يفض النزاع تماماً ففهم بعضهم أو رأى مذاهب اخرى .

المبحث الثالث

مذاهب أخرى

هناك اتجاهان آخران اسوقهما فى ايجاز لانهما لم ينالا الشهرة المذاهب الأخرى فوق انه قد وقع حولهما نزاع قد لا يجدى الوقوف عنده طويلا .

ما استنبطه السعد عن صاحب الكشف (١)

أستخلص السعد فى حواشيه على الكشاف من كلام بعض الناظرين فى ما اعتبره قولا رابعا فى المكنية وذلك بأن تكون الاستعارة فى اللازم المذكور من حيث كونه كناية عن استعارة المشبه به للمشبه وسمى اللازم استعارة حينئذ لاستعارته للمشبه بالكناية لأنه كناية عن النسبه أى اثبات نحو الجهل للعهد (٢) .

يقول السعد (قد كنا فى عويل من اختلاف اقوال القوم الى ثلاثة .. حتى فهم بعض الناظرين فى هذا الكتاب (الكشاف) ان الاستعارة بالكناية فى قولنا اظفار المنية نشبت ، هى الاظفار من حيث كونها كناية عن استعارة السبع للمنية وفى قولنا : شجاع يفترس اقرانه . الافتراس مع أنه استعارة تصريحية لاهلاك الاقران فهو كناية عن استعارة الاسد للشجاع . اذ الكناية لا تنافى ارادة الحقيقة لكن المقصود بالقصد الاول هو التنبيه على أنه اسد كى يجىء الافتراس وسائر ما للاسد من اللوازم بالضرورة . ثم هذه الكناية من قسم الكناية فى النسبة اعنى اثبات الاسد به للشجاع والجهل للعهد للقطع

---

(١) ت ٧٩٢ هـ . تاريخ علوم البلاغة ص ١٥١

(٢) ينظر رسالة الصبان ص ٢٨٧ ، ٢٨٨

بأنه ليس كناية عن المسكوت نفسه بل دال على مكانه) [1]

وقد عقب السيد بأن السعد يريد بالناظر المنسوب اليه هذا الفهم صاحب الكشف معترضا على صحة نسبه ذلك الفهم الى صاحب الكشف وقد وصف السعد بالسهو والغفلة ثم نقل كلام صاحب الكشف ليخرج بأن صاحب الكشف لم يخالف ما عليه من السلف[2] وقد ناقشه عبد الحكيم وصحح استخلاص السعد على ضوء عبارات صاحب الكشف فى مواضع عديدة [3]

مذهب العصام ت ٩٥٤ هـ

وللعصام رأى خامس فقد ذهب الى :
ان فى مثل المنية انشبت اظفارها [4] استعارة وكناية والاستعارة متفرعة على تشبيه مقلوب اى أنها لفظ المشبه به المقلوب المستعمل فى المشبه المقلوب بعد جعل مجموع الكلام بعد ذلك كناية اصطلاحية وقرينة الاستعارة هى ذكر ملائم المشبه المقلوب وقرينة الكناية حالية .

يقول العصام فى حاشيته على السمرقندية بعد أن ذكر الاقوال الثلاثة (فاستمع لنا تحقيق رابع أرجو ان يكون من ليس لعطاه مانع . وهو ان الاستعارة بالكناية من فروع التشبيه المقلوب كما يجعل المشبه مشبها به مبالغة فى كماله فى وجه الشبه حتى استحق ان يلحق به المشبه به كقوله :

وبدا الصباح كأن غرته ∴ وجه الخليفة حين يمتدح

حيث شبه غره الصباح بوجه الخليفة كذلك يستعار اسم المشبه للمشبه به فيكون غاية المبالغة فى كمال الشبه فى وجه الشبه كما فى اظفار المنية فالمراد

---

(١) حاشية السيد على المطول (طبعة منفصلة) ص ٢٠١
(٢) ينظر السابق ص ٢٠٢ وما بعدها .
(٣) ينظر حاشية الانبابى ص ٢٨٨
(٤) تاريخ علوم البلاغة ص ١٧٩

بالمنية السبع . ويجعل الكلام حينئذ كناية عن تحقق الموت بلا ريبة .

فتشبيت المنية اظفارها بفلان - بمعنى أنشب السبع اظفاره به كناية عن موته لا محالة . وحينئذ لا تجوز فى اضافة الاظفار الى المنية . ولا اشكال فى جعل المنية استعارة - ووجه تسميتها استعارة بالكناية فى غاية الوضوح (١)

وحاصل مذهب العصام على قول الشاعر :-

واذا المنية انشبت اظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

أن الشاعر شبه الرجل بالمنية . مبالغة فى قوة الشبه كما يشبه السبع بالمنية - وكذا يشبه غرة الصباح بوجه الخليفة ثم يستعار لفظ المشبه به للمشبه وهو الرجل . ويكون معنى ملاحظة عيون الرجل . كناية طلب الكرامة له مثلا (٢)

وقد اعترض على هذا المذهب بوجوه منها أن كل أحد يعرف أن المراد بالمنية مثلا الموت قطعا فيبطل كون لفظها استعارة للسبع - ومنها : أنهم اعتبروا فى الكناية ان يكون قرينتها مانعة من ارادة المعنى الموضوع له وهذا غير مطرد هنا ومنها : أن حصول المعنى يصلح لان يكون كناية غير مطرد أو غير ظاهر فى بعض التراكيب . ومنها أنه يلزم أن يكون المذكور فى الاستعارة بالكناية المشبه به لأن المنية على هذا الوجه كذلك (٣) وهذا باطل لمخالفته واقع الاساليب العربية (٤) ولئن تعددت الاقوال والمذاهب فان المذهب الثالث ظل هو السائد وعليه المعول والاجراء ليس عند الجمهور المتأخرين فحسب وانما المحدثون كذلك على الرغم من ظهور اتجاهات أخرى أستند بعضها الى أصل ثابت فى التراث فى حين أستمد الكثير منها من واقع الأدب الحديث سواء العربى منه أو الأجنبى

---

(١) رسالة الصبان ص ٢٨١ وما بعدها وكذا أورده فى أطوله بعبارات أخرى
(٢) ينظر أمالى على عبد الرازق ص ١١٨
(٣) ينظر رسالة الصبان ص ٢٨٤
(٤) ينظر البيان بين عبد القاهر والسكاكى أ د على البدرى الطبعة الأولى ص٢٠٢ مطبعة السعادة

الفصل الثالث
صور الكنية

الكنية ذات الشبه القريب
الكنية ذات الشبه البعيد

الكنية الملتبسة مع صور البيان الأخرى

الكنية الملتبسة مع التشبيه
الكنية الملتبسة مع التصريحية
الكنية الملتبسة بالتعمية
الكنية الملتبسة بالكناية
الكنية الملتبسة مع الحقيقة
الكنية والمجاز العقلي
الكنية الملتبسة مع المجاز المرسل

* * * * *

صور الكنيـــة

تتعدد صور الكنية وتختلف باعتبار حال الشبه معها قربا أو بعدا وباعتبار كونها خالصة في الحمل عليها أو مجيئها ملتبسة مع فن من فنون البيان الأخرى ومع أنه قد سبق أن عرضنا لأكثر تلك الصور في سياقه إلا أن الدراسة تحتم تناول تلك المسألة هنا في شيء من التوسع والتفصيل ونرى أن ذلك يعد أمرا مهما جدا لما فيه من جمع لما تفرق والأهم أن عرض تلك الصور على هذا النحو سوف يطلعنا على أبرز وأخطر مشكلات الكنية ملتمسين الحلول والحدود الفاصلة بينها وبين كل لون آخر ملتبس معها على ضوء التحليل للقواعد بمعونة السياق وقرائن الأحوال .

الكنية ذات الشبه القريب :—

كثيرا ما تأتي صور هذه الاستعارة وقد بنيت على شبه قريب بحيث يكون وجه الشبه الواصل بين المستعار له بالمستعار منه واضحا قويا لاتحتاج إلى بذل جهد أو محاولة متكلفة في اعتباره كما في قوله تعالى ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (١) ، فقد وصف الميثاق الذي هو العهد الموثق والمؤكد بالغلظ الذي هو من خصائص الأجرام والوجه أن الميثاق قد شبه بالحبل المتين والعلاقة قائمة وواضحة لأن كلا من الميثاق والحبل يربط بين أثنين ثم حذف المشبه به وذكر وصفه على طريقة الكنية ولما يعد ذلك أن نستخلص دقة هذه الاستعارة وجمال تصويرها ورسوخ قدمها في باب التصوير البياني إذ قد خيلت ميثاق الله وعهده لأنبيائه جسما غليظا مرئيا زيادة في وضوح وتشخيصه في وجدان أسمهم ليظل رؤية قائمة وحاجزا كثيفا بينهم وبين كل باطل والمهم وضوح العلاقة بين ما استعير منه والمستعار له على ما بينا .

ويقول عليه الصلاة والسلام/الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة/(٢) فقوله عليه السلام تطفئ الخطيئة استعارة مكنية من حيث شبهت الصدقة بالماء والعلاقة قائمة وواضحة وهذا التوجيه أولى من توجيه الكنية على تشبيه الخطيئة بالنار ثم حذف المشبه به والدلالة عليه بلازمه(٣) وذلك لأن القصد الأصيل الذي سيق من أجله الكلام إنما هو الصدقة وبيان أثرها وبين هنا كانت أولى بالاعتبار وبين هذا الضرب كذلك قوله عليه الصلاة والسلام : النِّسَاءُ حَبَائِلُ الشَّيْطَانِ (٤)

---

(١) سورة الاحزاب الآية (٧) (٢) البلاغة النبوية ص ١٨٦
(٣) التصوير البياني د أبو موسى ص ٢٥٤ (٤) البلاغة النبوية ص ٢٠٢

فقد شبه الشيطان بصائد ثم استعير له الصائد وحذف ورمز إليه ببعض لوازمه وهي الحبائل ثم إنه عليه السلام قد جعل النساء كتلك الحبائل وقد عقب على ذلك الشريف الرضي بقوله " وهذا من أحسن الاستعارات وذلك أنه عليه السلام جعل النساء من أقوى ما يتصيب به الشيطان الرجال فهن كالحبائل المبثوثة والأشراك المنصوبة لأنهن مظان الشهوات ومقاود الخطيات وبهن يستخف الرجل ويستحوذ الأبين (١)

ومما ورد على هذا الضرب قول مسلم بن الوليد :

وَلَمَّا تَلَاقَيْنَا عَشِيَّ نَجَمْتُهُ ... بِوَجْهٍ لَهُ مِنْ لَوْنِهِ الشَّمْسِ مِنْ لَوْنِهِ شَرْقُ (٢)

فالليل ينتهي كما ينتهي من يموت ومن ثم جاز وقرب تشبيه الليل بالانسان الذي يحيا ويموت ونظير ذلك في قرب الشبه قول ذي الرمة : —

وَلَمَّا رَأَيْتُ اللَّيْلَ وَالشَّمْسُ حَسَّةٌ ... حَيَاةَ الَّذِي يَقْضِي حَشَاشَةَ نَازِعِ (٣)

نراه وصف الشمس بالحياة لانها تشبه ذا الروح من ناحية أنها تقوى وتضعف

وقول أوس بن حجر : —

وَإِنِّي امْرُؤٌ أَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ بَعْدَمَا ... رَأَيْتُ لَهَا نَابًا مِنَ الشَّرِّ أَعْصَلَا (٤)

نراه في قوله : "لها ناب" قد شبه الحرب بحيوان مفترس لما في كل منهما من الضرر والهلكة وحذف المشبه به ودل عليه بلازمه وهو الناب .

ومما نراه موافقا لما نحن بصدده قول أبي تمام

رَقِيقُ حَوَاشِي الحِلْمِ لَوْ أَنَّ حِلْمَهُ ... بِكَفَّيْكَ مَا رِيثَ فِي أَنَّهُ يُسْرِدُ (٥)

ومع أن هذا البيت يضاهيه من استعارة قد أضحك أبا العباس ومعارضه الآمدي وغيره لما فيه من بعد ومخالفة للمألوف إلا أننا نرى أن الاستعارة هنا مقبولة وقريبة الشبه إذا راعينا ثقافة أبي تمام وملابسات عصره

ويقول أبو عبادة البحتري :

وكنتُ إذا استبطأتُ ودَّكَ زرتُهُ ... بتقويفِ شعرٍ كالرداءِ المحبَّرِ

---

(١) المرجع السابق نفس الموضع
(٢) شرح ديوان صريع الغواني ص ٢٦١
(٣) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ص
(٤) البديع لابن المعتز ص ٦٢١ (٥) شرح التبريزي جـ٢ ص ٨٨

عتاب بأطراف القوافي كأنـــه ضمان بأطراف القنا المتكسر

فقوله تعنيف شعر لأن النظم إذا كان نسجا يوصف بالصقال والرقة وكثرة الماء والنقاء وغير ذلك مما هو من خواص الثياب المنسوجة، ومن ثم كان التعنيف مسندا إلى النظم مستعملا جاريا هذا المجرى كما يقول ابن سنان (١)

واضح أننا في تلك الصور السابقة وأمثالها نجد صفة مشتركة بين طرفين وهي ذات أثر في معنى الكلام وسياقه وإنه ينبغي أن يعتد بها إلا أن تكون كذلك ولا يلزم أن توجد الصفة بعينها في الطرفين لأننا قد نراها أحيانا توجد في أحد الطرفين ويوجد مثلها في الطرف الآخر، والفطن يدرك كل ذلك بمعاونة

المكنية ذات الشبه البعيد :-

وهناك ضرب آخر من الاستعارة بالكناية يخالف ما سبق إذ لا نرى فيه الشبه البعيد المعدود أصلا في بناء الاستعارات ظاهرا وإنما يأتي مع اعتبار خاص يتضح أمره على ضوء تحليل بعض النصوص

يقول أبو تمام

تحمل يفاع أنجد حتى كأنها

على كل رأس من بعيد المجد مفخر (٢)

---

(١) سر الفصاحة ص ١٢٧ (٢) الموازنة جـ١ ص٢٦٢

ويقـــــول أيضـــــا

ساس الأمور سياسة ابن تجـــارب

ويقتـــــــه عين الملك وهو جنون (١)

قوله فى البيت الأول يد المجد أضاف فيه اليد إلى المجد وليس للمجد على الحقيقة يـــد ولو قلنا إنه قد شبه المجد بذى اليد لما وجدنا صلة بين الطرفين . وكذلك الشأن فـــى البيت الثانى فقد أسند فيه العين الى الملك وليس له فى الحقيقة عين ولو قلنـــــا إنه قد شبه الملك بذى عين لخرجنا إلى حديث لايوافق الشعر وأبرز خواصه وهو الخيـــال وإنما تقوم الاستعارة هنا على أساس من التشبيه المتخيل أى أن الشاعر جعل الملك فى صورة انسان على وجه التخييل والادعاء وشبه بانسان فى الملاحقه ودقة المراقبة وهذا الوجـــه موجود فى الملك على ضرب من التخييل والادعاء . وذلك جار على عاداتهم فى جعل الاشياء مصورة بصور الآدمى واضفاء الصفات الانسانية عليها وفى تراثنا الأدبى من ذلك كثير . ومـــا يحمل على نحو هذا التوجيه قول أحد الشعراء

أنَا أَبُوك فَمَنْ المَجْد تَعْرِفُـــه ... وأَنت أَشْبَهُ خَلْقِ اللهِ بالجـــود (٢)

وكذلك قول ذى الرمة مجسما لأحد كواكب السماء فجعل للثريا أيادى تمتد جانحة نحـــو المغـــرب

أَلاَ طَرَقَتْنِى عَيُّوماً بِذِكْرِهـــا ... وأَيْدِى الثريا جُنَّحٌ فى المَغَـــارِبِ (٣)

فلو ذهبت الى تصور تشبيه واقع بين الثريا وذى اليد على وجه الحقيقة لكان فيما ذهبـــت إليه تعسفا وخروجا عن طبيعة الأدب وشئونه . وما يجرى مجرى ما سبق قول أبى تمام

تَكَاد مَغَانِيهِ تَبَسَّمُ عَرَاصُـــهَا ... فَتَرْكَبُ مِن شَوْقٍ إلى كلِّ رَاكِـــبِ (٤)

(١) التصوير البيانى ص ٢٦٨
(٢) كتاب الاغانى المجلد الثانى ص ٥٢
(٣) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ص ٣٤٨
(٤) ديوان ابى تمام جـ ١ ص ٢٠٤

فقد استعار المشاشة للمرامى وهى ساحة الدار يريد أن يقول من شهوته لاعطاء المال يذله فتلك ساحة الدار تصير إلى من يصير إليها طالبا نواله .

ونأخذ كذلك قول " تأبط شرا "

فخالط سهل الأرض لم يك حزنه به كدحه والموت حزيان ينظر (١)

أراد أنه تجاوز فى عدوه الحزن الصعب من الأرض . وخالط سهلها ولم يؤثر وعورتها فيه . والموت الذى كان يضمر فى مثل هذه الحال يضيره وقف حزيان ينظر إليه فى دهش وتعجب من هذه الصلابة . وهذه القوة التى تسوق من الأهوال الماحقه لاوجه لان نقول إنه شبه الموت بإنسان من غير أن تعتبر أن الشاعر أضفى على الموت الصفات الانسانية . وأقامه فى خياله فى صورة انسان تتوارد عليه الشاعر والأحوال . فيشعر بخزى الخيبة كما يشعر بوهو الانتصار والظفر وكذلك فعل صاحبه الشنفرى فى الجوع فى قوله :—

أديم مطال الجوع حتى أميته وأضرب عنه الذكر صفحا فأذهل
ولولا اجتناب الذأم لم يلف مشرب يعاش به الا لدى ومأكل
ولكن نفسا مرة لا تهيم بى على الذأم الا ريثما أتحول (٢)

ادعى للجوع حياة وحسا فشبهه بحى ذى حاجه يلح عليه فى المطالبه . وهو يماطله حتى يميته . فلا يعود يشعر به . الخيال هنا يحيل الفراسة إلى صور مجسده . بيث فيها المعنى الانسانى ليقضى عليها الموت بهذه المماطله التى تشهد للشنفرى بالقوة وصلابه النفس . والبلوغ فى العزم والأنفة مبلغا غريبا .

ويتضح أن التشبيه الذى تقوم عليه المكنية فى هذا الضرب مخالف للتشبيه الذى تقوم عليه المكنية فى الضرب الذى سبقه .

المكنية الملتبسة مع صور البيان الأخرى :

هناك صور أخرى للمكنية تأتى فيها ملتبسة مع أحد فنون البيان الأخرى فمنها

(١) الصناعتين ص ٢٦
(٢) شاعر الصعاليك الشنفرى ولاحية العرب د — عبد الحليم حفنى ص ١٣٠ — ١٣٢

مايلتبس مع التشبيه أو مع الاستعارة التصريحية والتهمية كما أن منها ما جاء ملتبسا مع المجاز بغير الاستعارة سواء أكان عقليا أم مرسلا بل وقد تلتبس مع الكناية وربما الحقيقة أيضا .

المكنية الملتبسة مع التشبيه :

ومما نراه ملتبسا بين المكنية والتشبيه الذى أضيف فيه المشبه به إلى المشبه نفس الخصوص قول بن نباته :-

حتى إذا بهر الأباطح نورنا نظرت إليك بأعين النوار

يلتبس قوله " اعين النوار بهذه الاستعارة فيظن أنه كمد الشمال . أى أنه جعل للنوار عيونا . وعلى ذلك مضى ابن سنان الخفاجى حيث قال : [فنظر أعين النوار من أشبه الاستعارات . وأليقها . لان النوار يشبه العيون . وإذا كان مقابلا لمن يجتاز فيه ويمر به كان كأنه ناظر إليه . وهذه الاستعارة الصحيحة الواضحة التشبيه (١) وعند التحقيق يرد ما فى البيت الى التشبيه وليس هذا استعارة والأصل نظرت اليك بنوار كالعيون والشبه بين النوار والعيون قائم وواضح والأمر الذى يدعو الى النظر صنيع ابن سنان حيث قارن بين بيت ابن نباته الأول وبين قول ابى تمام .

فَتَرَتْ بِقُرَّانَ عَيْنُ الدين وانْتَشَرَتْ بالأمتربين عيونُ الشِّرْكِ فَاشْطَلَمَا

أراد ابن سنان بهذه المقارنه الوصول إلى الأصل الذى قاس به الاستعارات حسنا أو قبحا وهو قريبا أو بعدها من حيث التشبيه فيقول : " ومع تأمل هذين البيتين يفهم معنى الاستعارة لأن النوار والشرك لاعيون لهما على الحقيقة وقد قبحت استعارة العيون لأحدهما وحسنت للأخر وبيان العلة فيها أن النوار يشبه العيون . والشرك ليس فيهما ما يشبهها ولا يقاربها وهذه طريقة متى سلكت ظهر المحمود فى هذا الباب من المذموم (٢)

ولعلنا نلحظ ماوقع فيه ابن سنان من تناقض لأنه مادام هناك شبه بين النوار والعيون كما ذكر والطرفان مذكوران فهو من التشبيه ولايكون من الاستعارة بحال . وأما قول السَّرِيّ الموصلى

(١) سر الفصاحة ص ١١٤
(٢) السابق ص ١١٥

أقول لحنان العشق المعـــرد ... يهزّ صفيح البارق المتوقـــد
تبسم عن مرّ البلاد حبيبـــه ... ولم يبتسم إلا لإنجاز موعـــد
ويادٍ بها الشوقَ الأوارُ رائـــحٌ ... يحلّ عقودَ الدمع فيك ويغتـــدي
عليلاً أنفاسُ الرياح كأنمـــا ... يُعلّ بماء الورد نوجسُها الندي
يشقّ جيوبَ الورد في شجراتـــه ... نسيمٌ مكى ينظرُ إلى الماء يبرد

وقد عقب ابن سنان على تلك الأبيات بقوله وفي هذه الأبيات استعارات عدة كل منها مختار. أما حنان العشق المفرد فمعروف وإنشاده جارية باستعارة الحنين والتفريد للغيث لأن له صوتا على كل حال وكذلك صفيح البارق وأشبه شيء بالبرق لمع السيوف والتبسم فيه أيضا ظاهر لمعٌ يرقه في ظلاله وعقود الدمع لائقة لتشبيه القطرات من الماء والدمع بالعقد اذا وهى من سلكه وأنفاس الرياح تكاد تكون حقيقة لوضوحه واستعمال العلة فيها كناية عن الضعف والخفوت وقلة الحركة على وجه التشبيه بالمريض وجيوب الورد مختار لأن النسيم اذا أظهره من أكمامه ونشره عن طيه بعد ذلك كان بمنزلة الجيوب التي تشق، وبهارعه عن سرعة برده الماء بالنسيم أنه متى نظر إليه برد مرضيه لأن النظر ليس هو الرؤية، وإنما هو ضرب من المقابلة والمواجهة تقع الرؤية بعده، ومثل هذا في النسيم موجود ولائق غير بعيد [1] ومتابعة ابن سنان لتلك الصور لاشك يعد أمرا يحمد عليه غير أن الأمر يحتاج الى أن نتتبعه فيما وجه به لنصل إلى ما نعتقد أنه الأنسب والأليق بالمعنى والسياق.

فأما استعارة الحنان للغيث فهي على ماقال تعد من قبيل التصريحية. وصفيح البارق أعني سيف البرق ليس استعارة كما قال لانه لم يجعل للبرق سيفا يهزه وإنما أراد أن البرق كسيف يهتز. واستعارة التبسم لانشقاق السحابه عن البرق استعارة صحيحة كما قال. وعقود الدمع من الاستعارة التصريحية لان العقود مستعار لقطرات الماء كما يقول : وأنفاس الرياح تشبيه وليس استعارة لان المراد الرياح الناعمة الخافته كالانفاس. وكذلك جيوب الورد لان الورد حين تتفتح أكمامه يشبه الجيوب التي تشق فليس فيه استعارة وإنما هو مثل أعين النوار. ولجين الماء. وقوله " متى ينظر إلى الماء يبرد " استعارة مكنية وهي حسنة جدا ترى فيه النسيم ينظر إلى الماء وكأنه آمر مطاع يأمره بالعذبه والبروده والماء مأمور مطيع — متى ينظر إلى الماء يبرد ويعد من قبيل التشبيه وليس المكنية أيضا قول ابي تمام

---

(١) السابق ص ١٢٦

الى ملك فى أيكة المجد لم يزل على كرم المعروف من نيله يسرو (١)

الأيكة الشعر الملتف وأيكة المجد من اضافة المشبه به إلى المشبه وما أورده ابن سنان بالاضافة إلى ما سبق ويجرى على التشبيه لا على استعارة كما زعم قول الرضى

رمى النسيم بوارديكم ولابرحت حوامل المزن فى أجفانكم تضع
ولا يزال جنين النبت ترضعه على قبوركم الغراء الهمع

وقد ذكر ابن سنان معقبا أن ما فى قول الشريف يعد من أحسن الاستعارات وأليقها لان المزن تحمل الماء واذا حملت وضعته فاستعارة الحمل لها والوضع المعروف من أقرب شئ وأشبه وكذلك قوله " جنين النبت لأن الجنين المستور مأخوذ من الجنة واذا كان النبت مستورا والغيث يسوقه كان ذلك بمنزلة الرضاع وكانت هذه الاستعارات من أقرب ما يقال وأليقه (٢)

وعند التحقيق نرى ما فى البيت محمولا على التشبيه لانه يستساغ القول : المزن كالحوامل وكذلك يقال النبت كالجنين والشبه موجود وقريب والطرفان ثابتان .

واستخلاصا مما سبق يمكن أن نقف أصلا يعين على فهم وتوجيه تلك الصور ونظائرها التى يلتبس فيها الأمران أضافة المشبه به للمشبه والاستعارة المكنية وهذا الاصل يتحقق فى أننا لانجد فى تحويد الشمال وجناح الذل وعين الملك شبها بين طرفى الإضافة على خلاف مثل جنين النبت وأعين النوار فثم شبه وعلاقة ظاهرة بين الطرفين . أما تحويد الشمال فليس الشمال مشبها باليد وإنما يشبه الشمال بماله يد على الحقيقة . وأما نحو أعين النوار فليس النوار مشبها بماله عين بل بذات العين . إذن فالمضاف إليه فى الاستعارة المكنية لازم المشبه به والمضاف إليه فى التشبيه الملتبس بها هو المشبه به ذاته وشتة فرق فى المعنى والخيال والصورة بين قولنا أعين النوار جنين النبت وانفاس الرياح حوامل المزن وبين قولنا نوار كالأعين والنبت كالجنين والرياح كالانفاس والمزن كالحوامل وليس مرد هذا الفرق إلى أن هذا تشبيه وذلك استعارة وإنما مرد الفرق فى الحقيقة إلى تغيير الصياغة فالتركيب الذى يضاف فيه المشبه به إلى المشبه يخيل شيئا آخر لانجده فى الطريقة التى رجعنا بالتركيب إليها تخيل ان للرياح أنفاسا والنور عيونا لان تلك الإضافة أكثر ما تكون على معنى اللام إذن هذه الصور التى تلوح لك فى هذه الصياغات ليست هذه الاضافة وليست وليدة تشبيه أو تخييل سابق عليه على ما هو التوجيه فى المكنية لأن الإضافة فيها قد سبقها تجوز ثم الحق هذا التجوز بتلك الإضافة ليتم بها التصوير والتشخيص (٣)

---

(١) السابق ص ١٣٤
(٢) السابق ص ٢١٥
(٣) ينظر التصوير البيانى ص : ٨٧

المكنية الملتبسة مع التصريحيـــة

وقعت صور للمكنية قد التبست بالتصريحية وهذا الضرب كثير جدا فقد ورد بعض الأوصاف وقد أضيفت إلى غيرها من نحو كلمة الأنف والجناح والرداء والجبهة مما يختلف أمر التوجيه معها على مقتضى الأصل الفارق والمستخلص من تحليل الشواهد وسياق الكلام فقد جاء فى الموروث الأدبى قولهم أنف الليل وأنف النهار وأنف الطريق وأنف الجبل وجبهة الغور ويراد فى كل ذلك أول الشئ .

ومن الكلمات التى تعبر كذلك على طريق التصريحية أو المكنية كلمة الجناح فيقال : جناح الطريق وجناح الوادى وجناح الانسان كل هذا استعار للجانب مما يجرى على التصريحية أما نحو قولهم جناح الأمن أو جناح الخوف على مثل ماورد عن الأمام على كرم الله وجهه ... ولم يُسْنِ منها فى جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف (١)

فهذا محمول على المكنية لأنه جعل للأمن جناحا فصوره فى صورة طائر قد ألقى جناحه هادئا لايفزعه شئ . والطائر من أدق الحيوانات حسا بالأمن والخوف فهو إذا سكن وهدأ كان ذلك من فرط الأمن والدعة . وذلك مبهم فى السياق . ثم جعل للخوف قوادم . فصوره فى صورة طائر مذعور قد مد قوادمه جادا فى الهرب . ولهذا آثر القوادم هنـــا على الجناح ليشعر بامتداد الجناح وبسط القوادم . وناهيك عمن يكون على قوادم طائر مذعور والعرب يقولون فى القلق غير المستقر هو على جناح طائر أو كأنه على جناح طائر أو كأن قلبـــه جناح طائر .

وانظر إلى دقة على كرم الله وجهه حين خالف بين حرفى الجر فقال فى جناح أمـــن وعلى قوادم خوف فاستعمل حرف الظرفيه ولم يكن مع الأمن كما استعمل حرف الاستعلاء مع الخائف فأفاد أن الأول مستقر فى الأمن الوادع الخفض الجناح . وأن الثانى قلق فوق قـــوادم طائر خائف مذعور (٢)

---

(١) الصناعتين ص ٢٨٨

(٢) التصوير البيانى ص ٢٨١ ، ٢٨٧

ومن أجمل مواقع الجناح على مقتضى المكنية قوله تعالى وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ من الرحمة (١) فقد جعل الذل طائرا وله جناح ، وعلى مثال الأنف والجناح كلمة الرداء فقد جاءت فى تراكيب وفيها ألوان من الخيال شتى ومن مواقع هذه الكلمة التى التبست فيها المكنية مع التصريحية قول طرفه :

ووجهٍ كأنّ الشّمسَ حلّتْ رِداءَهـــا عليهِ نقيَّ اللّونِ لم يتخـــدَّدِ (٢)

ويجعلون كذلك لليل رداء أو شملة يلف بها الوجود . قال ذو الرمة :

خَمَّ الظلامُ على الوحشِ فاشتملتْ ورائحٌ من نَشاصِ الدلوِ مُنسَكِبُ (٣)

يريد بالنشاص مطر نوء الدلو .

كما جعل ذو الرمة للفجر ملاءة أو رداء يلف به الثريا حين أخذ ضوء الفجر يشيع فى السماء والثريا تتحدر نحو مغيبها مؤذنة بانقضاء الليل حاديا فى ملاءة بيضاء يسوق أمامه قافلة من النجوم تهدى فى رحلة لها عبر السماء . يقول ذو الرمة مصورا هذا المعنى .

أقامتْ به حتى ذَوَى العودُ فى الثَّرَى
وساقَ الثُّرَيَّا فى مُلاءتِهِ الفَجْـــرُ (٤)

وقد ذكر ابن سنان موضع وجه الاستعارة فى البيت لأن الفجر لما غطى الليل ببياضه وشمل الأرض عند طلوعه حسنت استعارة الملاءة له لتضمنها هذا المعنى وعبر بطلوع الثريا وقت طلوع الفجر بأنه لفها فى ملاءته وتلك أحسن عبارة وأوضح استعارة (٥)

وكلام ابن سنان هذا يؤذن بأن ثمة صورتين الأولى نجد فيها الفجر ذا ملاءة تلف الوجود، وأما الثانية فنرى فيها الثريا حسناء فاتنة قد تلفعت بملاءة الفجر والحق أنه إن أمكن أن نجد لأمثال هذه الصور سبيلا إلى التصريحية فربما قيل إن الرداء مستعار للظلمة التى تحيط بالوجود كما يحيط الرداء بلابسه وكذلك ملاءة الفجر ورداء الشمس فقد يقال إنه مستعار لضوئها فهناك معنى فى كل هذا يمكن أن ينص عليه ، ومع كون ذلك

---

(١) الاسراء : ٢٤ . (٢) الخصائص ص ٤٤٥ .
(٢) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء، ص ٣٤٦
(٣) السابق ص ٣٤٧
(٤) سر الفصاحة ص ١١١، ١١٢ وما بعدها وانظر : التصوير البيانى ٢٨٦ — ٢٨٩

التوجيه ممكنا وميسورا لكننا لانجد له من الحسن والخيال وجمال التصوير وأمثال ما نجده إذا ما وجهنا على المكنية حين نجعل الشمس وكأنها ذات رداء تلقيه على الوجود والفجر كأنه ذو ملاءة لان التصوير حينئذ أعمق وأدق وأخصب حيث تصير هذه الجمادات أشياء ذات أردية وذلك دون ريب أنسب وأمس رحما بالمعنى فى مثل تلك السياقات .

وعلى هدى ما سبق يمكن أن نستخلص أصلا يرد إليه أمر الفصل بين التصريحية والمكنية وهو أنه متى وجد معنى للوصف المضاف إلى غيره يمكن أن ينص عليه وجب الأمر إلى التصريحية وأما إذا لم يكن هناك هذا المعنى الذى يمكن أن يقال إنه قد أستعير الشئ له فحينئذ تكون المكنية .

وإهمال هذا الاصل فى التفريق بين الضربين يوقع فى الخطأ ولذلك نرى أن ابن سنان وأمثاله قد جانبهم الصواب حين لم ينظروا فى هذا الاعتبار فقد جمع ابن سنان أشلة عديدة لهذا الضرب الملتبس وطالبها على أنها جميعا تدخل فى باب المكنية المذمومة لما فيها من تكلف ومع أن ابن سنان قد أشار إلى أن هناك من يخرج أمثال هذه الاستعارات على التصريحية بما يبعدها عن التكلف إلا أنه لم يرتض هذا التوجيه لعدم إمكان مثل هذا الحمل مع جميع الشواهد ورغبة ابن سنان فى التعميم قد أفسدت عليه القضية والأوفق فيما نرى فى مثل هذه التراكيب أنها تدور بين التصريحية أو المكنية والمعول عليه الأصل الذى سبقت الاشارة إليه ولا حاجة إذن أن نسلك طريق الحذف كما ذهب ابن سنان مع بعض الشواهد[1] لما فيه من تكلف وبعد عن مجال التصوير والخيال المفاد فى نحو تلك السياقات

---

(١) سر الفصاحة ص ١١٦ ومابعدها

المكنية الملتبسة بالتهمية :ـ

وربما كانت المكنية الملتبسة مع التهمية هى أكثر صور المكنية الملتبسة وسبق أن عرضنا لرأى البلاغيين فى تلك المسألة ونريد الآن أن نستخلص الأصل الذى يكون به الفصل بين الضربين على هدى من النصوص وشئ من التحليل .

ومما هو معلوم أن الاستعارة فى الفعل تقع إما على الفاعل وإما على المفعول وفى كلا الحالين تلقى ظلا على ما تقع عليه يصير به وكأن فيه هو نفسه استعارة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم إِنَّ السُّلَيْمَ إذا تَوَضَّأ ثم صلى الخمس تَحَاتَّتْ خطاياه كما يَتَحَاتُّ الوَرَق (١) ، وقوله عليه السلام فى حديث ذكر فيه أشراط الساعة فعند ذلك تخرج الأرض أفلاذ كبدها (٢) . الاستعارة فى الحديث الأول تحاتت خطاياه وفى الثانى تخرج الأرض . ويقول تعالى : "فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ (٣) ، وقوله عز اسمه "إِذَا أَلْقَاهُ طَفَا الْمَاءُ" (٤) وقول الشاعر :ـ

ولما أتانى أَنَّ مَيًّا تزوجت خسوساً يكى سَهْلُ الحَمَا وحُزُونُهَا (٥)

وقول أبى نواس :ـ

مُبَاحَةُ سَاحَةِ القلبِ لَهُ يرتعُ فيها أطايبَ الثمرِ (٦)

وأمثال هذه الاستعارات كثير ما قد يسلك معه طريق التصريحية أو المكنية ولكن الوقوف على مغازى الكلام وفق السياق بعد تحليل النص يحجب اللبس ويوجب التوجيه ويوجد الأصل الفارق ولسوف يبين هذا الأمر من عرضنا لبعض الأمثلة غير التى سبقت فلدينا الكثير مما يدخل فى هذا الضرب الملتبس

يقول الله تعالى : "وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧)

---

(١) المجازات النبوية ص ٣١٥
(٢) السابق ص ٣٠٥
(٣) سورة الاحزاب الآية ١٩
(٤) سورة الطلاق الآية ١١
(٥) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ص ٣٥٨
(٦) الوساطة ص ٣٥
(٧) الاعراف : ١٦٨

والقطع فى أصله إنما يكون للاشياء المتماسكة كالخشب أو الثوب وإنما يقال فى الأقوام تفرقوا وقد استعير القطع للتفريق وذلك لأن القطع يشير إلى معنى نفسى دقيق . والمهم أن الاستعارة محمولة على التصريحية مع أنه يمكن أن توجه على المكنية بان يقال إن القوم قد شبهوا بثوب أو خشب أو نحوه ثم حذف المشبه به واستعمل مع المشبه أحد روادف المشبه به لكن هذا التوجيه بعيد ومتكلف . ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم خير الرجل ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار اليها (١) .

فالطيران مستعار للسرعة فهى استعارة فى الفعل ومع ذلك فقد خيل أن فى الفاعل استعارة فسار كأنه يشبه الطائر على مجرى المكنية بأن يقال إنه قد شبه الفارس بطائر ثم حذف ورمز له بيعفى تابعه وهو طار وهكذا فى كل استعارة تبعية يمكن أن يتصور معها صحة جريان الاستعارة فى قرينتها ومن هنا وقع اللبس حتى لقد ذهب بعض البلاغيين إلى رد التبعية إلى صور المكنية لدوافع سبق عرضها ومناقشاتها ، وسرد الأمر عندنا يذل الجهد فى التعرف على المعنى والمغزى الذى يحققه المجاز فى التركيب فثمة صور يحتم المعنى والسياق وقرائن الاحوال أخذها على التصريحية وهناك صور أخرى توجب أخذها على طريق المكنية والأصل مردود إلى موضع الاهتمام والغرض المراد فإذا كان مركز الاهتمام فى الفعل كان هو موضع التجوز وتكون الاستعارة تبعية وما نجده فى قريته حينئذ انما جاء تبعا وعلى هذا جرت الاستعارة فى الآية والحديث فالغرض فى الآية بيان تشتت هؤلاء القوم وتوزعهم فى جوانب الأرض المختلفة فلذا فقد استعير التقطيع للتفرق وأيضا فالمراد فى الحديث بيان سرعة هذا الضرب من الرجال وأنه يندفع ماليا نداء الله فى غير تردد أو تباطؤ وإنما على سرعة كأنها الطيران فلاتصد إذن الى تشبيه الفارس بالطائر وإنما المعنى بالذات تصوير تلك السرعة وإبرازها فى صورة مؤدية أمر تلبك السرعة فى وضوح وجلاء وأما إذا كان موضع العناية هو الفاعل أو المفعول كان التجوز فيه وحملت الصورة على المكنية فقول ذى الرمة

ولما أتانى أنّ ميّا تزوّجت خسوساً بكى سهل العمار وحزونها (٢)

فالأنسب إجراء الاستعارة فى السهل بحيث يصور فى صورة الأحياء الذين يقع منهم البكاء وفى هذا الخيال ما يحقق المشاركة بين تلك الكائنات والاحياء وكذلك قوله :

(١) البديع لابن المعتز تحقيق د . خفاجى ص٦١٣ وأسرار البلاغة د : خفاجى ص١٤٩ جـ ١

(٢) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ص ٣٥٨

سقاء الكرى كأس النعاس ورأسه لدين الكرى من آخر الليل ساجد[1]

نجد أن الفرزدق منصب على إبراز غلبة النوم على نفسه وسلطانه عليه وكأنه في صورة ساق وكذلك قوله في وصف شدة القيظ في الصحراء

تموت قطا الفلاة بها ظماً ويهلك في جوانبها النسيم

نجد أنه قد خيل النسيم حيا يموت في جوانب هذه البلاد من إحساسه بشدة الحر ونظير هذا قوله :—

سخاوي ماتت فرقها كل هبسوة من القيظ واعتمت بهن الحمارد[2]

فالفلوات شخوص صغيرة تموت فوق هذه الوهاد [3] بل إن ذا الرمة قد جعل الحر نفسه يموت حين يؤذن الصيف بالانقضاء

تقيظ الرمل حتى هز خافقه توهج البرد ما في عوشة رتك
ربلاً وأرطى نفت عنه ذبابه كواكب القيظ حتى ماتت الشهب[4]

وكذلك فقد جاء القرآن مصورا الخوف في صورة هول ورعب في قوله تعالى : "فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ[5] فجعل الخوف على مايرشد إليه السياق فيه تصوير للخوف في صورة الحي الذي يتحرك ويجزع وقوله جاء دليل هذا التصوير ورمز هذا المجاز الذي هو من قبيل المكنية . ويأورد في هذا الضرب من القرآن كثير . ومنه أيضا قوله تعالى: "وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ[6] فقد خيل الصبر ماءً باردا يفرغ على قلوب المؤمنين فيذهب ما يجدون في صدورهم من حر الكرب والفزع .

" والمهم في إدراك خصائص الصور والتمييز بينها أن نجتهد في إدراك الفروق بين فنون الاستعارة فنوجه كل تصوير الوجهة التي هو بها أشبه . وربما رأيت فيما قلته خلاف الذي قلته — ولاعليك — وإنما المهم أن تكون الرؤية رؤية مجتهد يحاول ان يتعرف على دقائق ملامح المجاز

---

(١) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ص ٣٥١
(٢) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ص ٣٥٨
(٣) التصوير البياني ص ٣٠٠، ٣٠١
(٤) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ص ٣٥٨، ٣٥٩
(٥) التصوير البياني ص ٣٠٢
(٦) سورة البقرة الآية ٢٥٠

الكناية مع المكنية :

سبق القول بأن هناك من الكلمات ما استعملت فى تراكيب مختلفة وهى تحمل ألوانا من الخيال شتى بما يختلف معه أمر التوجيه البيانى وكان من تلك الكلمات كلمة الرداء ورأينا كيف أنها وردت فى سياقات مختلفة وقد التبست المكنية فيها مع التصريحية وقد جاءت كلمة الرداء فى سياق آخر مختلف فى نحو قول قيس ابن الخطيم

وَقَدْ جَرَّبَتْنِى لَدَى كُلِّ مَأْقِطٍ ... فَحَتَّى إِذَا مَا الْحَرْبُ أَلْقَتْ رِدَاءَهَا (١)

يريد بقوله ألقت رداءها : أن الحرب قد اشتدت واستعرت وقد شبه الحرب بانسان غاضب يلقى رداءه تهيؤا للمنازلة قاسية ثم حذف المشبه به ودل عليه ببعض روادفه وعلى ذلك يحمل ما فى البيت على الاستعارة المكنية وعند التحقيق نرى أنه كناية بنيت على مجاز وهذا نظير المجاز الذى بنى على الكناية فى قوله تعالى "وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ الآية" (٢) . حيث أن الشاعر جعل الحرب شخصا يلقى رداءه وهذه المكنية ثم أريد بهذا التركيب شدة الأمر على سبيل الكناية - ومما يمكن أن يحمل على قول قيس قول أبى تمام

هُنالِكَ فَلْقَ الْجُودَ حَيْثُ تَقَطَّعَتْ ... تَمَائِمُهُ وَالْمَجْدَ مُرْخَى الذَّوَائِبِ (٣)

أراد أن المجد كائن فيهم لا يتحول عنهم إلى غيرهم . فقوله مرخى الذوائب فيه مكنية ثم يفيد هذا التركيب كناية عن المعنى الذى قصده .

ومما يجرى على هذا الطريق قولهم : بنات الليل . يريدون الهموم . وبنات الطريق وبنات الشوق ويريدهم الدوافع والنوازع . كما قال دريد

ولما رأيتُ البَشرَ أعرَضَ دونَنَا ... وحالتْ بناتُ الشوقِ يحنُنَ نَزْعَا
بكيتُ عِنى اليُسرى فلما زجرتُها ... عن الجَهْلِ بعدَ الحِلْمِ أسْبَلَتَا معَا

ويقولون أطفال الحب . ويريدون الأسباب والخواطر . وهذا كله من الكنايات المفردة التى تكون عن موصوف ووجه حسن هذه الكنايات أن الهموم تتوالد وتتكاثر فى الليل فكأنها بناته وكذلك خواطر الحب ونوازع الصبوة فيها من الوضاءة والطراوة كما تتصورها النفس مما يجعلها إلى البنات والاطفال (٤) لكن يلاحظ أن هذه الكنايات جاءت على ضرب من التجسيم فالهموم شواخص فى بنات وخواطر الشوق ونوازعه ماثلة فى بنات " يحنُنَّ نزعا أو أطفال تتواثب فراشه

(١) التصوير البيانى ص ٢٨٧ (٢) المائدة : ٦٤
(٣) ديوان ابى تمام جـ ١ ٢٠٣ (٤) التصوير البيانى ص ٢٩١

فى صورة ملائكة (١) . وهذا التوجيه فى مثل تلك التراكيب أولى وأسلم من الحمل على وجوه أخرى لما قد يبدو معها من تكلف يأباه طبع هذا العلم وأولى كذلك سالجأ إليه بعض العلماء حين أدخلوا أمثال ذلك فيما أطلقوا عليه اسم التوسع وإن كان بعضهم قد أفرط فى إدخال صور كثيرة يمكن أن تجرى على قواعد المجازات والكنايات كما سبق عند ابن الأثير وأوضحناه فى موضعه .

المكنية الملتبسة مع الحقيقة : —

وردت صور من التصوير التبست فيها المكنية مع الحقيقة التى لاتجوز فيها أصلا كما التبست مع التصريحية على نحو ما نجده فى أمثال كلمة ماء . حيث جاءت مضافة إلى غيرها وهى تحمل صوراً شتى من الخيال فهم يقولون . ماء الوجه . وماء الحياء . وماء الشباب . كما يقولون شعر له ماء أولا ماء له وكلام له ماء (٢) وذلك كله داخل فى الاستعارات التصريحية لان ثمة ماينص عليه وهو الحالة الشبيهة بالماء فيما أضيف إليه كالنضارة والطراوة .

وأما قولهم ماء الصبابة . وماء الشجى . وماء الشوق . وماء الحب . وماء الهوى . وأشباهه فيحمل على الحقيقة لأن المراد به الدموع . لأنظرى السياق الذى ورد فيه يوكد أنه حقيقة فى مثل قول ذى الرمة

أأنْ توهمتَ من خرقاءَ منزلةً ماءَ الصبابةِ مِنْ عَيْنَيْكَ مَسْجُومُ (٣)

وأما ماء الكلام التى وردت فى بيت أبى تمام صاحب القصة المشهوره فقد اختلف النقاد والبيانيون فى أمر التوجيه فحمله البعض على الحقيقة ومال به آخرون إلى طريق التصريحية على حين اتجه بعض البلاغيين إلى المكنية سالكين فى ذلك وجوهاً شتى فى هذا التخريج على تفصيل سبق فى موضعه

---

(١) ينظر التصوير البيانى ص ٢٦١ ، ٢٦٢
(٢) سر الفصاحة ص ١٣١
(٣) المصدر السابق نفس الموضع

المكنية والمجاز العقلـــــى :ـ

يقى من ضروب الالتباس التى تقع بين المكنية وغيرها صورتان الأولى والأهم ما نجده فى مثل قوله تعالى " وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا " (١) وقولهم إن الدموع يرقرقها نسيم الصبا الذى جاس خلال ديار الأحبة يحمل أنفاسهم . ويبعث الغمام . يبهج غوانى الأشـــواق ويشعل لهيب الحنين والبرق وفناء الحمام يشجى ويستفز لواعج الهوى وحمام يطن ودان يثير بلابل الشوق فى نفس قيس بن الملوح . (٢) كل هذه الصور من القول ومايحاكيها نرى أن الافعال والأحداث فيها لم تسند إلا ما يتصف بها على وجه الحقيقة . وإنما جاء على ضرب من التجـوز حيث أسندت هذه الأحوال إلى غير ماهى له لملابسة انطلاقا مع الخيال واستجابة للحس ألا ترى الإخراج قد أسند إلى الأرض فى القول الكريم وهى لاتخرج على الحقيقة . وإنما يخـــرج الله منها أثقالها . فهى مكان الفعل وليست فاعله وفى هذا الاسناد تخيل حيث نرى الأرض فاعلة تخرج أثقالها والاضافة فى الآية تشعر أنها أثقال هائلة . وواضح أن هذا ضرب خـاص من التجوز ومن هنا أفرده البلاغيون ببحوث خاصة وقد أطلقوا عليه اسماء ومصطلحات عديـده تقبل المجاز العقلى أو الحكمى أو الاسنادى مما لايدخل فى غرضنا الآن تحقيقه لكن لـــــا كان هذا الفن يلقى ظلا يخيل الأمر معه وكأن ثمة استعارة فى الفاعل وقع الالتباس بين المجاز العقلى والمكنية فقوله تعالى فى عيشه راضيـة " (٣) فيه تخييل أن العيشه قد شبهت بمـــن يأتى منه الرضا . وكذا قولهم ساربهم الطريق .

نرى فى العبارة خيالا يوهم أن الطريق مشبه بمن يسير ولذلك فقد اتجه السكاكى إلى إدخال صور المجاز العقلى فى المكنية على طريقته فيها فيكون قوله تعالى " فما ربحت تجارتهم " (٤) وقد شبهت التجارة بالمشترين ثم ادعى أن التجارة مشبه بها ثم أطلق لفظ المشبه الادعائى علـى المشبه به وهكذا تتصرف نظرته عن الاسناد ولايرى فيه تجوزا دائما التجوز كائن فى الفاعـــل الحقيقى وسواء كان الدافع وراء مسلك السكاكى الرغبة فى تحليل الأقسام أم كان غير ذلك عـلى ماسبق تفصيله فى سياقه فإن الأهم أن لايشغل دارس البلاغة عن الخصوصيات التى تتميز بهـا طرق التصوير البيانى المختلفة فى أداء المعانى فلنأخذ كل صوره بما يلائمها وكثير من صـــور

(١) الزلزله : آية ٢
(٢) خصائص التراكيب د ـ أبوموسى ط وهبه ص ٦٤
(٣) الحاقة : الآية : (٧)
(٤) البقرة : الآية : (١٦)

المجاز العقلى يطلقها جريانها على طريقة الاستعارة بالكناية ألا ترى لو قلنا فى قول الفرزدق " سقا خروق فى مسامح — انه شبه الخروق بالساقى فانا نكون قد خرجنا بالشعر عن مقتضاه وبراده لأن الفرزدق لم يلحظ هذا .

والمقصد الأهم فى صور المجاز العقلى إلى الاسناد والتصرف فيه نعم إن ذلك قد يلقى ظلا يتخيل معه تشبيه الفاعل المجازى بالفاعل الحقيقى، ولكن هذا يأتى ظلا وتبعا نعم هناك صور أوردها كثير من الدارسين وهم يرددونها بين المجاز العقلى والاستعارة المكنية وعند التدقيق والتحقيق نرى تميزا بين تلك الصور على أن التردد بين القنوين إنما يأتى غالبا فى الامثلة المؤلفة أو المختلفة التى يراد بها غالبا إجراء الاصول والقواعد وعلى كل فان التأمل فى الأساليب ينتج فرقا بين المجازيين وإن دق وخفى فلا داعى إذن لتكلف رد التبعية مطلقا أو المجاز العقلى على عمومه إلى المكنية بل نأخذ كل صورة على ماينا سبها من مقتضى السياق والمراد المقصود فيها والأصل المختار فى ذلك ماذكره السيد الشريف ناقلا عن صاحب الكشف وعرضناه فى موضعه .

المكنية الملتبسة مع المجاز المرسل :—

لم يبق من صور الالتباس غير صورة لم تشغل الفكر البلاغى كثيرا لذلك أرجأتها قاصدا بتناولها الحصر والتتميم لصور الالتباس وأعنى بذلك ما نجده فى مثل قوله تعالى " وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ " (١) يقول العرب .. يبنى فلان يطؤهم الطريق . وما يحاكى تلك الصور مما جرى معها العرف البلاغى على اعتباره من قبيل المجاز المرسل الذى تكون العلاقة فيه غير المشابهة لكن مال بعض علمائنا الاسلاف إلى ترجيح المكنية وكأن الأمر على مذهبهم تشبيه القرية بمن يصح سؤاله ثم حذف ودل عليه بلازمه والقاعدة المعتمدة فى التمييز هنا هى ما أثبتناه فى الفرق بين التبعية والمكنية وكذا المجاز العقلى والمكنية وكذا سائر صور الالتباس وعلى مقتضى ذلك الأصل نرى أن حمل الآية على مقتضى المكنية فيه مزيد مبالغة هى بالمعنى والسياق أنسب .

وهكذا يمهد لك التأمل فى الصور والتعرف على معانيها إلى الوجه الذى تستقيم عليه من ضروب البيان . فقد رأينا فى التراكيب التى جاءت على طريق الاضافة ماهو من قبيل

(١) يوسف : ٨٢

الاستعارة التصريحية وماهو من قبيل الحقيقة ورأينا فى صور أخرى كيف دار الأمر معهـــا على طريق التجوز فى الاسناد أوعلى طريق التجوز الذى مآله إلى الكنية والسهم أن نجـد عما فيه تكلف فلا ينبغى أن نأخذ إلا على الوجه الميسور وكان عبد القاهر امام هذا الفـن وهو باحث بعيد الغور يلح على هذا و يأخذ نفسه به ويعمل على مقتضـــاه .

تعقيب

وبعد :

فهذا هو مبحث الاستعارة بالكناية فى البلاغة العربية . وتلك مسيرتها درسا وبحثا عبر العصور . ولدا علمائنا الاسلاف . على اختلاف مناهجهم ومنازلهم وغاياتهم .

ولعله قد ظهر كيف كان هذا البحث مثار عناية واهتمام الباحثين فى شئون البلاغة والاعجاز وقضايا الادب والنقد ذلك . كما وضح ايضا أن كثيرا من المشكلات قد صاحبت الكناية . أو جدت عليها تبعا لاختلاف العصور وتفاوت الدارسين .

وقد حاولت جاهدا الالمام بكثير من القضايا والمسائل البلاغية والنقدية المتصلة بهذا الضرب . كما حاولت قدر الطاقة أن أقضى بعض المشكلات . وخاصة ما يتصل منها بالضروب الملتبسة بين الكناية وكثير من فنون البيان الاخرى . وذلك بمحاولة التماس الحدود والاصول الفارقة بين ضرب وآخر على ضوء من التحليل وبمعونة السياق والقرائن .

وقد ذكرت عقب الأبواب والفصول ما أعده استخلاصا يغنى عن ذكر النتائج هنا تجنبا للتكرار . وبعدا عن التطويل .

والله أسأل مخلصا فى هذه الايام المباركة أن يكون فى هذا العمل المتواضع ما يفيد . وأن يكون فيه ما يرضى وجهه الكريم . انه نعم المولى ونعم النصير .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

١ — الابانة عن سرقات المتنبي للعميدي تحقيق ابراهيم السايس ط دار المعارف .
٢ — ابن يقظة ليس سلفيا — منصور عويس ط النهضة العربية سنة ١٩٧٠م .
٣ — ابن تيمية وموقفه من التأويل — محمد السيد الجليند — مجمع البحوث الاسلامية
٤ — ابن الرومي حياته وشعره عباس العقاد ط مصر بدون تاريخ .
٥ — ابن المعتز وتراثه في النقد والبيان د . خفاجي ط دار العهد الجديد سنة ١٩٥٨ ثانية .
٦ — أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية — د . بدوي طبانه — ط الانجلو المصرية — الطبعة الثانية — سنة ١٩٦٠م .
٧ — الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ط — دار الفكر — بيروت. بدون تاريخ .
٨ — أثر القرآن في تطور النقد العربي — د . محمد زغلول سلام ط دار المعارف — الطبعة الثالثة ١٩٦٨ .
٩ — أثر النحاة في البحث البلاغي د . عبد القادر حسين ط دار نهضة مصر سنة ١٩٧٥م .
١٠ — أخبار أبي تمام لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي تحقيق محمد عبده عزام — خليل محمود عساكر — مطبوعات دار الآفاق الجديدة — بيروت الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠م .
١١ — أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني ط القاهرة — أولى سنة ١٣٩٢ هـ .
١٢ — الأسس النفسية للابداع الفني في الشعر خاصة د . مصطفى سويف ط دار المعارف سنة ١٩٧٠م .
١٣ — الأسس النفسية للادب — حامد عبد القادر .
١٤ — أساس البلاغة لجار الله الزمخشري ط الشعب سنة ١٩٦٠م .
١٥ — أساليب التعبير الشعبي د . نبيلة ابراهيم ط نهضة مصر سنة ١٩٧٨م .
١٦ — الأسلوب : أحمد الشايب ط النهضة المصرية سنة ١٣٩٦ هـ .
١٧ — الاشارات والتنبيهات في علم البلاغة — محمد بن علي بن محمد الجرجاني — تحقيق د / عبد القادر حسين — ط نهضة مصر سنة ١٩٨٢م .

١٨ — الأصمعيات — اختيار الأصمعي تحقيق أحمد شاكر ، وعبد السلام هارون ط دار المعارف سنة ١٩٦٧ م .
١٩ — الأطول للمصام — ط الآستانة بدون تاريخ .
٢٠ — الاعجاز في دراسات السابقين — عبد الكريم الخطيب — ط دار الفكر سنة ١٩٧٣ م .
٢١ — اعجاز القرآن للباقلاني — ط دار المعارف سنة ١٩٦٣ م .
٢٢ — اعجاز القرآن للرافعي — ط دار الفكر — بيروت بدون تاريخ .
٢٣ — الافصاح للأستاذ أحمد الحجار ط السعادة .
٢٤ — الاكسير في علم التفسير للطوفي البغدادي — تحقيق د . عبد القادر حسين — ط النموذجية سنة ١٩٨٢ م .
٢٥ — الأمثال في الأدب العربي القديم — عبد المجيد عابدين ط دار مصر
٢٦ — الأمالي لأبي علي القالي ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٥ م .
٢٧ — أمالي علي عبد الرازق ط النيل سنة ١٣٣٠ هـ .
٢٨ — أمالي المرتضى للشريف المرتضى تحقيق أبو الفضل ابراهيم ط دار الكتاب العربي — بيروت الثانية ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧ م .
٢٩ — الايضاح في علوم البلاغة للقزويني ط صبيح سنة ١٣٩٠ هـ .

(الباء)

٣٠ — بحوث في اللغة والأدب — عباس العقاد — مكتبة غريب سنة ١٩٧٠ م .
٣١ — بحوث المطابقة لمقتضى الحال — صورها وعلاقتها بالنقد الأدبي الحديث أ د / علي البدري — ط النهضة المصرية الطبعة الأولى سنة ١٤٠٢ هـ
٣٢ — البديع في نقد الشعر لأسامة بن منقذ — تحقيق د . حامد عبد المجيد ط مصطفى الحلبي ١٣٨٠ هـ .
٣٣ — بديع القرآن لابن أبي الاصبع تحقيق د . حفني شرف ط نهضة مصر ط ثانية .
٣٤ — البستاني واليازجة هو موسوس للبدوي الناشم ط دار المعارف سنة ١٩٦٣ م .
٣٥ — بغية الايضاح — عبد المتعال الصعيدي ط النموذجية .
٣٦ — البلاغة تطور وتاريخ د / شوقي ضيف ط دار المعارف الطبعة الثانية بدون تاريخ .
٣٧ — بلاغة العرب في القرن العشرين لمحيي الدين رضا ط الرحمانية بدون تاريخ .

٣٨ — البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د • محمد أبو موسى ط دار الفكر •
٣٩ — البلاغة والنقد بين التاريخ والفن د • مصطفى الجوينى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب — فرع الاسكندرية سنة ١٩٧٥م •
٤٠ — البلاغة الواضحة — على الجارم ومصطفى أمين ط دار المعارف سنة ١٩٧٥م •
٤١ — بلاغة الاسلوب د • بسيونى عرفة ط دار الرسالة سنة ١٩٨٣ م •
٤٢ — البلاغة التطبيقية د • أحمد موسى ط المعرفة سنة ١٩٦٣ م •
٤٣ — البلاغة عند السكاكى د • أحمد مطلوب ط بغداد طبعة أولى ١٣٨٤ هـ •
٤٤ — البهاء السبكى وآراؤه البلاغية والنقدية — د • عبد الفتاح لاشين ط دار الطباعة المحمدية ط سنة ١٣٩٩ هـ •
٤٥ — البارودى رائد الشعر الحديث د • شوقى ضيف ط دار المعارف طبعة ثانية •
٤٦ — البيان العربى د • بدوى طبانة ط الأنجلو مصرية ط رابعة سنة ١٩٦٩ م •
٤٧ — البيان والتبيين لأبى عثمان الجاحظ تحقيق حسن السندوبى طبعة ثانية — القاهرة سنة ١٣٥١ هـ سنة ١٩٣٢م •
٤٨ — البيان بين عبد القاهر والسكاكى أ • د على البدرى ط السعادة — الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م •

(التـــاء)

٤٩ — تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها — أحمد مصطفى المراغى ط مصطفى الحلبى طبعة أولى سنة ١٣٦١ هـ ١٩٥٠ م •
٥٠ — تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة تحقيق سيد صقر — دار التراث سنة ١٣٩٣ هـ •
٥١ — تجريد البنانى على مختصر السعد على متن التلخيص ط الخيرية سنة ١٣٢٩ هـ •
٥٢ — تحت راية القرآن — مصطفى الرافعى — دار الكتاب العربى — بيروت •
٥٣ — التصوير البيانى — د • محمد أبو موسى ط وهبة سنة ١٩٨٠ م •
٥٤ — التصوير الفنى فى القرآن — د • بكرى شيخ أمين ط دار الشروق سنة ١٤٠٠هـ •
٥٥ — التصوير الفنى فى القرآن — سيد قطب ط دار الشروق بدون تاريخ •
٥٦ — التفسير البيانى للقرآن الكريم — د • عائشة عبد الرحمن ط دار المعارف •
٥٧ — تفسير التحرير والتنوير للشيخ الطاهر بن عاشور ط الدار التونسية للطبع والنشر بدون تاريخ •

٥٨ — تفسير سورة الاخلاص للامام ابن تيمية تقديم د • محمد عبد المنعم خفاجـــى
ط دار الطباعة المحمدية — بدون تاريخ •
٥٩ — تفسير الطبرى — جامع البيان عن تأويل أى القرآن لأبى جعفر محمد بن جريـر
الطبرى — تحقيق محمود شاكر ، مراجعة أحمد شاكـر • ط دار المعارف
— بدون تاريخ •
٦٠ — تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده — ط الأميرية طبعه أولى سنة ١٣٣٣ هـ •
٦١ — التلخيص فى علوم البلاغة بشرح الشيخ عبد الرحمن البرقوقى ط التجارية بمصـــر
سنة ١٣٢٣ هـ •
٦٢ — تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى — تحقيق عبد الغنى حسن
ط الحـلبى سنة ١٩٥٥ م •

(الثـــاء)

٦٣ — ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن للرمانى والخطابى وعبد القاهر ت تحقيق محمد
خلف الله احمد ، محمد زغلول سلام ط دار المعارف • الطبعه الثانية ١٣٨٧ هـ •

(الجيـــم)

٦٤ — الجمان فى تشبيهات القرآن لابن ناقيا البغدادى تحقيق د • مصطفى الصـاوى
الجوينى — نشر منشاة المعارف بالاسكندريـة سنة ١٩٧٨ م •

(الحـــاء)

٦٥ — حاشية الامبابى على رسالة الصبان فى علم البيان — ط أميرية أولى سنة ١٣١٥ •
٦٦ — حاشية البيجورى على السمرقندية ط عيسى الحلبى — بدون تاريخ •
٦٧ — حاشية السيد على المطول — ط عثمانية سنة ١٣١٠ هـ طبعه أولى •
٦٨ — حاشية الشيخ الخضرى على شرح الملاوى على السمرقندية ط الأزهريـــــة
سنة ١٣٤١ هـ •
٦٩ — حاشية مخلوف على شرح الدمنهورلمتن الأخضرى ، ط عيسى الحلبى بدون تاريخ •
٧٠ — حصاد الهشيم — ابراهيم المازنى — ط دار الشعب — بدون تاريخ •
٧١ — الحيوان لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ — ط مصطفى الحلبى •

(الخـــاء)

٧٢ — الخصومات البلاغية والنقدية فى صنعة أبى تمام — د • عبد الفتاح لاشـــين ط دار المعارف ط أولى سنة ١٩٨٢ م •
٧٣ — الخصائص لابن جنى تحقيق محمد على النجار ط دار الهدى — بيروت •
٧٤ — خصائص التراكيب — د • محمد أبو موسى ط مكتبة وهبة ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م •
٧٥ — خطوات التفسير البيانى للقرآن الكريم — د • محمد رجب البيومى — سلسلة البحوث الاسلامية سنة ١٩٧١ م •

(الـدال)

٧٦ — دائرة المعارف الاسلامية — اعداد وتحرير : ابراهيم زكى خورشيد أحمـــد الشنتاوى — د • عبد الحميد يونس ط دار الشعب بدون تاريخ •
٧٧ — دراسات أدبية عمر الدسوقى، ط: دار النهضة مصر طبعة ثانية — بدون تاريخ •
٧٨ — دراسات فى الشعر العربى المعاصر — د • شوقى ضيف ط دار المعـارف طبعـة سادســة ١٩٧٦ م •
٧٩ — دراسات فى علم النفس الأدبى — حامد عبد القادر — ط النهوذجية •
٨٠ — دراسات فى نقد الأدب العربى — د • بدوى طبانة — القاهرة سنة ١٩٧٣م •
٨١ — دور العبارات وغير الاشارات فى تحقيق معانى الاستعارات لأحمد بن محمـد مكى الحسينى الحموى المصرى تحقيق عبد الحليم أبو شادى مخطوط •
٨٢ — دفاع عن البلاغة العربية — د • أحمد حسن الزيات — ط الرسالة سنة ١٩٤٥م •
٨٣ — ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى تحقيق محمود عبده عزام — ط دار المعـارف سنة ١٩٦٤ م •
٨٤ — ديوان ابن المعتز • تحقيق محمد بديع شريف ط دار المعارف طبعة أولى سنة ١٩٧٧ •
٨٥ — ديوان البحترى تحقيق حسن كامل الصيرفى ط دار المعارف طبعة ثانيـــة ســنة ١٩٧٣ م •
٨٦ — ديوان البهاء زهير — شرح وتحقيق : محمد طاهر الجبلاوى ، محمد أبـــو الفضـــل ط دار المعارف سنة ١٩٧٧ م •
٨٧ — ديوان حافظ ابراهيم — ضبطه وصححه وشرحه ورتبه أحمد أمين — أحمد الزين — ابراهيم الأبيارى — ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م •

٨٨ — ديوان السري الرفاء الناشر مكتبة القدسي سنة ١٣٥٥ هـ .
٨٩ — ديوان عامر بن الطفيل — ط دار صادر بيروت — رواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري عن ثعلب سنة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣ م .
٩٠ — ديوان عمر بن أبي ربيعة ط الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٨ .
٩١ — الديوان . عباس العقاد ـ المازني — ط دار الشعب طبعة ثالثة بدون تاريخ .
٩٢ — دلائل الاعجاز عبد القاهر الجرجاني — القاهرة — طبعة أولى سنة ١٩٦٩ م .
٩٣ — دلالات التراكيب — د . محمد أبو موسى طبعة أولى وهبة سنة ١٣٩٩ هـ .

(الـــراء)

٩٤ — الرازي والبلاغة العربية — مخطوط بمكتبة كلية اللغة العربية أ.د . محمد جلال الذهبي .

(الـــزاي)

٩٥ — زهر الآداب وثمرات الألباب للحصري تحقيق علي محمد البجاوي ط عيسى الحلبي — الطبعة الثانية سنة ١٩٦٩ م .
٩٦ — زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع للشيخ أحمد الحلاوي — مصطفى الحلبي ط سابقة سنة ١٣٩١ هـ .

(الـــسين)

٩٧ — سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي — شرح وتصحيح عبد المتعال الصعيدي ط صبيح سنة ١٣٨٩ هـ .

(الشـــين)

٩٨ — شرح أبيات سيبويه لأبي جعفر النحاس — تحقيق زهير غازي زاهد . ط بغداد .
٩٩ — شرح ديوان الأخطل تحقيق وشرح ايليا سليم الحاوي ط دار الثقافة بيروت سنة ١٩٦٨ م .

١٠٠ــ شرح ديوان زهير لثعلب، ط الهيئة العامة للكتاب، ١٩٦٤ م
١٠١ــ شرح ديوان الشريف الرضى ــ محيى الدين عبد الحميد ط الحلبى ط أولى سنة ١٣٦٨ هـ .
١٠٢ــ شرح ديوان صريع الغوانى تحقيق د . سامى الدهان ــ ط دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٧٠ م .
١٠٣ــ شرح ديوان المتنبى للبرقوقى ط التجارية الكبرى سنة ١٣٤٨ هـ .
١٠٤ــ شرح سقط الزند ــ نسخة مصورة عن دار الكتب الناشر : الدار القومية للطباعة والنشر سنة ١٩٦٤ .
١٠٥ــ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ، للأنبارى تحقيق عبد السلام هارون ط دار المعارف .
١٠٦ــ شرح القصائد السبع للنحاس ــ تحقيق أحمد خطاب ط بغداد سنة ١٣٩٣ هـ .
١٠٧ــ شرح المعلقات السبع للزوزنى ط دار الجيل ــ بيروت ــ الطبعه الثانية سنة ١٩٧٣ م .
١٠٨ــ شروح التلخيص ط عيسى البابى الحلبى ــ
١٠٩ــ الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ط دار المعارف الطبعة الثانية سنة ١٩٧٧ م .
١١٠ــ شاعر الصعاليك د . عبد الحليم حنفى ط النهوذجية سنة ١٩٧٦ م .
١١١ــ الشوقيات ــ الناشر ــ المكتبة التجارية الكبرى سنة ١٩٧٠ م .

(الصـــاد)

١١٢ــ الصبح المنبى للشيخ يوسف البديعى تحقيق مصطفى السقا محمد شتا ــ ط دار المعارف سنة ١٩٧٧ م .
١١٣ــ الصبغ البديعى فى اللغة العربية ــ د . أحمد موسى ــ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة سنة ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م .
١١٤ــ الصاحبى لأبى الحسين أحمد بن فارس ط عيسى الحلبى سنة ١٩٧٧ م .
١١٥ــ صحيح البخارى بحاشية السندى ط دار احياء الكتب العربية بدون تاريخ .
١١٦ــ الصناعتين لأبى هلال العسكرى تحقيق البجاوى وأبو الفضل ابراهيم ط عيسى الحلبى سنة ١٩٧١ م .

١١٧ــ الصورة الأدبية ــ د • مصطفى ناصف مكتبة مصر طبعة أولى سنة ١٩٥٨م •
١١٨ــ الصور البيانية بين النظرية والتطبيق ــ د • حفنى شرف ط نهضة مصر سنة ١٣٨٥ هـ •
١١٩ــ صور من تطور البيان العربى ــ د • كامل الخولى ــ دار الكتاب العربى بمصر سنة ١٣٨٣ هـ •

(الطاء)

١٢٠ــ طبقات الشعراء لابن المعتز تحقيق عبد الستار أحمد فراج ط دار المعارف طبعة ثانية سنة ١٩٦٨م •
١٢١ــ الطراز العلوى ط المقتطف سنة ١٩٣٦ •

(العين)

١٢٢ــ عبد القاهر الجرجانى د • أحمد بدوى من سلسلة أعلام العرب نشر مكتبة مصر بدون تاريخ •
١٢٣ــ العبرات ــ مصطفى لطفى المنفلوطى ــ الناشر المكتبة التجارية الكبرى ــ الطبعة الرابعة سنة ١٩٣٣م •
١٢٤ــ علم البيان ــ د • بدوى طبانة ــ مكتبة الانجلو المصرية ــ بدون تاريخ •
١٢٥ــ العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق تحقيق محيى الدين عبد الحميد ــ ط دار الجيل ــ بيروت سنة ١٩٧٣م •
١٢٦ــ علوم البلاغة ــ أحمد مصطفى المراغى ــ ط القاهرة سنة ١٣٣٤ هـ •

(الغين)

١٢٧ــ غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات لعلى بن ظافر الأزدى المصرى ــ تحقيق محمد زغلول سلام ، ومصطفى الصاوى الجوينى ط دار المعارف سنة ١٩٧١م •
١٢٨ــ فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ١٣٩٤ هـ ، ١٩٧٤م •
١٢٩ــ فقه اللغة وسر العربية للثعالبى تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الابيارى ط عيسى الحلبى ١٣٩٢ هـ ــ ١٩٧٢ م •

١٣٠ـ فن البلاغة ـ د . عبد القادر حسين ـ مكتبة الآداب سنة ١٩٧٧ م .
١٣١ـ الفن ومذاهبه في الشعر العربي ـ د . شوقي ضيف ـ ط دار المعارف
١٣٢ـ في الأدب والنقد ـ د . محمد مندور ـ ط دار نهضة مصر .
١٣٣ـ في النقد الأدبي ـ د . شوقي ضيف ـ ط دار المعارف الرابعة سنة ١٩٧٦ م .

(القاف)

١٣٤ـ القرآن والصورة البيانية د . عبد القادر حسين ط نهضة مصر .
١٣٥ـ قواعد الشعر لثعلب ـ شرح محمد عبد المنعم خفاجي ط الحلبي سنة ١٣٦٧ هـ . ١٩٤٨ م .

(الكاف)

١٣٦ـ الكامل ـ للمبرد ط التقدم سنة ١٣٣٥ هـ .
١٣٧ـ كتاب أرسطو طاليس في الشعر نقل أبي بشر متى بن يونس من السريانية الى العربية ـ تحقيق د . شكري عياد ـ الناشر دار الكاتب العربي للطباعة والنشر سنة ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٧ م .
١٣٨ـ الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام هارون ط دار القلم سنة ١٩٦٦ م
١٣٩ـ الكشكول لبهاء الدين العاملي تحقيق الطاهر الزاوي ط عيسى الحلبي .

(اللام)

١٤٠ـ اللغة الشاعرة ـ للعقاد ـ ط مكتبة غريب ـ بدون تاريخ .

(الميم)

١٤١ـ المثل السائر لابن الأثير ط بولاق، بدون تاريخ .
١٤٢ـ مجاز القرآن لأبي عبيدة . تحقيق: فؤاد سزكين ط دار التراث بدون تاريخ .
١٤٣ـ المجازات النبوية للشريف الرضي تحقيق د . طه الزيني ط الحلبي سنة ١٣٨٧ هـ .

١٤٤ــ محاضرات فى تاريخ البلاغة العربية د ٠ عبد الرحمن الكردى ط السعادة طبعة أولى سنة ١٩٧٠م ٠
١٤٥ــ الدوافع النبوية فى الأدب العزلى ــ زكى مبارك منشورات المكتبة العصرية ــ بيروت ــ بدون تاريخ ٠
١٤٦ــ المذاهب النقدية فى شعر شكرى ــ د ٠ محمد السعدى فرهود ط السعادة ٠
١٤٧ــ امرؤ القيس أمير شعراء الجاهلية ــ د ٠ الطاهر أحمد مكى ط دار المعارف ٠
١٤٨ــ المزهر لجلال الدين السيوطى ط المكتبات الأزهرية سنة ١٣٣٥ هـ ٠
١٤٩ــ مسائل الرازى وأجوبتها من غرائب آى التنزيل لأبى محمد بن أبى بكر الرازى ــ تحقيق ابراهيم عطوة ط مصطفى الحلبى ــ بدون تاريخ ٠
١٥٠ــ مشاهد القيامة فى القرآن الكريم ــ سيد قطب ط دار المعارف سنة ١٩٧٠م ٠
١٥١ــ معانى القرآن للفراء ــ تحقيق محمد على النجار ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م ٠
١٥٢ــ معاهد التنصيص على شواهد التلخيص تأليف الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباس تحقيق محيى الدين عبد الحميد ــ ط عالم الكتب ــ بيروت بدون تاريخ ٠
١٥٣ــ مفتاح العلوم لأبى يعقوب يوسف السكاكى ط مصطفى الحلبى طبعة أولى سنة ١٣٥٦ هـ ٠
١٥٤ــ مفهوم الاستعارة ــ د ٠ أحمد الصاوى ط الهيئة العامة ــ اسكندرية سنة ١٩٧٩م ٠
١٥٥ــ من أسرار التعبير القرآنى د ٠ محمد أبو موسى ط دار الفكر سنة ١٣٩٦ هـ ٠
١٥٦ــ من بلاغة القرآن ــ د ٠ أحمد بدوى ط دار نهضة مصر ــ الثالثة ــ بدون تاريخ ٠
١٥٧ــ من حيث الشعر والنثر ــ د ٠ طه حسين ط الصاوى بالقاهرة ٠ ٠
١٥٨ــ من قضايا اللغة والنحو ــ على النجدى ناصف ط دار نهضة مصر ــ بدون تاريخ ٠
١٥٩ــ من الوجهة النفسية فى دراسات الأدب ونقده ــ محمد خلف الله أحمد ط لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٧م ٠
١٦٠ــ الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى للآمدى ــ تحقيق السيد أحمد صقر ط دار المعارف ط ثانية سنة ١٣٩٢ هـ ــ ١٩٧٢م ٠

١٦١ــ الموازنة بين الشعراء ــ أبحاث فى أصول النقد وأسرار البيان ــ زكى مبارك ــ ط مصطفى الحلبى ــ الطبعة الثالثة سنة ١٣٩٣ هـ ــ ١٩٧٣م.
١٦٢ــ الموشح للمرزبانى تحقيق على محمد البجاوى ط نهضة مصر سنة ١٩٦٥م.

(النـــون)

١٦٣ــ النبأ العظيم د. محمد عبد الله دراز ط دار القلم الطبعة الرابعة سنة ١٣٩٧ هـ ــ ١٩٧٧م.
١٦٤ــ نظرية البيان بين عبد القاهر والمتأخرين د. حسن اسماعيل طبعه أولى سنة ١٤٠٠ هـ ط دار الطباعة المحمدية.
١٦٥ــ نظرية عبد القاهر فى النظم ــ د. درويش الجندى ط دار نهضة مصر سنة ١٩٦٠م.
١٦٦ــ نظرية الفن المتجدد وتطبيقها على الشعر ــ عز الدين الأمين ط دار المعارف ط ثانية سنة ١٣٣١ هـ ــ ١٩٧١م.
١٦٧ــ نظرية المعنى فى النقد العربى د. مصطفى ناصف ط دار القلم.
١٦٨ــ النظريات النقدية فى شعر شكرى د. محمد السعدى فرهود.
١٦٩ــ النقد الأدبى ــ أصوله ومناهجه ــ سيد قطب ط دار الشروق الطبعة الرابعة سنة ١٤٠٠ هـ ــ ١٩٨٠م.
١٧٠ــ النقد الأدبى عند العرب ــ د. حفنى شرف ط مكتبة الشباب سنة ١٩٧٠.
١٧١ــ نقد الشعر لقدامة بن جعفر تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجى، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية ــ طبعة أولى ــ سنة ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م.
١٧٢ــ نقد النثر لقدامة بن جعفر تحقيق د. طه حسين، وعبد الحميد العبادى نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٦ هـ.
١٧٣ــ نهاية الايجاز فى دراية الاعجاز للفخر الرازى، ط. الآداب.

(الواو)

١٧٤ــ الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى على بن عبد العزيز الجرجانى تحقيق أبو الفضل ابراهيم، وعلى البجاوى ط عيسى الحلبى بدون تاريخ.

(اليـــاء)

١٧٥ــ يتيمة الدهر للثعالبى ــ مطبعة حجازى بالقاهرة.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة	١
بين يدى البحث	٧ — ٨٥
الباب الأول : المكتبة قبل عبد القاهر	
الفصل الأول : فى الدراسات القرآنية واللغوية	
المبحث الأول : فى الدراسات القرآنية والنبوية	
عند أبى عبيدة	٧
عند الشريف الرضى	٨
فى أمالى المرتضى	١٤
المبحث الثانى : فى الدراسات اللغوية	
فى الكتاب لسيبويه	١٨
فى قواعد الشعر لثعلب	٢٢
فى الخصائص لابن جنى	٢٤
عند الثعالبى	٢٨
الفصل الثانى : فى المصادر التفسرية والبلاغية	
المبحث الأول : عند ابن المعتز والصولى	
شهيد	٣١
فى البديع لابن المعتز	٣٣
فى اخبار ابى تمام للصولى	٣٦
المبحث الثانى : فى موازنة الآمدى	
الاستعارة عند الآمدى	٤١
المقاييس التى احتكم اليها فى نقده للاستعارات المكنية	٤٤
الاحتكام الى ما جرت به العادة	٤٤
القول بعدم القياس فى المجاز	٤٦
بعد الشبه	٥٣
المبالغة والافراط	٥٦
الغموض والخفاء	٥٧

الموضـــوع	رقم الصفحة
المبحث الثالث : فى وساطة الجرجانى	
ملاحظات على طريقة الجرجانى فى معالجة هذا الضرب .	٦٠
حد الاستعارة عند القاضى الجرجانى	٦١
معايير حسن الاستعارة عنـــده	٦١
كيفية معالجته لاساليب الكنيـة	٦٢
المبحث الرابـع : عند ابى هلال وابن رشيق وابن سنان .	
مع ابى هـــلال	٦٨
فى العمدة لابن رشيق	٦٩
تقسيم ابن رشيق للاستعـــارة	٧٠
عنـد ابن سـنان	٧٤
المقاييس التى احتكم اليها فى تقدير الاستعارات ...	٧٥
الباب الثانى : الكنية من عبد القاهر الى السكاكى	٨٦ ــ ١٥٥
الفصل الاول : تطور دراسات الكنية على يدى عبد القاهر	
تمهـــيد	٨٦
بلاغة الاستعارة عند عبد القاهر واشادته باسلوب الكنية	٨٧
جهود عبد القاهر على طريق التحديد والتقسيم والتمييز	٨٨
حدود الاستعارة وهل تتناول الكنية التخييلية	٨٨
تقسيم الاستعارة الى تحقيقيـة وتخييـلية	٨٩
ايضاح عبد القاهر الفروق بين الضـربين	٩٠
اشارات عبد القاهر الى طريقة الكنيـــة	٩٣
ملاحظات على طريقة عبد القاهر فى التمييز بين التحقيـقية والتخييـلية	٩٦
الكنية والتمثيل	٩٧
من قضايا التخييـلية والكنيـة	٩٩
قرب الشبـه وخفاء التشـبيـه	٩٩
الكنية والتخييلية بين النقل والعقـل.....	١٠٠
بين اللفظ والمعنى والنظم	١٠٢
أثر عبد القاهر بالسـابقـين	١٠٥

الموضـــوع	رقم الصفحة
الاستعارة من البديع عند الاسام	١٠٧
هل تأثر عبد القاهر في درس الاستعارة بالقافات الواقدة	١٠٧
خصائص منهج عبد القاهر في معالجته اساليب الكنية	١٠٩
الفصل الثاني : الكنية على طريق التطبيق والتحديد الاصطلاحي	
المبحث الاول : جهود الزمخشري في مجال التطبيق والتجديد	
تمهيد	١١٢
تصوير لمذهب الزمخشري في الكنية	١١٣
اعتبار الاستعارة في الفعل تبعية	١١٦
الحمل على الكنية فيما كانت قرينتها اسما	١١٧
ادراك الزمخشري لما في الكنية من قدرة على التصوير والتشخيص	١١٧
الاستعارة في الحرف بين الكنية والتبعية والتمثيلية ..	١١٨
الكنية مراد الزمخشري بالمجاز	١٢٠
الكنيه والتمثيل والتخييـــل	١٢٣
الكنيـة مراد الزمخشـري بالمثل	١٢٥
المبحث الثاني : مع الفخر الرازي	
الرازي والاستعارة حدود الاستعارة عند الرازي ...	١٢٧
الرازي يضع مصطلح الاستعارة بالكناية والاستعـــارة التخـييلية	١٢٨
الرازي والاستعارة الكنيـة	١٢٩
الرازي والاستعارة التخييلية	١٣٠
بين النقل والعقل	١٣١
بين الرازي وعبد القاهر والزمخشـري	١٣٢

الموضـــوع	رقم الصفحة
التمييز بين ضربي الاستعارة	١٣٢
المكنية في تطبيقات الرازي على اقسام الاستعارة ..	١٣٣
معايير حسن الاستعارة	١٣٤
ملاحظات على معالجة الرازي للاستعارة المكنية ...	١٣٦
الفصل الثالث : الوجوه بصور المكنية الى روح الدرس الادبي	
مع ابن الاثير	١٣٧
ابن الاثير والاستعارة	١٣٨
ابن الاثير والمكنية	١٣٩
صور المكنية لونا من الوان التوسع	١٣٩
بين ابن الاثير وابن جني	١٤٣
بين ابن الاثير وابن سنان	١٤٤
مع ابن أبي الاصبع	١٤٥
حد الاستعارة عنده	١٤٥
صور المكنية بين اقسام الاستعارة ومصطلحاتها	١٤٦
الاستعارة التخييلية	١٤٧
المكنية والتخييلية عند العلوي	١٤٨
الاستعارة التخييلية	١٥٠
تقسيم الاستعارة الى محققة وخيالية	١٥١
التخييل والتخييلية	١٥٢
الفرق بين المحققة والخيالية	١٥٥
الباب الثالث : مذاهب المكنية وصورها	١٥٦ — ٢٣٦
الفصل الاول : مع السكاكي في المكنية والتخييلية	
تمهيد	١٥٦
الحقيقة عند السكاكي	١٥٦
الاثر	١٥٧

الموضوع	رقم الصفحة
الاستعارة	١٥٧
الاستعارة المكنية	١٥٨
ايضاح لمذهب السكاكي	١٥٨
مناقشات حول مذهب السكاكي	١٥٩
اعتراض الخطيب	١٦٠
جواب السعد	١٦١
جواب العصام	١٦١
تعقيبات على رأي السكاكي في المكنية	١٦٢
قرينة المكنية عند السكاكي	١٦٥
قرينة المكنية استعارة تخييلية	١٦٥
معنى التخييلية عنده	١٦٦
وجه المناسبة بين هذا المصطلح ومعناه عند السكاكي	١٦٧
الدوافع وراء تعبير السكاكي للتخييلية	١٦٧
مناقشة هذا المذهب	١٦٨
اعتراضات الخطيب	١٦٨
الاعتراض الأول	١٦٨
الاعتراض الثاني	١٦٩
الاعتراض الثالث	١٧٠
الاعتراض الرابع	١٧٠
قرينة المكنية حقيقة	١٧٤
قرينة المكنية تحقيقية	١٧٥
موقف السكاكي من التبعية والمجاز العقلي	١٧٧
مذهب السكاكي في رد التبعية الى المكنية	١٧٧
اولا : مذهب السكاكي في الردين الترجيح والوجوب	١٧٨
ثانيا : عموم مذهب السكاكي لصور التبعية	١٧٨
الدافع وراء اختيار السكاكي	١٧٩
مناقشات حول مذهب السكاكي	١٨٠

الموضـــوع	رقم الصفحة
مناقشة السعد للخطيب	١٨١
جواب العصام على اعتراض الخطيب	١٨١
ثانيا اعتراض السعد	١٨٣
جواب العصام	١٨٣
جواب الصبان	١٨٣
ثالثا : اعتراض صاحب الكشف	١٨٤
الكنية والمجاز العقلي	١٨٦
تحرير محل النزاع	١٨٧
هل لما ذهب اليه السكاكي اصل في كلام السلف	١٨٨
الدافع وراء ما ذهب اليه السكاكي	١٨٨
مناقشة السكاكي	١٨٩
اعتراضات الخطيب	١٨٩
جواب السعد	١٩٠
موقف المحدثين حول مذهب السكاكي	١٩١
دفاع عن مذهب السكاكي	١٩٣
الفصل الثاني : الكنية بعد السكاكي	
المبحث الأول : مذهب الخطيب	
تمهيد	١٩٥
الكناية والتخييلية عند الخطيب	١٩٦
انتلازم بين الكنية والتخييلية	١٩٧
مناقشة مذهب الخطيب	١٩٧
اعتراض السعد	١٩٨
تصوير الخطيب للتهمية في الحرف يؤول الى الكنية	٢٠١
رأي محمد بن علي بن محمد الجرجاني في الضرب	٢٠٤
المبحث الثاني : مذهب الجمهور	٢٠٣
المراد بالسلف والجمهور	٢٠٣

الموضوع	رقم الصفحة
قرينه الكنيـــة	٢٠٥
ما يرجح به هذا المذهـــب	٢٠٦
من اضافات المتأخـــرين	٢٠٧
الكنية المركبة	٢٠٧
الكنيـة التعمية	٢٠٨
عدم وجوب ذكر لفظ الشبه بلفظة الموضوع له حقيقة ..	٢٠٩
شـرط الـلازم	٢١٠
الحكم عند وجود اكثر من لازم	٢١١
جريان الترشيح والاطلاق والتجريد مع الكنية	٢١١
المعد يقوم بالتوفيق بين هذا المذهب ومسلك السكاكي	٢١٢
المبحث الثالث: مذاهب اخرى في الكنيـة	
المذهب المنسوب الـــى صاحـــــــــب	
الكشـــف	٢١٥
مذهـب العصـام	٢١٦
اعتراضات على هذا المذهـب	٢١٧
الفصـل الثالث : صور الكنيـة	٢١٨
الكنية ذات الشبه القريب	٢١٨
الكنيـة ذات الشبه البعيـد	٢٢٠
الكنية الملتبسه مع صور البيان الاخـرى	٢٢٢
الكنية الملتبسه مع التشبيه	٢٢٣
الكنية الملتبسه مع التصريحية	٢٢٦
الكنية الملتبسه مع التبعيـة	٢٢٨
الكنية الملتبسه بالكنايـــة	٢٣١
الكنية الملتبسه مع الحقيـة	٢٣٣
الكنيـة والمجاز العقـلي	٢٣٤
الكنية الملتبسه مع المجاز المرسل	٢٣٥
تعقيـــب	٢٣٧
مراجـع البحـث	٢٣٨
فهرس الموضوعات	٢٤٦